مكتبة نوبل

١٩٤٩

ويليام فوكنر

دخيل في التراب

11.5.2016

ترجمة أسامة منزلجي

وليام فوكنر

دخيلٌ في التراب

ترجمة

أسامة منزلجي

دخيل في التراب

رواية

المؤلف: وليام فوكنر
ترجمة: أسامة منزلجي
عنوان الكتاب: دخيل في التراب
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: ٢٠١٥

Author: **William Faulkner**
Translator: **Ossama Manzalji**
Tittle: **Intruder in the Dust**
Cover designed by: **Roula Majed**
P.C.: **Almada for media, culture & arts**
First Edition: **2015**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: ٨٢٧٢
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الفصل الأول

لم يكن الوقت قد تجاوز الظهيرة من فترة صباح يوم الأحد ذاك عندما وصل الشريف إلى السجن مع لوكاس بوشان، ومع ذلك كانت البلدة برمّتها (والبلد كلّه أيضاً في هذه المسألة) قد علِمتْ منذ الليلة السابقة أنْ لوكاس قد قتل رجلاً أبيض.

كان موجوداً هناك، ينتظر. كان الأول في الترتيب، واقفاً باسترخاء يحاول أنْ يبدو مشغول البال أو على الأقلّ بريئاً، تحت السقيفة أمام دكان الحدّاد المُغلَق الكائن على الطرف المقابل للسجن من الشارع حيث من غير المُحتمل أنْ يراه خاله إذا أو بالأحرى عندما يجتاز الساحة متجهاً نحو مكتب البريد للّحاق ببريد الساعة الحادية عشرة.

لأنه كان يعرف لوكاس دوشامب أيضاً - أي يعرفه جيداً كما يعرفه أي شخص أبيض. بل أفضل من أي منهم ربما باستثناء كاروذرز إدموندز الذي كان لوكاس يُقيم في منزله الذي يبعُد مسافة سبعة عشر ميلاً من البلدة، لأنه كان قد تناول وجبة في منزل لوكاس. حدث ذلك في أوائل الشتاء قبل أربع سنوات؛ كان عندئذٍ لا يتجاوز الثانية عشرة ووقع الأمر كما يلي: كان إدموندز صديقاً لخاله؛ كانا يدرسان معاً في جامعة الولاية، التي التحق خاله بها بعد أنْ عاد من هارفرد وهايدلبرغ لكي يُكمل دراسة القانون ويحصل على منصب محامي المقاطعة، وقبل يوم من وصول إدموندز إلى البلدة ليُقابل خاله بشأن عمل يخص المقاطعة وبات تلك الليلة معهم وعلى مائدة عشاء تلك الليلة قال إدموندز له:

" تعال إلى منزلي غداً لنخرج ونصطاد الأرانب "، ثم قال لأمه: " سوف أُعيده غداً بعد الظهر. سوف أُرسِل معه صبياً في أثناء وجوده في الخارج حاملاً بندقية "، ثم قال له من جديد: " إنَّ لديه كلباً جيداً "

قال خاله " ولديه صبيّ "، فقال إدموندز:

" هل الصبي أيضاً يُطارد الأرانب؟ " فقال خاله:

"سوف نعِد بأنه لن يتدخل في صيدك"

وهكذا في صباح اليوم التالي نزل هو وأليك ساندر في منزل إدموندز. كان الجو بارداً في صباح ذلك اليوم، أولى لسعات برد الشتاء؛ والسياجات اكتستْ بطبقة يابسة من الصقيع والمياه المتوقفة في مجاري تصريف المياه على جانب الطريق علتْها طبقة من الثلج وحتى حواف الماء الجاري في فرع ناين مايل تلألأت هشّة ووامضة كزجاج خرافي ومرّوا من أول فناء مزرعة ومن ثم مرة بعد مرة بعد مرة تصاعد دخان الحطب بلا ريح تزعجه وشاهدوا في الأفنية الخلفية القدورَ الحديدية السوداء وقد بدأتْ تُطلق الأبخرة بينما النسوة بقلنسوات واقية من شمسٍ ما تبقّى من صيف أو بقبعات الرجال اللباد القديمة ومعاطف الرجال الطويلة جالسات على زنود الخشب والرجال بمآزر من أكياس الخيش مربوطة فوق ثياب العمل بسلك يشحذون سكاكين أو يتحركون حول حظائر الخنازير التي تنخر وتزعق، ليست مُجفلة بالضبط، ولا فزعة بل فقط يقظة وكأنها تستشعر مُسبقاً وبصورة غامضة مصيرها الوشيك والوافر؛ ومع حلول الليل سوف تُعلّق فوق الأرض كلها جُثثها الفارغة الملوّنة الكثيفة الشحم المتينة والسليمة كالأشباح مُثبّتة من أظلافها في وضعية الركض المسعور وكأنها تنطلق بأقصى سرعة في مركز الأرض.

ولم يدرِ كيف وقع الأمر. الصبي، أحد أولاد نزيل إدموندز، أكبر

سناً وأكبر حجماً من ألك ساندر الذي بدوره كان أضخم حجماً منه[١] على الرغم من أنهما كانا من سن واحدة، كان ينتظر عند المنزل مع الكلب - كلب أصيل لصيد الأرانب، كلب فيه بعض صِفات كلب الصيد، بل الكثير من صفاته، وربما هو في الغالب كلب صيد، من نوع ريدبون وداكن البشرة وربما اجتمع مع كلب بوينتر صغير ذات مرة في مكان ما، أو من نوع بوتليكر هجين، كلب خاص بالزنوج تكفي نظرة واحدة إليه لمعرفة أنه تربطة صِلة نسب مع الأرانب كما يقول الناس إنَّ للزنوج صِلة نسب مع البغال - وكان لدى ألك ساندر هراوة - تشبه إحدى تلك العزقات الثقيلة التي يربطون بها سكك الحديد معاً، حُوّلت إلى يد مكنسة قصيرة - كان في استطاعة ألك ساندر أنْ يُطيح بها مرة بعد أخرى ويضرب أرنباً هارباً بدقة تقترب من دقّة إطلاق الرصاص من بندقية - مرَّ ألك ساندر وصبي إدموندز مزوَّدين بهراوات وهو مزود ببندقية من خلال المتنزه واجتازوا المرج إلى الجدول حيث كان صبي إدموندز يعلم بوجود معبر من خشب ولم يكن يعلم كيف حدث الأمر، إنه شيء يمكن توقّع أنْ تقوم به فتاة أو تُعذَر لفعله ولكن لا أحد آخر، وعند منتصف المسافة على معبر جذع الشجرة ودون حتى أنْ يفكر فيمَنْ سار على القضيب العلوي من السياج أبعد من هذه المسافة مرتين إذا بأرض الشتاء المُشمسة المألوفة والمعروفة تنقلب رأساً على عقب وإذا به مُنبطح على وجهه ولا يزال يحمل البندقية ويندفع ليس بعيداً عن الأرض بل بعيداً عن السماء البرّاقة ولا زال يتذكّر الرنين الرفيع البرّاق لتكسُّر الثلج وكيف أنه لم يشعر بصدمة المياه بل فقط بصدمة الهواء عندما ارتفع من جديد. وكان قد أسقط البندقية أيضاً لذلك اضطرّ إلى الغوص، إلى أنْ يغطس

---

(١) على امتداد الرواية سوف يُشار إلى الراوي ، وهو صبي في السادسة عشرة وابن أخت المحامي ، بضمير «هو» ولن يظهر اسمه إلا نادراً . المترجم

من جديد ليعثر عليها، أنْ يخرج من الهواء المُثلج إلى المياه التي لم يشعر بها هذا أو ذاك، لا باردة ولا ليست باردة وحيث حتى ملابسة المُشبعة بالماء - الجزمة والبنطلون السميك والسترة الصوفية ومعطف الصيد - لم يشعر بأنها ثقيلة بل فقط بطيئة، وعثر على البندقية وحاول مرة أخرى أنْ يصل إلى القاع ثم اندفع بيدٍ واحدة إلى ضفة النهر وجدّف الماء وتشبّث بغصن الصفصاف ثم رفع البندقية إلى أعلى إلى أنْ تناولها منه أحدهم؛ صبي إدموندز طبعاً بما أنَّ ألكساندرز كان عندئذٍ قد انقضَّ عليه بطرف عمود طويل، أشبه بزند من الخشب أصاب أولاً قدمه وغمر رأسه تحت الماء من جديد وكاد يجعله يُفلِت قبضته على غصن الصفصاف إلى أنْ قال صوتٌ:

" ابعد العمود من طريقه لكي يتمكن من الخروج " - مجرد صوت، ليس لأنه ما كان يمكن أنْ يكون إلا ألك ساندر أو صبي إدموندز بل لأنه لم يكن يهم صوت مَنْ منهما: وأخذ يرتقي خارجاً بكلتيّ يديه بين أشجار الصفصاف، والجليد المكسور يُخشخشُ ويرنّ وهو يرتطم بصدره، وملابسه كرصاص بارد ناعم لم يبدُ أنه يتحرك داخلها بل بالأحرى يمتطيها كمعطف واق من المطر أو مُشمَّع: ارتقى نحو الضفّة إلى أنْ رأى قدمين بجزمة من المطاط ليستا قدميّ صبي إدموندز ولا قدميّ ألك ساندر ومن ثم ظهرت منهما الساقان، وملابس العمل إلى أنْ ارتقى بالكامل ونهضَ واقفاً وشاهد رجلاً زنجياً يحمل فأساً على كتفه، مرتدياً معطفاً مُبطناً بصوف الغنم ويضع قبعة عريضة من اللباد باهت اللون كالتي كان جدّه يعتمرها، ونظر إليه وكانت تلك المرة الأولى التي يشاهد فيها لوكاس بوشان حسب ما يتذكّر أو بالأحرى للمرة الأولى لأنَّ المرء لا ينسى لوكاس بوشان؛ رفع بصره وهو يشهق، يرتعش وقد بات الان فقط يشعر بصدمة المياه الباردة، إلى الوجه الذي كان فقط يراقبه من دون مواساة بائسة أو أي شيء آخر، ولا حتى دهشة؛ فقط يُراقبه، ولم يبذل مالكه أي جهد

مهما كان ضئيلاً لمساعدته على الخروج من الجدول، بل في الحقيقة أمر ألك ساندر بالكف عن فعل ذلك بالعمود الذي كان المساهمة الوحيدة التي قام بها أي منهم - وجهٌ كان عمره حسب تقديره دون سن الخمسين أو حتى الأربعين لولا القبعة والعينين، وداخل جلد رجل زنجي ولكن كان ذلك كل شيء حتى بالنسبة إلى صبي في الثانية عشرة يرتعش من البرد ولا يزال يلهث من تأثير الصدمة والجهد المبذول لأنَّ ما أطلَّ منه كان شاحباً تماماً، بل أشدّ شحوباً من رجل أبيض، لم يكن متغطرساً، ولا حتى مؤنِّباً: فقط عنيداً وهادئاً. ثم قال صبي إدموندز شيئاً للرجل، ذاكراً اسماً: شيئاً يا سيد لوكاس: ثم عرِفَ مَنْ هو ذلك الشخص، متذكّراً باقي القصة التي كانت مقطعاً، أو فقرة من تاريخ البلد الذي قليلون هذا إنْ وُجِدَ أحد أصلاً يعرفونه أفضل من خاله: كيف أنَّ الرجل كان ابن أحد عبيد العجوز كاروثرز ماكسلن، عبيد الجد الأكبر لإدموندز، الذي لم يكن فقط عبدَ العجوز كاروثرز بل وابنه أيضاً: كان واقفاً الآن يرتعش باستمرار على مدى ما بدا له دقيقة أخرى كاملة بينما وقف الرجل ينظر إليه بوجه خالٍ تماماً من أي تعبير. ثم التفت الرجل، دون أنْ يوجه كلامه إلى الخلف، وباشر بالسير، دون حتى أنْ ينتظر ليرى إنْ كانوا سمعوا، ناهيك عن أنْ يُطيعوا:

" تعالوا إلى منزلي "

قال " سوف أعود إلى منزل السيد إدموندز ". لم ينظر الرجل إلى الخلف. بل إنه لم يُجِب.

قال " احمل بندقيته، يا جو "

وهكذا تبعه، وصبي إموندز وألك ساندر تبعاه، في رتلٍ واحد على طول الجدول نحو الجسر والطريق. وسرعان ما كفّ عن الارتعاش؛ بات الآن فقط يشعر بالبرد وبالبلل وكل ذلك يمكن أنْ يزول إذا ما

استمر في التقدّم. عبروا الجسر. والآن أصبحت البوابة أمامهم، حيث يستمر الدرب خلال المتنزه إلى منزل إدموندز. المسافة تكاد تبلغ الميل؛ غالباً سوف يجفّ ويسري فيه الدفء حالما يصل وكان لا يزال يعتقد أنه سوف ينام عند البوابة وحتى بعد أنْ علِمَ أنه لم يفعل أو على أية حال لم يكن قد فعل، كان قد تجاوز ذلك عندئذٍ، كان لا يزال يقول لنفسه أنَّ السبب هو أنَّ، على الرغم من أنَّ إدموندز عازب ولا توجد نساء في المنزل، إدموندز نفسه قد يرفض أنْ يدعه يخرج من المنزل بعد الآن إلى أنْ يتمكن من العودة إلى أمه، ولا يزال يقول لنفسه هذا حتى بعد أنْ علِم أنَّ السبب الحقيقي هو أنه لم يعُد يستطيع أنْ يتخيَّل نفسه يُعارِض الرجل الذي يسير أمامه بخُطى واسعة كما لم يستطع أنْ يُعارِض جدَّه، ليس خوفاً من أي عمل انتقاميّ أو عدمه بل لأنَّ الرجل الذي يتقدّمه بخطواته الواسعة كان كجدِّه عاجزاً ببساطة عن إدراك نفسه عبر فتى تعرَّضَ للمعارضة والتحدّي.

لذلك فإنه لم يتردّد عندما اجتازوا البوابة، بل لم ينظر إليها والآن أصبحوا ليس داخل زقاق مطروق ومُعتنى به يؤدي إلى منزل أو إلى حي للموظفين وعليه آثار أقدام بل إلى ممر برّي يتراوح ما بين الأخدود والدرب يرتقي تلاً بجو مستقل منعزل ووعر أيضاً ومن ثم شاهد المنزل، الكوخ وتذكّر باقي القصة، الأسطورة؛ كيف نقل إلى والد إدموندز إلى قريبه الزنجي وورثه إلى الأبد صك ملكية المنزل والأطيان العشرة من الأرض المُقام عليها – قطعة الأرض المستطيلة المُقامة إلى الأبد في وسط مزرعة مساحتها ألفان من الأطيان أشبه بطابع بريدي وسط مُغلّف – والمنزل الخشبي غير المدهون، وسياج الأوتاد غير المدهون الذي بوابته الخالية من القفل وغير مدهونة فتحها الرجل بركلة من قدمه دون أنْ يتوقف أو أنْ ينظر خلفه مرة ثم انتقل، هو يتابع طريقه وألك ساندر وصبي إدموندز يتبعاه، إلى الفناء. في الصيف يكون بلا عشب؛ يستطيع أنْ يتخيَّل ذلك، مُجرداً تماماً، لا أعشاب برية

ولا أغصان من أي نوع، الغبار في صباح كل يوم تكنسه بعض النسوة من قوم لوكاس بمكنسة مصنوعة من أغصان الصفصاف مربوطة معاً، ليغدو سلسلة معقدة من المغازل والأنشوطات المتراكبة التي مع تقدُّم ساعات النهار يطمسها بالتدريج وببطء براز الدجاج وآثار أقدامه المُبهمة ثلاثيّة الأصابع وكأنه (يتذكّره الآن وهو في السادسة عشرة) تضاريس مُنمنمة من عصر السحالي الضخمة، والأربعة يقومون بما هو أقلّ من نزهة لأنّ سطحه كان يتألّف من القذارة أيضاً لكنه كان أكثر من مجرد ممر، الشريط المزدحم بآثار الأقدام الممتد مباشرة بين حدّين من حاويات القمامة وزجاجات فارغة، وقطع مكسورة من الصيني والفخّار وُضِعَت على الأرض وحتى أعلى الدرَج غير المدهون والرواق غير المدهون الذي وُضِعَ على طول حافته المزيد من الحاويات لكنها أكبر حجماً - دلاء فارغة بسعة غالون كانت تحتوي سابقاً دبس السُكر أو ربما دهاناً وماء مُستعملاً أو دلاء حليب وحاوية تتسع خمسة غالونات من الكيروسين أُزيلتْ قمّتها ونصف ما كان ذات يوم حاوية ماء المطبخ الحار الخاصة بأحدهم (بإدموندز دون أدنى شك) قُطِعَتْ بالطول كثمرة موز - نبتت منها أزهار في الصيف السابق ولا زالت السيقان الميتة والحوالق الجافة والهشّة ملتوية ومتدلية، وبعد ذلك يقع المنزل نفسه، رمادي ومتحول بفعل تقلبات الطقس وليس خالياً تماماً من الدهان بقدر ما كان مُستقلاً عن الدهان وعصياً عليه بحيث أنّ المنزل لم يكن فقط الاستمرار الوحيد الممكن للطريق الصارم المُهمَل بل كان أيضاً تتويجاً له كما أنّ أوراق شجرة السماء المنحوتة هي تاج العمود الإغريقي.

لم يكن الرجل قد توقف بعد، ارتقى الدَرَج واجتاز الرواق وفتح الباب وولجَ وتبعه هو ومن ثم تبعه صبي إدموندز وألك ساندر؛ بعد منطقة الخارج البرّاقة كان رواق مُعتم بل كاد يكون مُظلماً وبدأ على الفور يشم تلك الرائحة التي كان قد قبِلَها دون جِدال طوال حياته

على أنها رائحة تفوح دائماً من الأماكن التي يسكنها أناس في دمائهم أقلّ قدر من الدماء الزنجية كما قبِلَ أنّ كل مَنْ يحمل اسم ماليسون ينتمي للمذهب المنهجي، ثم غرفة النوم: الأرضية عارية متهرئة شديدة النظافة خالية من الدهان أو السجاد، في إحدى زواياها سرير فسيح تخيّم عليه ظِلّة ظليلة عليه لحاف من رُقع ملوّنة برّاقة لعله جاء من منزل كاروثرز ماكسلن القديم، وطاولة زينة رخيصة وبالية طراز غراند رابيدز ومن ثم حالياً لم تعُد كذلك أو ربما إلا قليلاً؛ ولكن لاحقاً سوف يُلاحِظ - أو يتذكّر أنه كان قد رأى - رفّ المدفأة المزدحم الذي استقرّ عليه مصباح كيروسين مرسوم على مقبضه أزهار ومزهرية مملوءة بقطع ملتوية من صحيفة وفوق الرف عُلّقت نسخة حجرية من روزنامة عمرها ثلاثة أعوام تظهر عليها صورة بوكاهانتس بينطلون مزيّن بالريش وبالأهداب الخاصة برئيس قبيلة سيو أو تشيبيوا واقفة أمام درابزين من الرخام الإيطالي يطل على حديقة من أشجار السرو التقليدية وفي الظل في الركن المقابل للسرير صورة حجرية ملوّنة تمثّل شخصين ضمن إطار سميك من الخشب المطلي بالذهب على حامل مدهون بالذهب. لكنه لم يكن قد رأى ذلك بعد لأنه أصبح خلفه وكل ما يراه الآن كان النار - المدخنة من حجارة الحقل المطلية بالجص فيها زند من الخشب خلفيّ نصف مشتعل يتوهج ويُدخّن في الرماد وإلى جوارها على كرسي هزّاز شيء ظنّ أنه طفل إلى أنْ رأى وجهه، وعندئذٍ توقفَ فترة كافية لينظر إليها لأنه كان يوشك أنْ يتذكّر شيئاً آخر أخبره به خالها عن لوكاس بوشان أو على الأقلّ أمراً يخصّه، وعندما نظر إليها أدرك للمرّة الأولى كم كان الرجل عجوزاً حقاً، أو يجب أنْ يكون - امرأة عجوز ضئيلة تكاد تكون بحجم دُمية أشدّ سُمرة بكثير من الرجل، تضع وشاحاً ومئزراً، رأسها معصوب بقطعة قماش ناصعة البياض جثمتْ على قمّته قبعة ملونة من القش عليها ما يُشبه الزينة. ولكن لم يتذكّر ما الذي كان قد قاله خاله أو أخبره به ومن

ثم نسي أنه تذكّرَ أنه قد قيل له، وهو نفسه جالس على الكرسي الآن بارتياح أمام الموقد حيث كان صبي إدموندز يُذكّي النار بقطع من الخشب وبشظايا من خشب الصنوبر وألك ساندرو جالساً القرفصاء وينزع الجزمة المُبلّلة وبعد ذلك بنطلونه ثم يقف ويخلع معطفه وسترته الصوفية وقميصه، وكان على كليهما أنْ يتحرّكا حول وتحت وأمام الرجلِ الذي وقف متباعد الساقين عند الموقد، وظهره نحو النار منتعلاً الجزمة المطاطية ويعتمر القبعة و لم يخلع إلا معطف جلد الغنم وحده ومن ثم كانت المرأة العجوز من جديد إلى جانبه أقصر منه ومن ألك ساندر حتى وهو في الثانية عشرة، وعلى ذراعه لحاف أخر من الرقع البرّاقة.

قال: الرجل "تعرّ"

قال: "كلا أنا"

قال الرجل " تعرّ ". فنزع أيضاً رداءه الداخلي الطويل المُبلل ومن ثم عاد إلى الجلوس على الكرسي أمام النار التي أضحت الآن متوهجة وتتلظّى، مُتدثراً باللحاف كالشرنقة، الذي كان يُحيط به تماماً وسط عبق الزنوج الذي لا يُخطئ - تلك الرائحة التي لو لم تكن تتعلّق بأمر كان سيقع له في غضون فترة محسوبة من الزمن لذهب إلى قبره من دون أنْ يتفكّر متسائلاً ولو مرة واحدة إنْ كانت تلك الرائحة ربما ليست حقاً رائحة سلالة ولا حتى في الواقع الفقر بل ربما رائحة حالة: فكرة: إيمان: قبول، قبولِ سلبيّ من قِبلِهم أنفسهم لفكرة أنه بما أنهم من الزنوج ليس من المُفترض أنْ يحصلوا أبداً أو غالباً على تسهيلات للاغتسال كما ينبغي أو حتى أنْ يستحموا غالباً من دون تسهيلات؛ وأنّ في المُفضّل قليلاً ألا يفعلوا. لكنّ الرائحة حينئذٍ لم تكن تعني شيئاً أو حتى ذلك الحين؛ كانت لا تزال هناك ساعة من الزمن قبل أنْ يقع الحادث وسوف تمرّ أربع سنوات أُخر قبل أنْ يُدرك

مدى تشعباته وتأثيره عليه وسوف يُصبح رجلاً بالغاً قبل أنْ يُدرك، أنْ يعترف بانه قبِلَه. لذلك فقد شمّها فقط ومن ثم نبذها لأنه تعوَّدَ عليها، وطوال حياته وهو يشمها على فترات وسوف يستمر في شمّها: هو الذي أمضى الجزء الأكبر من تلك الحياة في كوخ بارالي، والدة ألك ساندر في فنائهم الخلفي حيث كان هو وألك ساندر يلعبان في الطقس السيئ وهما صغيران وكانت بارالي تطبخ لهما وجبات كاملة بين الوجبتين في المنزل وكان هو وألك ساندر يأكلانها معاً، وكان مذاق الطعام هو نفسه بالنسبة إلى كليهما؛ بل إنه ما كان يستطيع حتى أنْ يتخيَّل الوجود من دون تلك الرائحة. لطالما شمَّها، ولسوف يشمها دائماً: كانت جزءاً من ماضيه الذي لا مفرّ منه، كانت جزءاً ثرياً من إرثه كجنوبيّ؛ بل لم يكن في حاجة إلى التخلُّص منها، هو فقط لم يعُد يشمها أبداً بما أنَّ مُدخِّن الغليون لم تعُد تفوح منه رائحة الغليون التي تشكّل جزءاً من رائحة ملابسه وأزراره وعُرى أزراره، وهو جالس يغفو قليلاً حتى وسط رائحة اللحاف الكريهة الدافئة والمتراكمة، أفاق قليلاً عندما سمع صبي إدموندز وألك ساندر ينهضان من حيث كانا يربضان عند الجدار ويغادران الغرفة، ولكن ليس كثيراً، وغاص من جديد في رائحة اللحاف الكريهة والدافئة في حين كان لا يزال يقفُ فوقه، وظهره إلى النار ويداه تشتبكان خلفه ولولا اليدان المشتبكتان والفأس المفقودة ومعطف جلد الخروف تماماً كما كان قد نظر عالياً من جدول الماء ورآه أولاً، الرجل ذو الجزمة المطاطية وملابس العمل بلونها الباهت الخاصة بزنجي ولكن مع سلسلة الساعة الذهب الثقيلة تلتفّ حول صدرية رداء العمل وبعد أنْ ولجوا الغرفة بقليل وعى لوجود الرجل يلتفت ويتناول شيئاً عن رف المدفأة المزدحم ويضعه في فمه ولاحقاً عرِفَ ما هو: خِلال أسنان من الذهب كالذي كان جدُّه يستعمله: وكانت القبعة المتهرئة من جلد القندس مصنوعة يدوياً كالتي دفع جدّه مقابل كل واحدة منها ثلاثين وأربعين دولاراً، لا تستقرّ على

قمّة الرأس بل تميل قليلاً فوق الوجه المصبوغ كوجه زنجي لكنه بأنف عالٍ عند الجسر بل أنه معقوف قليلاً وما يطل من خلاله أو من خلفه ليس أسود ولا حتى أبيض، ليس متغطرساً على الإطلاق ولا حتى مؤنّباً: فقط متعصب، متصلب، وهادئ.

ثم عاد ألك ساندر مع ملابسه، جافة الآن ولا زالت تقريباً حارة من تأثير المدفأة وارتداها، وانتعل جزمته المتيبّسة؛ كان صبي إدموندز الجالس القرفصاء عند الجدار لا يزال يأكل شيئاً من يده وقال: " سوف أتناول عشائي في منزل السيد إدموندز "

لم يحتجّ الرجل ولا قبِل. لم تند عنه أية حركة؛ لم يكن حتى ينظر إليه. اكتفى بالقول، بتصلّب وهدوء: " ستكون قد سكبتْ الطعام الآن ": ومرَّ من أمام المرأة العجوز التي تنحّت جانباً عن الباب لتسمح له بالمرور، إلى المطبخ: كانت طاولة مكسوة بقماش مُشمّع قد مُدّتْ في البقعة المُشمسة للنافذة الجنوبية حيث – لم يعلم كيف عرف ذلك بما أنه لم تكن هناك إشارات، أو آثار، أو أطباق قذرة تدل عليه – كان صبي إدموندز وألك ساندر قد تناولا الطعام تواً، وجلس وتناول بدوره ما كان بجلاء عشاء لوكاس – أوراق الملفوف، شريحة من لحم الخاصرة مقلية بالطحين، وبسكويت كبير مُسطّح باهت اللون وثقيل ونصف ناضج، وكأس من مخيض اللبن: وهو طعام الزنوج أيضاً، قبِله ثم رفضه أيضاً لأنه كان بالضبط ما توقّع، إنه ما يأكله الزنوج، لأنه طبعاً ما يحبون، ما يختارون؛ وهذا ليس (في سن الثانية عشرة: سوف يُصبح رجلاً ينمو قبل أنْ يختبر أول شكّه المذهول في هذا) ما أُتيحَ لهم على مدى تاريخهم الطويل أنْ يتعلموا أنْ يُحبوا ما عدا أولئك الذين يأكلون من مطابخ البيض بل انتقوه من بين ما كانوا يأكلون لأنّه يمثّل أذواقهم وتكوينهم؛ بعد ذلك، وبعد مرور عشر دقائق وعلى مدى السنوات الأربع التالية سوف يُحاول أنْ يُقنع نفسه

بأنَّ الطعام هو الذي سيقضي عليه. لكنه سيعرف أفضل من ذلك؛ إنَّ خطأه الأول، سوء حكمه كان حاضراً طوال الوقت، وليس في حاجة إلى تحريض من رائحة المنزل واللحاف لكي يُبقي على حيوية ما أطلّ (وليس حتى عليه؛ بل فقط أطلّ) من وجه الرجل؛ ونهض أخيراً وقطعة النقد، النصف دولار في يده عائداً إلى الغرفة الأخرى: عندما شاهد للمرة الأولى لأنه تصادف أنْ كان يواجهها الآن الصورة الجماعية ذات الإطار المُذهّب على حاملها الذهبي واقترب منها، منحنياً ليُنعم النظر إليها في زاويتها المُعتمة حيث فقط ورقة الذهب تلمع، قبل أنْ يعلم أنه سوف يُنفّذ العمل. كان جلياً أنها مُنقّحة؛ من خلف قبّة الزجاج المستديرة البرّاقة بوهن أطلّ عليه من جديد كأنما من كرة العرّاف الزجاجية الوجه الهادئ المتعصّب من تحت حامل القبعة الأنيق، ياقة مُنشّاة بلا ربطة عنق مُثبّتة إلى قميص أبيض مُنشّى مع زر ياقة على شكل رأس حيّة وبحجمه تقريباً، وسلسلة الساعة تلتف الآن حول صدرية عريضة داخل معطف عريض ووحده الهلال مفقود، وإلى جواره المرأة الشبيهة بدُمية صغيرة تعتمر قبعة قش مدهون أخرى وتضعُ وشاحاً؛ أي أنه لا بد أنها المرأة نفسها على الرغم من أنها بدتْ لا تشبه أي شخص رآه من قبل ومن ثم أدرك أنَّ الأمر يتجاوز ذلك: كان هناك شيء مروّع، خاطئ بصورة تكاد لا تُطاق حول ذلك الشيء أو حولها؛ حين تكلّمتْ ورفع هو نظره، كان لا يزال الرجل واقفاً متباعد الساقين أمام النار والمرأة جالسة من جديد على الكرسي الهزّاز في مكانها القديم في الركن تقريباً و لم تكن تنظر إليه حينئذٍ وأدركَ أنها لم تنظر إليه أبداً منذ أنْ دخل من جديد لكنها قالت:

"هذا المزيد من أفعال لوكاس"

فقال: "ماذا؟"

فقال الرجل: "مولي لا تحب ذلك لأنَّ الرجل الذي التقطها انتزع

عصابة رأسها: " وانتهى الأمر، كان لها شعر: كأنك تنظر إلى جثة مُحنّطة من خلال الغطاء الزجاجي المُحكَم لكفن وقال في نفسه: مولي. طبعًا لأنه تذكّرَ عندئذٍ ما قاله له خاله عن لوكاس أو عنهم.

قال: "لِمَ انتزعها؟"

قال الرجل "أنا طلبتُ منه ذلك. لم أرغب في وجود صورة لزنجي يعمل في الأرض في بيتي: "، وهنا مشى نحوهم، واضعاً قبضة يده التي تحمل النصف دولار في جيبه من جديد وحاملاً معه داخل كفّه قطعة دايم ونكلتين - كل ما يملك - قائلاً: "أنت أتيت من المدينة. خالي يعرفك - المحامي غافن ستيفنس"

قالت "وأنا أتذكّر أمك أيضاً. كان اسمها الآنسة ماغي داندريدج".

قال: "تلك كانت جدّتي. اسم أمي هو أيضاً ستيفنس" وقدّمَ لها القطع النقدية؛ وفي اللحظة نفسها التي عرف أنها كان يمكن أنْ تأخذها عرف أنه تأخر بمقدار تلك اللحظة وحدها التي لا يمكن استعادتها، تأخر إلى الأبد ولن يعود، وقف وحركة الدم الحار أعلى عنقه ووجهه بطيئة كبُطء الدقائق نفسها، ودائماً ويده الخدرة مفتوحة وفيها القطع الأربع المُشينة من النفاية المصكوكة والمضروبة، إلى أنْ أصبح بحوزة الرجل أخيراً ما يحلّ على الأقل محل الشفقة.

قال الرجل " لِمَ هذه؟"، دون حتى أنْ يتحرك، دون حتى أنْ يحني وجهه نحو الأسفل لينظر إلى ما كان في راحة يده:على مدى فترة أخرى طويلة والدم الحارّ الميت الساكن وحده إلى أنْ جرى أخيراً حتى الهيجان بحيث أنه على الأقلّ استطاع أنْ يسمع الخزي: وراقبَ راحة يده تنقلب لا ليُسقِط القطع النقدية بل ليرميها إلى أسفل وترن على الأرضية الجرداء، وتقفز وإحدى النكلتين تتدحرج بحركة منعطفة بصوت دقيق جاف كجري فأر صغير: ثم صوته يقول: "التقطها!"

ولم يحدث شيء، الرجل لم يتحرك، واليدان متشابكتان خلفه، ينظر إلى الفراغ؛ ليس هناك غير تدفق الدم الحار والميت والثقيل الذي ينبثق الصوت المتكلّم منه، مُخاطباً لا أحد: "التقط نقوده" وسمع ورأى ألك ساندر وصبي إدموندز يمدان إيديهما ويركضان بين الظلال بالقرب من الأرضية. قال الصوت "اعطها له"، وأسقطَ صبي إدموندز القطعتين اللتين عثر عليهما في راحة يد ألك ساندرز وشعر بيد ألك ساندرز تتحسّس القطع الأربع في يده الخاصة المتدلية ثم يضعها فيها. قال الصوت "والآن اذهب واصطد أرانبك. وابقَ بعيداً عن ذلك الجدول".

الفصل الثاني

وساروا من جديد في البرد المُشرِق (على الرغم من أنّ الوقت عندئذٍ كان الظهيرة والجو دافئاً ربما إلى أقصى درجة ممكنة في ذلك اليوم)، عائدين عبر جسر الجدول والكلب (فجأة: تلفّتوا حولهم، فوجدوا أنهم قطعوا ما يُقارب النصف ميل على طول الجدول وهو حتى لم يتذكّر) وضع الأرنب داخل دغل من الخلنج بجوار حقل من القطن ومن ثم انتشله من جديد وهو ينبح بشكل مسعور، البقعة الصغيرة المسعورة ذات اللون الأسمر المصفرّ تبدو في لحظة كروية متماسكة ككرة الكروكيت وفي اللحظة التالية طويلة وتشبه الحيّة، تنبجس خارجة من الدغل وتتقدّم الكلب، وذنبه الأبيض الناصع يندفع بحركة متكسّرة عبر صفوف القطن العارية كشراع قارب دمية على سطح بركة تعصف بها الريح بينما صاح ألك ساندر عبر الدغل:

" أطلق النار عليه! أطلق النار عليه! " ثم " لِمَ لا تُطلق النار عليه؟ " ومن ثم التفت بلا استعجال ومشى بخطى ثابتةَ نحو الجدول وأخرج القطع النقدية الأربع من جيبه ورماها إلى الماء: وفي أثناء أرقه على سريره في الليل أدرك أنّ الطعام لم يكن فقط أفضل ما قدّم لوكاس بل كل ما لديه ليقدّمه؛ كان قد ذهب إلى هناك في صباح ذلك اليوم كضيفٍ ليس على إدموندز بل على مزرعة العجوز كاروثرز ماكسلن وأدركَ لوكاس ذلك في حين هو لم يُدرك ولذلك ضربه لوكاس، وقف متباعد الساقين أمام الموقد ودون حتى أنْ يُحرّك يديه المتشابكتين من خلف ظهره كان قد اخرجَ السبعين سنتاً التي في حوزته وضربه بها، أخذ يتلوى من الحنق ويفكر في الرجل الذي لم يره إلا مرة واحدة

وذلك قبل فقط اثنتي عشرة ساعة، وخلال العام التالي سوف يعلم أنَّ كل رجل أبيض في ذلك القطاع من البلد كان يفكر فيه على مدى سنوات عديدة: علينا أنْ نجعل منه زنجياً أولاً. يجب أنْ يعترف بأنه زنجي. بعد ذلك قد نقبله كما يبدو أنه ينوي أنْ يُقبَل. لأنه بدأ في الحال بمعرفة الكثير عن لوكاس. ليس عن طريق السماع: بل عرِفَه بنفسه، كل ما يمكن لأي شخص يعرف ذلك الجزء من البلاد أنْ يُخبره به عن الزنجي الذي يُخاطب النساء بـ " مام " كما يُخاطبك أي رجل أبيض بكلمة " سير " أو مستر " إذا كنتَ أبيض ولكنكَ تعلمُ أنه لا يقصد أياً منهما وهو يعلم أنكَ تعلم هذا لكنه حتى لا ينتظر، متحدياً إياك في أنْ تقوم بالخطوة التالية، لأنه لم يكن حتى يأبه. على سبيل المثال، ما يلي.

كان ذلك بعد ظهيرة يوم سبت قبل أربع سنوات في متجرٍ يقع على مفترق طرق على بُعد أربعة أميال من منزل إدموندز حيث في وقتٍ ما خلال بعد ظهيرة يوم سبت كل ساكن أو مُستأجر أو مالك حرّ أبيض أم أسود في الحي يمرُّ على الأقلّ أو في المعتاد يتوقف، وفي أغلب الأحيان يبتاع شيئاً، كانت البغال والجياد المتقرحة المُسرّجة تُربَط بين أشجار الصفصاف والبتولا والجمّيز في الوحل المُداس تحت النبع وراكبوها يفيضون من المتجر نفسه حتى المقعد الطويل المُغبرّ في المقدمة، واقفين أو جاثمين على أعقاب أقدامهم يشربون من زجاجات الصودا ويصقون التبغ ويلفّون دون استعجال سجائر ويقدحون بدقة عيدان الثقاب من أجل إشعال الغلايين المُطفأة؛ في ذلك اليوم كان هناك ثلاثة رجال بيض لا يزالون شبان من طاقم منشرة قريبة، وكلهم سكارى قليلاً، أحدهم كان معروفاً بإثارة الشغب وبالعنف، ودخل لوكاس مرتدياً بذلة متهرئة من الجوخ الأسود التي كان يرتدي عندما يذهب إلى المدينة وفي أيام الآحاد ويعتمر قبعة جميلة بالية من القش ويضع سلسلة الساعة الثقيلة وخلال الأسنان، وحدث أمر، والقصة لم تقل أو ربما لم تكن حتى تعلم ما هو، ربما الطريقة التي مشى بها

لوكاس، ودخل دون أنْ يُخاطب أحداً وتوجه إلى البار وقام بالشراء (كانت علبة بخمسة سنتات من فطائر الزنجبيل) والتفت ومزّقَ طرف العلبة وأخرج خلال الأسنان ووضعه داخل جيب صدريته وهزّ إحدى فطائر الزنجبيل لتنزل إلى راحة كفّه ووضعها في فمه، أو ربما لا شيء كان كافياً، وإذا بالرجل الأبيض الواقف يقول شيئاً للوكاس، يقول "أنت يا ابن الحرام إدموندز أيها الداعر المتكبِّر القذر الجلف" وتابع لوكاس مضغ فطيرة الزنجبيل والابتلاع والعلبة تميل من جديد عبر يده الأخرى، وأدار رأسه ببطء شديد ونظر إلى الرجل الأبيض برهة ومن ثم قال:

"أنا لستُ من آل إدموندز. لا أنتمي إلى أولئك الوافدين الجُدد. أنا أنتمي إلى القوم العريقين. أنا من آل ماكسلن"

قال الرجل الأبيض "إذا بقيتَ تتجول في هذا المكان وهذه النظرة على وجهك فسوف تغدو حطاماً". وعلى مدى لحظة أو على الأقل نصفها ألقى لوكاس على الرجل الأبيض نظرة مُجرّدة متأملة وهادئة؛ وببطء مالت علبة الكرتون في إحدى يديه أكثر إلى أنْ سقطت فطيرة زنجبيل أخرى على راحة يده الأخرى، ثم رفع زاوية شفته وامتصّ السن العِلوي، مع ضجيج مرتفع جداً وسط الصمت الفوريّ ولكن من دون أي تلميح ساخر أو نوع من الردّ أو حتى الاستهجان، ومن دون تلميح إلى أي شيء مهما كان بل بصورة مجردة، كمَنْ أكل فطائر زنجبيل وسط مائة ميل من العزلة وامتصّ - كما فعل - سناً، وقال:

"نعم، سمعتُ هذه الفكرة من قبل. وأنا ألاحظ أنَّ الذين يُثيرونها ليسوا حتى من آل إدموندز: "وعلى الأثر مدَّ الرجل الأبيض يده حتى عندما قفز لوكاس من مكانه ومن دون أنْ ينظر إلى الوراء حيث كان على نضد البار خلفه عدد من أعمدة المحاريث الأفقية واختطف واحداً ورفعه وهمَّ بأنْ ينهال به عليه عندما ظهر ابن صاحب المحل،

الذي بدوره أقرب إلى الشباب، إما من حول البار أو من فوقه وقبض على الآخر لكي لا يُصيبه العمود ويؤذيه عبر الممر بين الكراسي وارتطم بالمدفأة الباردة؛ ثم أمسك رجلّ آخر الرجل أيضاً.

قال ابن مالك المكان نحو الخلف " اخرج من هنا، يا لوكاس! ". لكنَّ لوكاس لم يتزحزح من مكانه مع ذلك، ولزم الهدوء، و لم يبدُ عليه حتى الازدراء، ولا الاحتقار، ولا حتى اليقظة الشديدة، كانت علبة الكرتون المبهرجة لا تزال كما هي في يده اليُسرى والفطيرة الصغيرة في اليُمنى، وراقب ابن مالك المحل ورفيقه يُمسكان بالرجل الأبيض المزبد ويسبّ. هتف ابن صاحب المحل " ارحل من هنا، أيها الأحمق الملعون! ": عندئذٍ فقط تحرّك لوكاس، دون استعجال، مستديراً دون استعجال واتجه نحو الباب، رافعاً يده اليُمنى إلى فمه بحيث يروا وهو يخرج من الباب حركة المضغ الثابتة.

لأنّه كان هناك النصف دولار. المبلغ الأصلي كان سبعين سنتاً طبعاً وبأربع قطع نقدية ولكنه كان منذ ذلك الحين خلال تلك الأجزاء القليلة الأولى من الثانية قد نقلها حوّلها إلى تلك القطعة النقدية الواحدة الصحيحة في الكتلة وفي الوزن خارج كل الأبعاد إلى فقط قيمتها القابلة للتحويل؛ في الواقع كان هناك وقت، عندما تُنهك أخيراً لبرهة مقدرة روحه على الندم أو ربما على مجرد التلوّي البسيط أو كائناً ما كان وحتى تهدأ، يقول لنفسه على الأقلّ لديّ النصف دولار، على الأقلّ لديّ شيء لأنه الآن ليس فقط خطأه هو وعار قطعة النقد بل وبطلها أيضاً – الرجل، الزنجي، الغرفة، اللحظة، اليوم نفسه – أصبح صلباً اختفى وتحول إلى الرمز المُستدير الصلب لقطعة النقد وسوف يرى نفسه مستلقياً يراقب دون ندم بل وبهدوء بينما القطعة تتضخّم يوماً بعد يوم إلى حجمها العملاق الأعظمي، لكي تُعلّق تُثبتْ أخيراً وإلى الأبد على القبّة السوداء لألمه كآخر قمر ميّتْ وبدر وهو نفسه،

وشبحه هو الواهن المومئ والضئيل أمامه في حركة كسوف مسعورة وعقيمة: مسعورة وعقيمة لكنها لا تكلّ أيضاً لأنه لن يتعب أبداً، و لم يعُد في استطاعته الآن أنْ يتخلّى عن الذي حطَّ من قدر ليس فقط رجولته بل جنسه كله أيضاً؛ وبعد ظهيرة كل يوم بعد انتهاء الدوام المدرسي وطوال يوم السبت، إلا إذا كانت هناك مباراة في كرة القدم أو أنه ذهب للصيد أو كان هناك عمل آخر أراد أو احتاج إلى أنْ يقوم به، يذهب إلى مكتب عمه حيث يردّ على المكالمات الهاتفية أو يقوم ببعض المهام، وكلها متشابهة في مسؤوليتها وإنْ لم تكن ضرورية؛ على الأقل كان إعلاناً عن رغبته في حمل قسم من عبئه الخاص. وكان قد باشر ذلك وهو لا يزال طفلاً، حين لم يكد يستطيع أنْ يتذكّر، بسبب صِلته الوثيقة العمياء والمُطلقة بخاله الوحيد التي لم يُحاول أنْ يفكّر فيها، والتزم بها منذ ذلك الحين؛ ولاحقاً، في سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة كان يفكّر في قصة الصبي وعِجله الأليف الذي كان يرفعه كل يوم عبر سياج المرج؛ ومرّتْ السنون وأصبحا رجلاً وثوراً وظل يرفعه عبر سياج المرج في كل يوم.

وتخلّى عن عِجله. كان الوقت قبل حلول عيد الميلاد بثلاثة أسابيع؛ وبعد ظهيرة كل يوم بعد انتهاء دوام المدرسة وطوال يوم السبت يكون إما في الساحة أو حيثما يستطيع أنْ يراه، يراقبه. بقيَ الجو بارداً على مدى يوم أو يومين آخرَين، ثم أصبح دافئاً، وأصبح الهواء عليلاً ومن ثم أصبحت الشمس المُشرقة سديمية وأمطرتْ السماء لكنه واظبَ على المشي أو الوقوف في الشارع حيث واجهات المتجر مملوءة بالدُمى وبضائع عيد الميلاد والمفرقعات والأضواء الملونة والنباتات دائمة الخُضرة والزينة المُبهرجة أو خلف الواجهة التي يعلوها البخار للصيدلية أو دكان الحلاّق يراقب وجوه البلاد، والحزمتين – أربعة من السيجار كل اثنينْ بربع دولار من أجل لوكاس وعلبة نشوق على شكل دمية صغيرة من أجل زوجته – ملفوفتين بورق عيد الميلاد البرّاق

في جيبه، إلى أنْ شاهد رأى إدموندز فأعطاه إياها ليسلّمها في صباح يوم الميلاد. ولكنّ ذلك استنزف السنتات السبعين ؛ لم يتبقّ إلا القرص الميت الشنيع مكشوف الرأس الذي يتدلى كل ليلة فوق هوة الحنق والعجز المُظلمة: ليته يكون زنجياً أولاً، فقط لثانية واحدة، لجزء صغير جداً من الثانية: وهكذا في شهر شباط بدأ يهِبُ نقوده - السنتات الخمسة والعشرون التي كان والده يُخصصها له كل أسبوع والخمسة والعشرون سنتا التي كان خاله يدفعها له كراتب من المكتب - إلى أنْ فاض الكيل في شهر أيار وقام بمساعدة أمه بانتقاء ثوب من الحرير الصناعي المطبوع بالأزهار وأرسله بالبريد إلى مولي بوشان، بوساطة كاروثرز عبر البريد المجاني وأخيراً ارتاح قليلاً لأنَّ الحنق زال وما لم يستطع أنْ ينسى كان الإحساس بالحزن وبالعار؛ كان القرص لا يزال مُعلّقاً من القبّة المظلمة ولكن كان قد أصبح بعمر العام الآن ولذلك لم تكن القبّة نفسها حالكة السواد بوجود القرص يزداد شحوباً وكان في استطاعته حتى أنْ ينام تحته كما يغفو الأرِق أخيراً تحت قَمرهِ المتضائل والخالي من الوهج. ثم جاء شهر أيلول؛ وكانت المدارس ستفتح أبوابها بعد أسبوع آخر. وبعد ظهيرة أحد الأيام عاد إلى المنزل وكانت أمه في انتظاره.

قالت " ثمة شيء لأجلك ". كان مقدار دلو سعة غالون من دبس السكّر الطازج المصنوع منزلياً وخمّن الجواب في الحال قبل أنْ تنتهي من الكلام بوقت طويل: " أرسله إليك شخص من منزل السيد إدموندز "

قال، بشبه صياح " لوكاس بوشان. منذ متى ذهب؟ لِمَ لم ينتظرني؟"

قالت أمه " كلا، لم يُحضِره بنفسه. بل أرسله. جلبه صبي أبيض على متن بغل "

وكان ذلك كل شيء. لقد كانوا على صواب هناك حيث بدؤوا؛ لقد تكرر الأمر من جديد؛ بل كان أسوأ هذه المرة لأنَّ لوكاس في هذه المرة طلب شخصاً أبيض ليُحصّل له نقوده ويُعيدها إليه. ثم أدرك أنه لا يستطيع حتى أنْ يبدأ من جديد لأنَّ استعادة عبوة الدبس ورميها على باب لوكاس الأمامي لن يعني إلا القطع النقدية من جديد لكي يطلب لوكاس من أحدهم من جديد أنْ يحملها ويعود، دون أنْ ينسى أنْ عليه أنْ يمتطي مهر شتلاند الذي أصبح هو أكبر منه يخجل منه لولا أنَّ أمه لم توافق بعد على أنْ تدعه يحصل على حصان كامل النمو أو على الأقلّ على النوع كامل النمو الذي يريد وكان خاله قد وعده به، عليه أنْ يقطع سبعة عشر ميلاً لكي يصل إلى الباب ويرميه. سيكون هذا كل ما في الأمر؛ وما يمكن أنْ يُحرره أو يستطيع أنْ يفعل ذلك لم يكن فقط بعيداً عن مناله بل وعن إدراكه؛ يستطيع فقط أنْ ينتظره إذا جاء ويستغني عنه إذا لم يأت.

وبعد مرور أربع سنوات كان قد تحرّر منذ ثمانية عشر شهراً وحسِبَ أنَّ هذا كل شيء: ماتت العجوز مولي وانتقلتْ ابنتها وابنة لوكاس المتزوجة مع زوجها إلى ديترويت وقد سمع الآن أخيراً وبالمُصادفة إشاعة بعيدة ومتأخّرة مفادها أنَّ لوكاس كان يُقيم وحده في المنزل، منعزلاً بلا أقرباء وعنيداً، من الواضح أنه لم يكن فقط بلا أصدقاء حتى من بين أبناء جنسه بل كان فخوراً بذلك. وكان قد رآه ثلاث مرات أخرى، في ساحة البلدة وليس دائماً في يوم السبت - في الحقيقة سوف يمر عام قبل أنْ يُدرك أنه لم يره أبداً في البلدة في يوم السبت عندما جاء كل الزنوج الآخرين ومُعظم البيض أيضاً من الريف، ولا حتى أنَّ المناسبات التي رآه فيها كانت بالضبط تقريباً قبل عام منفصل وأنَّ سبب رؤيته له حينئذٍ لم يكن أنَّ حضور لوكاس تصادفَ أنْ تزامن مع مُصادفة عبوره للساحة بل تزامن مع زيارات لوكاس السنوية والضرورية - ولكن في أيام الأسبوع كالرجال البيض الذين لم يكونوا

مزارعين بل أصحاب مزارع، يضعون أربطة عنق ويرتدون البذلات كالتجار والأطباء والمحامين أنفسهم، وكأنه رفض أنْ يقبل حتى ذلك القدر القليل من الاقتداء ليس فقط بسلوك الزنوج بل بذلك الخاص بالزنوج الريفيين، ودائماً يرتدي بذلة الجوخ السوداء التي من الجليّ أنها كانت غالية الثمن وتهرّأت من كثرة التنظيف بالفرشاة وتظهر في الصورة الفوتوغرافية الموضوعة على الحامل الذهبي ويعتمر القبعة الرائعة المنحدرة بشدة ويلبس القميص الأبيض الرسمي الذي يعود إلى زمن جدّه ويضع ياقة بلا ربطة عنق وسلسلة الساعة الثقيلة وخِلال أسنان ذهبي كالذي كان جدّه يحمله في جيب بذلته العِلوي: المرة الأولى في الشتاء الثاني؛ كان قد تكلّم أولاً على الرغم من أنَّ لوكاس تذكّره على الفور؛ شكره على الدبس وكان لوكاس قد أجاب بالضبط كما كان يمكن لجدّه أنْ يفعل، وحدها الكلمات، وقواعد النحو لم تختلف:

" كان المحصول جيداً هذا العام. عندما كنتُ أصنعه تذكّرتُ كيف أنَّ الصبي كان دائماً يحب دبس السكر الجيد: " وتابع، موجهاً كلامه خلف ظهره: " إياك أنْ تسقط مرة أخرى في الجداول هذا الشتاء: " ورأيته بعد ذلك مرّتين أُخريين - بالبذلة السوداء، والقبعة، وسلسلة الساعة ولكن في المرة التالية لم يكن يحمل خلال أسنان وفي هذه المرة نظر لوكاس إليه مباشرة، في عينيه مباشرة على بُعد خمسة أقدام وتجاوزه وهو يقول في نفسه لقد نسيني. إنه حتى لم يعُد يتذكّرني إلى أنْ أخبره خاله في العام التالي تقريباً أنَّ مولي، الزوجة العجوز، قد توفيت قبل عام. ولا تجد نفسه حينئذٍ مشقّة التساؤل كيف تصادف أنْ علِمَ خاله بالأمر (من الواضح أنّ إدموندز أخبره) لأنه كان قد بدأ يعدُّ بالعكس؛ كان يقول الفكرة مع حس بالتبرير، والارتياح، وشبه الانتصار: إذن فقد ماتت. لهذا السبب لم يرني. لهذا السبب لم يكن يحمل خلال الأسنان: مفكراً بما يُشبه الذهول: كان في حالة حزن.

لستَ في حاجة إلى ألا تكون زنجياً لكي تحزن ومن ثم اكتشف أنه كان ينتظر، يسكن شبحه الساحة كما كان قد فعل قبل عامَين تقريباً عندما كان ينتظر إدموندز ليُسلِّمه هديتيّ عيد الميلاد ليوصِلهما، عبر شهرين ثم ثلاثة ثم أربعة أشهر تالية قبل أنْ يتّضح له أنه عندما شاهد لوكاس في البلدة كان ذلك دائماً مرة واحدة فقط في كل عام في شهر كانون ثاني أو شباط وعندئذٍ أدرك للمرة الأولى السبب: لقد جاء ليُسدد الضرائب السنوية على أرضه الخاصة. كان ذلك بعد ظهيرة يوم بارد برّاق في أواخر كانون ثاني. وقف على زاوية المقعد في الشمس الواهنة ورأى لوكاس خارجاً من دار المحكمة واجتاز الساحة نحوه مباشرة، وهو بالبزّة السوداء والقميص المجرد من ربطة العنق والقبعة الفخمة العتيقة بزاويتها المزهوة، يمشي باستقامة شديدة حتى أنَّ المعطف لم يكن يلمسه إلى عند الكتفين حيث يتدلى وكان في استطاعته أنْ يرى ومض خلال الأسنان الذهبي المائل والبارز ويشعر بعضلات وجهه، ينتظر ومن ثم رفع لوكاس نظره ومرة أخرى نظر إلى عينيه مباشرة لحوالي ربع دقيقة ومن ثم أشاح به وتقدّم مباشرة ومن ثم انحرف بخطوته جانباً قليلاً لكي يتجاوزه وتجاوزه وتابع طريقه؛ ولا حتى نظر خلفه، وهو واقف على حافة الطريق يقول في نفسه هذه المرة لم يفشل حتى في أنْ يتذكّرني. إنه حتى لا يعرفني. بل لم يُكبّد نفسه حتى مشقّة أنْ ينساني: بل مُفكراً بما يُشبه السكينة: لقد انتهى الأمر. هذا كل شيء لأنه كان حراً، الرجل الذي كانت حياته على مدى ثلاثة أعوام ممسوسة باليقظة والنوم أيضاً خرج منها. سوف يراه من جديد طبعاً، ولا شك في أنهما سوف يمرّ أحدهما بالآخر في الشارع في بلدة كهذه في كل عام وحتى آخر حياة لوكاس ولكن ليس أكثر من ذلك؛ واحد لم يعُد رجلاً بل فقط شبح الذي كان قد أمرَ الصبيين الزنجيين بحمل نقوده وإعادتها إليه؛ الآخر مجرد ذكرى الطفل الذي قدّمها ومن ثم رماها، حاملاً معه إلى عهد الرجولة فقط طرفاً واهياً من ذاك الذي كان ذات يوم

إحساساً مسعوراً بالعار وبالحزن وليس في حاجة إلى الانتقام، الانتقام هو ببساطة فقط من أجل تسوية وتوكيد ذكورته ودمه الأبيض. وذات يوم لن يبقى أحدهما حتى شبح الرجل الذي أمر بحمل القطع النقدية والآخر لن يبقى الإحساس بالعار والألم ذكرى يمكن استعادتها بل مجرد نَفَس همسةٍ كالمذاق المرّ-الحلو-الحامض للحمّاض الذي أكله الصبي في طفولته الميتة، يتذكّره فقط في لحظة التذوُّق ويُنساه قبل أنْ يُقيِّمه ويتذكّره؛ يمكنه أنْ يتخيَّلهما كرجلين عجوزين يتقابلان، طاعنَين في السن، عند نقطة معيَّنة من ألم أطراف الأعصاب العارية الذي لا يهدأ وبسبب الافتقار إلى كلمة أفضل يسميها الرجال البقاء أحياء التي عندها ليس فقط أعوامهم المنصرمة بل نصف قرن من التناقُض بينهم سيكون غير واضح ولا يُحصى كحبات الرمل العديدة في ركام من الفحم ويقول للوكاس: أنا كنتُ الصبي الذي عندما أعطيتني نصف وجبة عشائك حاولتُ أنْ أدفع ثمنها من بعض الأشياء التي كان الناس في ذلك الوقت يعتبرون أنها تساوي في قيمتها سبعين سنتاً وهكذا كل ما استطعت أنْ أفكر فيه لأحفظ ماء وجهي هو أنْ أرمي بها إلى الأرض؟ ألا تتذكّر؟ وقال لوكاس: أكان ذلك أنا؟ أم العكس، التفت وإذا بلوكاس يقول أنا كنتُ الرجل عندما رميتَ بالنقود إلى الأرض ورفضتَ أنْ تأخذها واضطررتُ إلى جعل زنجيين يلتقطانها ويُعيداها إليك؟ ألا تتذكّر؟ وقال هذه المرة: أكان ذلك أنا؟ لأنَّ الأمر انتهى الآن. كان قد أدار خدّه الآخر وقبِل النقود. لقد أصبح حراً.

ثم عاد عبر الساحة في وقت متأخر من بعد ظهيرة يوم السبت ذاك (كانت تجري مباراة في الكرة على أرض المدرسة الثانوية) وسمع أنَّ لوكاس كان قد قتل فنسون غاوري هناك في متجر فريجر؛ ووصل نبأ إلى الشريف عند حوالي الساعة الثالثة صباحاً وبُثَّ عبر خط هاتف جماعي إلى الزاوية المقابلة من المقاطعة التي كان الشريف قد ذهب إليها في صباح ذلك اليوم لإنجاز عمل ومن المحتمَل أنْ يعثر عليه الرسول

ما بين الآن وبزوغ شمس الغد إنْ كان الشريف في مكتبه: ولن يُشكل ذلك أي فرق يُذكر بما أنه إنْ كان الشريف موجوداً في مكتبه فسوف يكون ربما قد فات الأوان بما أنْ محل فريجر يقع في بير فور وإذا كانت مقاطعة يوكناباتاوفا هي المكان الخطأ لزنجي لكي يقتل رجلاً أبيض بالرصاص في ظهره فإنّ بيت فور هو آخر مكان حتى في مقاطعة يوكناباتاوفا يمكن لزنجي يتمتع بأي قدر من حُسن الحُكم السديد - أو أي شخص غريب من أي لون - أنْ يختار لقتل أي شخص وحتماً ليس رجلاً اسمه غاوري من الأمام أو الخلف؛ كانت السيارة الأخيرة مملوءة بالشبان وبمَن ليسوا في ريعان الشباب الذين عناوين أعمالهم موجودة في مكاتب المراهنات ودكاكين الحلاقين ليس فقط بعد ظهيرة أيام السبت بل وطوال أيام الأسبوع أيضاً بل إنّ بعضهم له صِلة مبهمة بتجارة القطن والسيارات وبيع الأراضي والسندات، ويُراهنون على المُلاكمين المحترفين وألعاب القمار ومباريات الكرة الوطنية، وكان حينئذٍ قد غادر الساحة منذ وقت طويل لكي يُسرع في قطع مسافة الخمسة عشر ميلاً لكي يتوقف على الطريق العامة أمام منزل موظف الأمن إلى حيث أخذ موظفُ الأمن لوكاس وقال الخبر إنه أوثقه بالأصفاد إلى عمود السرير ثم جلس يحرسه حاملاً بندقية (وإدموندز أيضاً حينئذٍ؛ حتى موظف أمن أحمق كان يمكن أنْ يتحلى بما يكفي من الحس السليم بحيث يُرسِل في طلب إدموندز الذي لا يبعد أكثر من أربعة أميال حتى قبل أنْ يستدعي الشريف) في حال قرر آل غاوري وأقرباؤهم ألا ينتظروا حتى يدفنوا فنسون أولاً؛ وطبعاً سيكون إدموندز موجوداً هناك؛ وإذا كان إدموندز موجوداً في البلدة في ذلك اليوم فلابد أنه رآه في وقت ما خلال فترة الصباح وقبل أنْ يذهب إلى ملعب الكرة وبما أنّ من الواضح أنه لم يفعل فإنّ إدموند كان في المنزل، على بُعد مسافة لا تزيد عن أربعة أميال؛ وكان يمكن لرسول أنْ يصل إليه وكان يمكن لإدموندز أنْ يحضر إلى منزل موظف الأمن

بنفسه قبل أنْ يستظهر الرسول الآخر رقم هاتف الشريف والرسالة ليوصلهما إليه ومن ثم يتوجه إلى أقرب هاتف حيث يمكنه أنْ يستخدم أياً منهما؛ بحيث - إدموندز (من جديد أزعج شيءٌ انتباهه خلال لحظة) وموظف الأمن - يكونان شخصَين بينما يعلم الله وحده كم عدد أفراد آل غاوري وإنغرم ووركيتس وإذا كان إدموندز منهمكاً في تناول وجبة العشاء أو في قراءة الصحيفة أو في عدّ نقوده أو في شيءٍ ما فسوف يكون موظف الأمن وحده حتى مع البندقية: لكنه حينئذ كان حراً، ولم يتوقف، وتابع سيره حتى المنعطف وهناك استدار عائداً إلى المنزل، وبعد أنْ قدَّرَ ما تبقّى من فترة سطوع الشمس، وكم تبقّى من فترة بعد الظهيرة وهو في الشارع عاد أدراجه بضع ياردات قبل أنْ يتذكّر لِمَ بحق الله لم يقطع أرض الساحة التي أضحت عندئذٍ مُقفِرة ويتجه إلى الدرَج الخارجي المؤدي عالياً إلى المكتب.

على الرغم من أنه لم يكن هناك طبعاً من سبب معقول ليتوقع وصول خاله إلى المكتب في ذلك الوقت المتأخّر من بعد ظهيرة يوم السبت ولكن حالما بدأ يرتقي الدرج بات في استطاعته أنْ يطرح هذه الفكرة من رأسه، وتصادف أنْ كان ينتعل جزمة من المطاط في ذلك اليوم ومع ذلك أخذ الدرَج الخشبي عندئذٍ يصرّ ويُدمدم إلا إذا وطأ الحافة الداخلية القريبة من الجدار: متسائلاً كيف لم يحدث من قبل أنْ أعطى الحذاء المطاطي حقّه من التقدير، وكيف أنَّ لا شيء يُضاهيه في منحه وقتاً لاتخاذ قراره حول ما أراد أنْ يفعل ومن ثم استطاع أنَّ يرى أنَّ باب المكتب مُقفل الآن على الرغم من أنَّ الوقت لا يزال مُبكّراً لكي يُبقي خاله الأنوار مُضاءة ولكن إلى جانب ذلك كان للباب نفسه مظهرٌ لا تحمله إلا الأبواب المُرْتجَة لذلك حتى الأحذية المطاطية ما كانت لتنفع، فتح الباب بالمفتاح ومن ثم عاد فأرتجه بالقفل اليدوي خلفه وتقدّم من الكرسي الثقيل الدوّار الذي كان مُلكاً لجدّه قبل أنْ يُصبح مُلكاً لخاله وجلس خلف الطاولة المُغطاة بالأغراض

التي استخدمها خاله بدل طاولة مكتب جدّه ذات السطح المتحرك القديمة والتي مرّت أعمال المقاطعة عبرها مدة أطول من قدرته على تذكُّر مقدارها، بما أنَّ ذاكرته في الحقيقة كانت ذاكرة أو خاصة به على أية حال، وهكذا فإنَّ الطاولة التي نالها البلى والأوراق المتهرئة الباهتة والحاجات والعواطف المشبوبة التي تمثّلها وحدود المقاطعة المحسوبة والمُحدّدة أيضاً كلها كانت متشابهة وواحدة، تسلل آخر خيوط الشمس من خلال شجرة توت ثم من النافذة خلفه وإلى طاولة الأوراق المُكدَّسة المشوّشة والمِحبرة ووعاء مشابك الورق وأقلام حبر جافة صدئة وفاسدة ومُنظفات الغليون وتبغ الغليون مع رماده المسفوح بجوار فنجان قهوة مُبقَّع لم يُغسل وصحفة وإبريق ملوّن من هايدلبرغ Stube مملوء بقطع ملويّة من ورق الصحف من أجل إشعال الغلايين بها كالمزهرية القابعة على رف مدفأة لوكاس في ذلك اليوم نهضَ دون تفكير وأخذ الفنجان والصحفة وقطع أرض الغرفة وهو يرفع وعاء صنع القهوة والإبريق أيضاً لدى مروره وفي المغسلة أفرغ الثفل وغسل الوعاء والفنجان والصحفة وأعادها إلى الرف وعاد إلى الكرسي وجلس من جديد بعد فترة ليست بالطويلة، كان لا يزال هناك الكثير من الوقت لمراقبة الطاولة وكل ما عليها من أغراض متراكمة مشوشة ومألوفة وكل شيء يتلاشى نحو مجهول واحد هو الليل مع موت أشعة الشمس: يفكر يتذكّر كيف كان خاله قد قال إنَّ كل ما يمتلكه الإنسان هو الزمن، وكل ما يقفُ عائقاً بينه وبين الموت الذي يخافه ويمقته هو الزمن ومع ذلك يُنفِق نصفه في ابتكار وسائل لجعل النصف الآخر يمضي: وفجأة تذكّر دون مقدمات ما الذي كان يُثير انتباهه: إنَّ إدموندز ليس في المنزل ولا حتى في ميسيسيبي؛ لقد كان في المستشفى في نيو أورلينز يخضع لعملية جراحية لاستئصال حصاة صفراوية، الكرسي يُصدِرُ قرقعة مُدمدمة على الأرضية الخشبية عالية كدمدمة عربة خيل على جسرٍ خشبيّ عندما نهض ومن ثم وقفَ بجوار

الطاولة إلى أنْ تلاشى الضجيج واختفى و لم يتبقَّ غير تردُّد أنفاسه: لأنه كان حراً: ثم تحرّك: لأنَّ أمه سوف تعرف موعد انتهاء مباريات كرة البيسبول على الرغم من أنها لا تستطيع أنْ تسمع الصياح المتصاعد من حافة البلدة وسوف تعرف أنه حتى هو يستطيع أنْ يستغلّ الكثير من الشفق للعودة إلى المنزل، وأقفل الباب خلفه ومن ثم هبط الدرج من جديد، الساحة مغمورة الآن بالشفق والأنوار الأولى تُضاء الآن في الصيدلية (لم تكن تُطفأ أبداً في محل الحلاقة وفي صالة لعبة البلياردو بما أنَّ ماسح الأحذية والبوّاب فتحا الأبواب وكنسا الشَعر وأعقاب السجائر عند الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم) والمحال التجارية أيضاً بحيث يُضطر باقي المقاطعة ما عدا بيت فور أنْ ينتظر في مكان ما إلى أنْ تأتي رسالة من محل فريجر تقول إنَّ كل شيء على ما يُرام من جديد وفي إمكانهم أنْ يُحركوا الشاحنات والسيارات والعربات والبغال من الشوارع الخلفية والأزقة ويذهبوا إلى منازلهم ويأووا إلى أسرّتهم: هذه المرة انعطف عند الزاوية فلاحَ أمامه السجن، مظلِماً إلا من المستطيل ذي القضبان المتصالبة على الجدار الأمامي العلوي حيث في الليالي العادية يكون لاعب الكراب الزنجي وبائعو الويسكي غير الشرعي ورماة المطاوي يهتفون صائحين لفتياتهم ونسائهم في الشارع في الأسفل وماذا سيكون لوكاس قد فعل طوال الساعات الثلاث تلك (غالباً سيضرب بقوة على الباب الفولاذي لكي يأتي أحدهم ويُحضِر له عشاءه أو ربما سيكون قد تناوله أصلاً وهو الآن يتذمّر من نوعيته بما أنه من دون أدنى شك سوف يعتبر أنَّ هذا من حقّه مع كل ما يرافق إقامته وحجزه) لولا أنّه يبدو أنَّ الناس يعتقدون أنَّ الهدف الوحيد من مؤسسة المكتب العام برمّتها هو انتخاب رجل كالشريف هامبتون مهيب بقدر كاف أو على الأقل يتمتع بما يكفي من الحس السليم وقوة الشخصية بحيث يُدير المقاطعة ومن ثم يُعيِّن في المناصب الأخرى أقرباءه وأنسابه ممّن فشلوا في كسب لقمة عيشهم

في أي مجال آخر جربوا فيه. لكنه كان حراً إلى جانب أنّه لعلّ النبأ قد شاع الآن في كل مكان وحتى لو أنَّ هذا لم يحدث كان يعلم ما الذي سيفعل وكانت هناك فسحة وافرة من الوقت لذلك، غداً سوف يتوفر ما يكفي من الوقت له؛ كل ما سوف يحتاج إلى فعله هذه الليلة هو أنْ يُعطي هايبوي أولاً كوبين إضافيين من الشوفان استعداداً للغد لأنه اعتقد أنه هو نفسه سيشعر بعد قليل بجوع شديد، وهو جالس على طاولة مألوفة في غرفة مألوفة بين الأغطية البيضاء والفضيات وكؤوس الماء ووعاء أزهار النرجس والغلاديولا وبضع ورود أيضاً وقال خاله:

" يبدو أنَّ صديقك بوشان قد فعلها هذه المرة "

قال " نعم، سوف يُعاملونه كزنجي مرة في حياته على أية حال "

قالت أمه " تشارلز! " - وهي تأكل بسرعة، تأكل كميات كبيرة وتتكلّم بسرعة وكثيراً أيضاً عن مباريات الكرة وينتظر أنْ يجوع في أية دقيقة وأية لحظة الآن إلى أنْ أدرك فجأة أنه حتى آخر لُقمة كانت أكثر مما ينبغي، لا تزال تمضغها لتُنزلها إلى حيث يمكن ابتلاعها، وهمّتْ بالنهوض.

قال " سوف أذهب لأشاهد عرضاً سينمائياً "

قالت أمه " أنت لم تنته بعد ": ثم قالت " العرض السينمائي لا يبدأ إلا بعد حوالي الساعة " ثم ليس فقط لوالده وخاله بل لكل عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين وأربعين وخمسين بعد ميلاد ربنا: " لا أريد له أنْ يذهب إلى البلدة هذه الليلة. لا أريد - " ومن ثم أخيراً عويلاً واحداً صرخة واحدة للأسمى: والده نفسه: خارجةً من مناطق المخاوف والرعب التي تشوّش الليالي ويبدو أنَّ النساء - الأمهات على أي حال - يُقمن فيها باختيارهن: " تشارلي - " إلى أنْ ترك خاله فوطته ونهضَ بدوره وقال:

" إذن هذه هي فرصتك لتفطميه. على أية حال أريد منه أنْ يؤدي لي مهمة: " وفي الخارج: في الرواق الأمامي في البرودة المُظلمة وبعد قليل قال خاله: " ماذا تنتظر؟ هيا "

قال " ألن تأتي؟ ". ثم قال " ولكن لِمَ؟ لِمَ؟ "

قال خاله " وهل هذا يهمّ؟ "، ثم قال ما كان قد سمعه تواً لدى مروره من أمام دكان الحلاقة قبل ساعتين: " ليس الآن. ليس للوكاس ولا لأي شخص آخر من لونه ". لكنه هو نفسه كان قد فكّرَ في هذا قُبيل أنْ يقوله خاله بل حتى قبل أنْ يقوله كائناً مَنْ كان يقفُ أمام دكان الحلاقة قبل ساعتين، ولهذا السبب الباقي أيضاً: " في الواقع إنَّ السبب الحقيقي ليس الأزمة التي واجهها والتي ستُصبح الحياة بعدها لا تُطاق إلى أنْ أطلقَ الرصاص على رجل أبيض في ظهره بل انتقاؤه غاوري من بين الرجال البيض كلهم ليُطلق النار عليه ومن بين الأماكن كلها بيت فور ليفعل ذلك فيه – هيا. ولكن لا تتأخر. قبل كل شيء على الرجل أنْ يكون لطيفاً بين حين وآخر حتى مع والديه "

وطبعاً إحدى السيارات وربما كلها كانت قد عادتْ إلى دكان الحلاقة وصالة لعب البلياردو لذلك يبدو أنَّ لوكاس كان لا يزال مغلولاً إلى عمود السرير وهادئاً وموظف الأمن جالساً يراقبه (ربما على كرسيّ هزّاز) مع البندقية الباردة ولعلَّ زوجة الموظف قدّمت لهما وجبة العشاء هناك ولوكاس بشهيته الجيدة، انكبَّ على وجبته بنهم بما أنه ليس فقط لأنه ليس مُضطراً إلى دفع ثمنها لكنَّ المرء لا يُطلق النار على شخص في كل يوم من أيام الأسبوع: وأخيراً بدا صحيحاً بصورة أو بأخرى أنَّ الشريف قد استلم الرسالة وردَّ عليها بأنه سوف يعود إلى البلدة في وقت متأخر من تلك الليلة وسوف يُحضِر لوكاس في صباح الغد الباكر وعليه أنْ يفعل شيئاً، أنْ يُبدد الوقت بصورة ما إلى أنْ ينتهي العرض السينمائي لكي يتمكن هو أيضاً من الذهاب لمشاهدته واجتاز الساحة

متوجهاً إلى فناء دار القضاء وجلس على المقعد الطويل في العزلة الخاوية الباردة والمظلمة بين الظلال البالية وأوراق الربيع الساكنة والقلقة أمام سماء عاهرة مُرصّعة بالنجوم حيث يمكن مراقبة السُرادق المُضاء أمام العرض السينمائي ولعلَّ الشريف كان على صواب؛ بدا أنَّه قادر على تأسيس صِلة كافية مع آل غاوري وإنغروم و ووركيتز وماكالوم لإقناعهم بالتصويت لصالحه مرة كل ثمانية أعوام لذلك لعله كان يعرف على وجه التقريب ماذا يمكن أنْ يفعلوا في ظل ظروف معيّنة أو ربما الأشخاص الذين كانوا في محل الحلاقة كانوا على صواب وأنَّ آل إنغروم وغاوري ووركيتز لم يكونوا ينتظرون ريثما يُدفَن فينسون في الغد بل ببساطة لأنَّ يوم الأحد سيحل بعد ثلاث ساعات و لم يرغبوا في أنْ يُضطروا إلى الاستعجال، وانطلق في إنجاز العمل لكي يُنهيه بحلول منتصف الليل دون أنْ ينتهك حرمة يوم السبت: ثم بدأت أول بوادر الحشد تصل ثم تتدفق تحت السرادق ويطرفون بعيونهم من وهج الأضواء بل كانوا يتعثرون برهة أو حتى دقيقة أو اثنتين، ويُعيدون إلى التربة الرّثة البقايا المتبقيّة من شريط أحداث القلب والحلم الجريء لكي يتمكن من العودة إلى بيته الآن، في الواقع سوف يُضطر إلى ذلك: وهو الذي يعرف بالفطرة البسيطة متى تنتهي العروض السينمائية تماماً كما تعرف هي متى تنتهي مباريات الكرة وعلى الرغم من أنها لن تسامحه أبداً لأنه قادر على اتّخاذ قراراته والاعتناء بنفسه على الأقلّ إلا أنها تقبّلتْ الأمر و لم تلاحقه بل اكتفَتْ بإرسال والده وبخروجه الآن قبل انتهاء العرض السينمائي سوف يحظى بالشارع الخالي من المارة حتى يصل إلى المنزل، بل في الواقع حتى يصل إلى زاوية الفناء وخرج خاله من جانب السياج، عاري الرأس، يُدخّن أحد غلايين الحجر.

قال الخال " اسمع، لقد تحدثتُ إلى هامبتون في بدلرز فيلد أولد تاون وقد اتصل تواً هاتفياً بسكواير فريجر وذهب فريجر بنفسه إلى منزل سكيبوورث ورأى لوكاس موثوقاً بالأصفاد إلى عمود السرير

Twitter: @ketab_n

وكل شيء على ما يرام، كل شيء هادئ هناك هذه الليلة وفي صباح الغد سوف يعمل هامبتون على زج لوكاس في السجن - "

قال " أعلم هذا، لكنهم لن يعدمونه بلا محاكمة حتى بعد منتصف ليل الغد، بعد أنْ يدفنوا فنسون ويتخلصوا من يوم الأحد: " ويتابعان السير: " أنا لا أمانع. ما كان ينبغي على لوكاس أنْ يبذل كل ذلك الجهد المُضني لكي لا يكون زنجياً فقط على حسابي ". لأنه كان حراً: في السرير: في الغرفة الباردة المألوفة في الظلام البارد المألوف لأنه كان يعلم ماذا سيفعل وقد نسيَ أصلاً أنْ يطلب من ألك ساندر أنْ يُقدم لهايبوي الكمية الزائدة من الطعام استعداداً للغد ولكن يمكن أنْ يفعل في الصباح أيضاً لأنه سوف ينام هذه الليلة لأنَّ لديه شيئاً أسرع فاعلية بكثير من إحصاء الغنم؛ في الواقع سوف ينام بسرعة كبيرة إلى درجة أنه لن يُتاح له الوقت لعدّ أكثر من عشرة منهم: بغيظ، بعذاب يكاد لا يُطاق من الحنق والغضب: أنْ يُطلق النار على هذا الرجل الأبيض في ظهره دون الرجال البيض كلهم: الأصغر سناً في عائلة من ستة إخوة أحدهم خرج تواً من الإصلاحية بعد قضاء مدة عام بسبب المقاومة المسلّحة بوصفة هارباً من الخدمة العسكرية ومدة أخرى في مزرعة الدولة للعقاب لصنعه الويسكي، وشبكة من الأقارب والأنساب يشغلون زاوية كاملة من المقاطعة وعددهم الإجمالي يعجز حتى الأجداد العجائز والعمّات العوانس عن حصره - عشيرة من المُشاغبين والمزارعين وصيادي الثعالب وتجّار الأخشاب والمواشي لن يسمحوا في أي مكان أنْ يُقتَل أحد أفرادهم على يد أي شخص خارج المذكورين آنفاً بما أنَّهم بدورهم متحدون ومتضافرون ويتزوجون من مشاغبين وصيادي ثعالب وصنّاع ويسكي آخرين ليس فقط في عشيرة أو قبيلة بسيطة بل في سلالة ونوع كانت قبل الآن قد جعلت من معقلها العالي قوياً في وجه المقاطعة والحكومة الفيدرالية أيضاً، الذي ليس فقط احتلّ وليس فقط خرّب لكنه حوّل كما السِحر المنطقة بأكملها المؤلّفة من

تلال من أشجار الصنوبر الموحِشة المُنقطعة قليلاً بمزارع صغيرة معنونة ومناشر جوّالة وأباريق الويسكي المُهرّب حيث لا يذهب إليها حتى رجال الشرطة من البلدة إلا إذا أرسِلوا إليها و لم يكن الرجال البيض الغرباء يبتعدون كثيراً عن الطريق العامة بعد هبوط الليل ولا أي زنجي في أي وقت - حيث كما قال أحد الظرفاء المحليين ذات مرة إنَّ الشخص الغريب الوحيد الذي دخلها وأفلت من العقاب هو الله وقد فعل ذلك في أثناء النهار وفي يوم أحد - إلى مُرادف للاستقلال والعنف: فكرة ذات حدود مادية كحجر صحي من وباء يوفّر عزلة فريدة وخارج نِطاق المقاطعة لم تكن تعلم بوجوده إلا حفنة من منسّقي المسح - بيت فور - كما كان الناس في منتصف حقبة العشرينيات يعرفون أين تقع بلدة شيشرون في ولاية إلينويز، ومَنْ يُقيم هناك وماذا يعملون الذين لا يعرفون ولا يأبهون بحالة شيكاغو: وبما أنَّ هذا ليس كافياً فإنَّ اختيار اللحظة التي كان فيها الرجل الأبيض أو الأسود الوحيد - إدموندز - من بين سكان مقاطعة يوكناباتاوفا أو مسيسيبي أو أميركا أو العالم أيضاً بهذا الخصوص الذي لديه الميل بالإضافة إلى القوة والمقدرة (وهنا اضطرَّ إلى الضحك على الرغم من أنه كان يوشك أنْ يغفو، متذكراً كيف أنه حتى اعتقدَ في أول الأمر أنَّه لو أنَّ إدموندز كان موجوداً في المنزل لما شكّل ذلك أي فرق في أي مكان، متذكّراً الوجه وزاوية ميل القبعة وصاحب القامة متباعدة الساقين بشكل فخم كأنه دوق أو مُرافق شخصية هامة أو أحد أعضاء مجلس الشيوخ أمام موقد النار ويداه متشابكتان خلفه ودون حتى أنْ ينظر نحو الأسفل إليهم بل فقط يُصدر أوامره إلى اثنين من الفتية الزنوج بأنْ يلتقطا القطع النقدية ويُعيداها إليه، ودون حتى أنْ يحتاج إلى أنْ يتذكّر خاله وهو يُذكّره منذ أنْ أصبح كبيراً بما يكفي ليفهم الكلمات بأنه لا أحد يمكنه أنْ يقف حائلاً بين الرجل ومصيره لأنه حتى خاله مع كل عِلمه الذي تلقّاه في هارفرد وهايلدبرغ ما كان يمكن أنْ يُحدِّد الرجل الذي يتّصف

بالقدر الكافي من التهوُّر والضلال بحيث يقفُ حائلاً بين لوكاس وفقط ما أراد أنْ يفعل) ليُحاول أنْ يقفَ حائلاً بين لوكاس والمصير العنيف الذي لقاه ممدُداً على ظهره في غرفة عمليات جراحية في نيو أورلينز: ومع هذا فذلك ما كان على لوكاس أنْ يلتقط، ذلك الوقت وتلك الضحية وذلك المكان: بعد ظهيرة يوم سبت آخر والمحل التجاري نفسه الذي كان قد أثار فيه المشاكل مع رجل أبيض مرة واحدة على الأقلّ من قبل: اختار أول فرصة مناسبة بعد ظهيرة يوم سبت ومع مسدس كولت قديم أحادي الطلقات من عيار ونموذج لم يعُد يُنتَج منه وهو بالضبط النوع من المسدسات الذي يمتلكه لوكاس بالضبط كما أنَّ لا أحد حي في المقاطعة يمتلك خلال أسنان من ذهب وانتظر في المحل - وهو المكان الوحيد الذي من المؤكّد أنْ يمر عليه عاجلاً أو آجلاً بعد ظهيرة يوم سبت كامل سكان طرف المقاطعة - إلى أنْ ظهر الضحية وأطلقَ عليه النار و لم يكن أحد قد علِمَ بعد السبب وحسب ما اكتشفَ بعد ظهيرة ذلك اليوم أو حتى بعد أنْ غادر أخيراً الساحة في تلك الليلة لم يكن أحد حتى قد تساءل بعد.بما أنَّ السبب لم يكن هاماً خاصة بالنسبة إلى لوكاس لأنَّ من الواضح أنه فعل لقد كان يعمل طوال عشرين أو خمسة وعشرين عاماً بتركيز لا يكلّ ولا يملّ من أجل لحظة الذروة هذه؛ لحقَ به إلى داخل الغابة مسافة طويلة من المحل وأطلق عليه النار في ظهره على مسمع من الحشد المُتجمِّع حوله وكان لا يزال واقفاً فوق الجثّة وقد أعاد بأناقّة وضع المسدس الذي أطلق منه النار داخل جيبه الجانبي عندما وصل أول الأشخاص إلى مسرح الحدث حيث كان من الممكن أنْ يُعدَم دون أدنى شك في الحال دون محاكمة ودون انتظار أحد ما عدا دويل فريجر نفسه الذي أنقذه من عمود العربة الأفقي قبل سبعة أعوام والعجوز سكيبوورث، موظف الأمن - العجوز ضئيل الحجم الذابل والمنكمش والأصمّ تماماً الذي لا يزيد حجمه عن حجم صبي لم يكتمل نموه ويضع مسدساً كبيراً مطلياً

بالنيكل في جيب معطفه وفي الجيب الآخر مُكبر صوت للأذن من المطاط ويُحيط بأذنه بسير من الجلد المدبوغ أشبه ببوق صيد الثعالب، الذي في هذه المناسبة على أية حال أبدى جرأة وشجاعة لا مُبرر لهما، بإخراجه لوكاس (الذي لم يبدِ أية مقاومة تُذكَر، واكتفى بمراقبة هذا أيضاً بذلك الاهتمام الهادئ نفسه المُستقلّ المُجرّد من أي ازدراء) من بين الحشد وأخذه إلى منزله وشدّ وثاقه إلى عمود السرير ريثما يأتي الشريف ويُلقي القبض عليه ويجلبه إلى البلدة ويحتجزه إلى أنْ يقوم آل غاوري وووركيتس وإنغروم وباقي ضيوفهم وأقرباؤهم بدفن فينسون ويمرّ يوم الأحد ويُصبحون منتعشين ومستعدين لاستقبال الأسبوع الجديد وواجباته وصدّق أو لا تُصدق حتى الليل مرّ، الديوك المترددة عند الفجر الزائف ثم الفُسحة ثم صخب الطيور الخرافي المرتفع ومن خلال نافذة حديد الصبّ كان في استطاعته أنْ يرى الأشجار أمام الضوء الرمادي ومن ثم الشمس نفسها عالية وحانقة فوق الأشجار تُحدّق بغضب إليه وكان الوقت تأخّر أصلاً، إنّ هذا يجب أنْ يحدث له أيضاً: لكنه حرّ وسوف يشعر بتحسُّن بعد تناول وجبة الإفطار وفي استطاعته دائماً أنْ يقول إنه كان ذاهباً إلى مدرسة يوم الأحد ولكنه ليس مُضطراً إلى قول أي شيء إذا خرج من الخلف؛ ليتمشّى متمهلاً، عابراً الفناء الخلفي ومنه إلى الأرض البور وعبرها وخلال الغابة إلى سكة الحديد ثم الى المستودع ومن ثم عودة إلى الساحة ثم فكّرَ في طريقة أبسط من تلك ومن ثم كفّ عن التفكير في الأمر أصلاً، خلال الرواق الأمامي وعبر السرادق الأمامي إلى الممشى المؤدي إلى الشارع وهنا سوف يتذكّر لاحقاً أنه لاحظ للمرة الأولى أنه لم يرَ أي زنجيّ آخر غير بارالي عندما أحضرتْ له وجبة إفطاره؛ في المعتاد في مثل هذه الساعة في صبيحة يوم الأحد كان سيرى في كل سرادق مربيات منازل أو طبّاخات بمآزر يوم الأحد الجديدة يحملن مكانس أو ربما يتحدثن عبر السرادقات ومساحات الأفنية المتجاورة والأطفال أيضاً نضرين

ونظيفين استعداداً لمدرسة يوم الأحد ويقبضون على النكلات براحات أيدٍ يتصبب منها العرق على الرغم من أنه ربما لا يزال الوقت مبكّراً جداً لذلك أو ربما بموافقة مشتركة أو حتى بتحريم لن يكون هناك دوام لمدرسة الأحد هذا اليوم، هناك فقط الكنيسة وهكذا في لحظة مشتركة متناغمة فلنقُل عند حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف يتذبذب الجو العام لمقاطعة يوكناباتاوفا بصمتٍ كاهتزاز الحرارة بمناشدة متناغمة واحدة تُهدّئ قلوب أولئك الرجال الغاضبين الذين حُرِموا فقيدهم يقول الرب الانتقام لي لا تقتل لولا أنَّ ذلك قد فات أوانه أيضاً، كان ينبغي أنْ يأتوا على ذِكر هذا أمام لوكاس بالأمس، من أمام السجن سوف تكون تصدعات النافذة المزوّدة بقضبان في الطابق الثاني ممتلئة في يوم الأحد العادي بالأيدي السوداء وخلفها ربما ومضٌ بين حين وآخر لبياض العيون في الظلال والأصوات الرطيبة تهتف وتضحك للفتيات والنساء الزنجيات المارات والمتوقفات في الشارع وهنا أدرك أنه فيما عدا بارالي لم يكن قد شاهد أي شخص زنجي منذ بعد ظهيرة اليوم السابق على الرغم من أنَّ الغدّ سيحلّ قبل أنْ يعلم أنَّ الذين يسكنون الهولو وفريدمانتاون لم يأتوا إلى العمل أبداً منذ ليلة يوم السبت: ولا إلى الساحة، ولا حتى إلى محل الحلاقة حيث كان صباح يوم الأحد هو يوم ماسح الأحذية المفضّل لتلميع الأحذية ونفض الغبار عن الملابس والقيام بالمهام وجرّ الحمّامات لسائقي الشاحنات العزّاب وعمال المرأب الذين يُقيمون في غرف مُستأجَرة والشبان والذين ليسوا شبان كثيراً ممّن يكدّون طوال أيام الأسبوع في قاعة لعب البلياردو وعاد الشريف أخيراً إلى البلدة وانفصل عن يوم عطلته لكي يذهب ويهتم بقضية لوكاس: ليُصغي: ليستمع إلى المتكلمين: إلى عدد ممّن انطلقوا ليذهبوا إلى محل فريجر بعد ظهيرة الأمس وعادوا خالي الوفاض (وجمع مقدار حمولة سيارة بل وعاد في الليلة السابقة، يتثاءب ويتكاسل مشتكياً من قلّة النوم: وهذا يُضاف إلى حِساب

لوكاس أيضاً) وقد سبق أنْ سمع هذا كله أيضاً بل وفكّر فيه هو نفسه قبل ذلك:

" أتساءل إنْ كان هامبتون قد أخذ معه رفشاً. هذا كل ما سيحتاج إليه "

" سوف يُعيرونه رفشاً هناك "

"نعم - إنْ كان هناك أي شيء يحتاج إلى دفن. لديهم غازولين حتى في بيت فور"

"حسبتُ أنَّ العجوز سكيبوورث سوف يهتم بهذا"

"حتماً. ولكن هذه بيت فور. سوف يُنفّذون كل ما يطلبه سكيبوورث منهم ما دام الزنجي في حوزته. لكنّه سوف يُسلّمه إلى هامبتون. هذا ما سيحدث. آمل أنْ يكون هامبتون شريفاً في مقاطعة يوكناباتاوفا لكنه مجرد رجل عادي في بيت فور"

"كلا. لن يفعلوا أي شيء هذا اليوم. إنهم يقومون بدفن فينسون بعد ظهيرة هذا اليوم والقيام بحرق زنجي في أثناء مراسم الدفن لن يكون أمراً محترماً في حق فينسون"

"هذا صحيح. قد يتمّ الأمر في هذه الليلة"

"في ليلة يوم أحد؟"

"أهذه غلطة آل غاوري؟ كان ينبغي على لوكاس أنْ يفكّر في هذا قبل أنْ يختار يوم السبت ليقتل فيه فينسون"

"لا عِلمَ لي بهذا. أتمنى أنْ يكون هامبتون رجلاً صارماً ولا يسمح بأخذ السجين منه أيضاً "

"قاتل زنجي؟ مَنْ في هذه المقاطعة أو الولاية سوف يُساعده على

حماية زنجي يُطلِقُ النار على رجال من البيض في ظهورهم؟"

"أو في الجنوب أيضاً"

"نعم. أو في الجنوب". كان قد سمع هذا كله من قبل: أصبح في الخارج من جديد الآن: وحده خاله يمكن أنْ يُقرر أنْ يأتي إلى البلدة قبل الوقت المُحدّد ليذهب ويتفقّد بريد الظهيرة في مكتب البريد وإذا لم يُقابله خاله حينئذٍ فيمكنه أنْ يُخبر أمّه أنه لم يكن يعلم أين هو وطبعاً فكَّرَ أولاً في مكْتب البريد الخالي ولكن إذا ذهب إلى هناك فإلى هناك سوف يذهب خاله بالضبط أيضاً: لأنه - وتذكّرَ من جديد أنه نسيَ أيضاً أنْ يُعطي هايبوي كمية زائدة من الطعام في صباح ذلك اليوم لكنَّ الأوان كان قد فات عندئذٍ ثم أنه سوف يحمل معه طعاماً على أية حال - كان يعلم بالضبط ماذا ينوي أنْ يفعل: كان الشريف قد غادر البلدة عند حوالي الساعة التاسعة؛ ومنزل موظف الأمن كان على مسافة خمسة عشر ميلاً على درب مُحصّى ليس مُريحاً جداً وعلى الشريف أنْ يذهب إلى هناك حتماً وأنْ يعود مع لوكاس بحلول الظهيرة حتى وإنْ توقف ليُجري بعض عمليات الاقتراع في أثناء وجوده هناك؛ وقبل ذلك بكثير سوف يذهب إلى المنزل ويسرج هايبوي ويربط كيساً من الطعام خلف السرج ويُديره بخط مستقيم في الاتجاه المعاكس لمحل فريجر ويركب في ذلك الاتجاه دون انحياز على مدى اثنتي عشرة ساعة إلى أنْ يحل منتصف هذه الليلة ويُطعِم هايبوي ويتركه ليرتاح حتى طلوع النهار أو حتى أكثر إذا قرّر ذلك ومن ثم يمتطيه مدة اثنتي عشرة ساعة عائداً وقد تُصبح في الواقع ثماني عشرة أو ربما حتى أربع وعشرين أو حتى ست وثلاثين ولكن على الأقلّ سيتم الأمر كله، وينتهي الغضب والحنق اللذان يُرافقان اضطرارك إلى النوم وأنت تحاول أنْ تنام بعدّ الخراف وانعطف عند الزاوية ومضى في الاتجاه المعاكس للشارع ومن تحت السقيفة التي أمام محل الحِدادة

المُغلَق، الأبواب الخشبية المزدوجة الثقيلة ليست مُغلقة بمشبك أو بمزلاج بل بسلسلة وقفل تمر خلال ثقب في كل منها بحيث يُحدِثُ ارتخاء السلسلة ثغرة تشبه الفجوة؛ إذا وقفَ فيها لا يستطيع أحد أنْ يراه سواء من أقصى الشارع أو من أدناه ولا حتى العابر من أمامه (ولن تكون أمّه في هذا اليوم على أي حال) إلا إذا توقفوا لينظروا والآن بدأت الأجراس تقرع قرعاً متناوباً متنافراً متمهّلاً ورخيماً يتردّد صداه من برج الكنيسة إلى برج الحمام المُحوِّم عبر البلدة، والشوارع والساحة ودفق مُحتشِم واحد من الرجال ببزاتهم السوداء ونساء يرتدين الحرير ويحملن مظلات وفتيات وشبان يسيرون أزواجاً، متدفّقين ومُحتشمين من تحت ذلك الهدير الرخيم في ضجيج موسيقيّ: تلاشوا، ومن جديد خلت الساحة والشارع ومع ذلك استمر قرع الأجراس بعض الوقت، سكان السماء، مُقيمة بلا أرض في هواء بلا سقف مغرقة في العلوّ مغرقة في البُعد لا تعيها الأرض الزاحفة ثم توقفت عن القرع بضربة متمهلة صادرة عن الارتعاش تحت الأرضي لآلة الأرغن والرتابة المسعورة الرخيّة للحمام المستقرّ. قبل عامين كان خاله قد قال له إنّ السباب ليس خطأً؛ على العكس فهو ليس فقط مفيداً بل لا بديل له ولكن كأي شيء آخر ذي قيمة ثمينٌ فقط لأنَّ مخزونه محدود وإذا هدرته على السفاسف عند الحاجة المُلحّة إليه فقد تجد نفسك مُفلِساً لذلك قال ما الذي أفعله هنا بحق الجحيم ثم أجاب نفسه بالإجابة الجليّة: ليس لأرى لوكاس، كان قد رأى لوكاس ولكن فقط لكي يراه لوكاس من جديد إذا رغب في ذلك كثيراً، ليبادله النظرات ليس فقط من حافةِ مجرد موتٍ مُبتذل بل من هدير التمجيد العالي . لأنه كان حراً. لم يعُد لوكاس مسؤوليته، لم يعُد حارس لوكاس؛ لوكاس نفسه حلّه من واجبه.

وفجأة غصّ الشارع الخالي بالرجال. لكنّ عددهم لم يكن كبيراً، لا يتجاوز الحفنة، بعضهم ظهر هكذا فجأة وبهدوء. ولكن بدا كأنهم

يملؤونه، يسدّونه، يجعلونه فجاة مُحرّماً وكأنما ليس بمنع أحد من المرور به، وعبوره، واستخدامه كشارع بل بأنّ لا أحد يستطيع أنْ يجرؤ، حتى أنْ يقترب كثيراً إلى درجة محاولة القيام بالمناورة كما يبتعد الناس عن إشارة تقول توتّر عالٍ أو انفجار. لقد عرفهم، ميّزهم جميعاً؛ بل إنه كان قد رأى بعضاً منهم وأصغى إلى كلامهم في محل الحلاقة قبل ساعتين من الزمن - سائقو شاحنات وعمال في مراتب، والمُزيِّت من محلج القطن، والذي يمزج الصودا في الصيدلية وأولئك الذين يمكن مشاهدتهم طوال أيام الأسبوع في صالة لعب البلياردو أو حولها ولا يعلم أحد ماذا يفعلون، ويمتلكون سيارات ويُنفقون نقوداً لا أحد يعرف بالضبط كيف حصلوا عليها في عُطل نهاية الأسبوع في ممفيس أو في مواخير نيو أورلينز- الرجال الذين قال خاله إنّ أمثالهم يوجدون في كل بلدة جنوبية صغيرة، وهم ليس بالضبط يقودون الرعاع ولا حتى يُحرّضونهم بل يُشكلون دائماً نواتهم بسبب توافر حشود منهم. ثم رأى السيارة؛ تعرّفَ عليها أيضاً حتى عن بُعد من دون أنْ يعرفها أو يتوقف ليتساءل كيف حدث ذلك، وخرج من ممر الباب الخفي إلى الشارع ومن ثم اجتازه إلى حافة حشد الناس الذين لم يُصدروا أي ضجيج بل اكتفوا بالوقوف هناك سادّين الرصيف المُجاور لسياج السجن ويفيضون على الشارع بينما اقتربت السيارة ليس بسرعة بل بتأنٍ شديد، باحتشام تقريباً كما ينبغي على السيارة أنْ تتحرك في صباح يوم الأحد، واقتربت من حافة الرصيف وتوقفتْ. كان يقودها نائب الشريف. لم يقُم بأية حركة للترجّل منها. ثم فُتحَ باب السيارة الخلفي وظهر منه الشريف - رجل صاحب جثّة ضخمة خالية من الدهن وعينين صغيرتين قاسيتين فاتحتيّ اللون على وجه جميل بارد التعبير يكاد يخلو منه ومن دون حتى أنْ يرمي نظرة سريعة إليهم استدار وأمسك الباب ليُبقيه مفتوحاً. ثم خرج لوكاس، ببطء وبجمود، تماماً كمَنْ أمضى الليل مغلولاً إلى عمود سرير، وتعثّر قليلاً وضرب رأسه أو

على الأقل خدشَه بأعلى الباب بحيث أنه عندما خرج سقطتْ قبعته عن رأسه على الرصيف تحت قدمه تقريباً. وكانت تلك المرة الوحيدة التي رأى فيها لوكاس عاري الرأس من قبعته وفي اللحظة نفسها أدرك ذلك باستثناء ربما إدموندز وكان المجتمعون الذين يُراقبونه في الشارع ربما الأشخاص البيض الوحيدين في المقاطعة الذين شاهدوه عاري الرأس؛ راقبوا لوكاس ولا يزال ينحني لدى خروجه من السيارة، وقد بدأ يمدّ يده بحركة متيبسة ليتناول القبعة. لكنّ الشريف وبحركة انحناء واسعة ولكن لدنة بصورة مُدهشة التقطها وأعادها إلى لوكاس الذي بدا ولا يزال منحنياً كأنه يُفتش عن القبعة أيضاً. وفي الحال تقريباً أُصلِحَتْ القبعة وعادتْ إلى شكلها السابق واعتدل لوكاس في وقفته، منتصباً ما عدا رأسه، ووجهه عندما حفّتْ القبعة جيئة وذهاباً بكُم ساعده سريعاً وخفيفاً ورشيقاً كضربة موسى. ثم عاد رأسه، ووجهه إلى الخلف وارتفع أيضاً وبحركة ليست بالضبط مندفعة أعاد القبعة إلى رأسه بالزاوية السابقة نفسها التي كانت عليها القبعة وكأنه أطاح بها، وبعد أنْ أصبح الآن منتصباً ببزته السوداء المُجعّدة أيضاً من الليلة التي قضاها كيفما قضاها (كانت هناك لطخة قذرة طويلة ممتدة حتى أسفل جانب كامل من الكتف حتى الكاحل وكأنه كان مستلقياً على أرض غير نظيفة فترة طويلة في وضعية واحدة من دون أنْ يتمكّن من تغييرها) نظر لوكاس إليهم للمرة الأولى وقال في نفسه الآن، سوف يراني الآن ثم قال في نفسه سوف يراني. وينتهي الأمر ثم قال في نفسه إنه لم ير أحداً لأنَّ وجهه لم يكن حتى ينظر إليهم بل فقط في اتجاههم، كان متغطرساً وهادئاً وليس فيه من التحدي غير الخوف: منفصلاً، مُجرّداً، مُتأمّلاً تقريباً، عنيداً ومتماسكاً، والعينان ترمشان قليلاً من أشعة الشمس حتى بعد أنْ تعالى الصوت، وارتفع شهيق من مكان ما في الحشد وقال صوت واحد:

" اصرعه من جديد، يا هوب. اقطع رأسه أيضاً هذه المرة "

قال الشريف " ابتعدوا من هنا يا شباب. عودوا إلى محل الحلاقة: " والتفتَ ليقول للوكاس: " حسنْ. هيا بنا " وانتهى الأمر، وللحظة أخرى نظر الوجه ليس إليهم بل فقط في اتجاههم، كان الشريف يسير نحو باب السجن عندما التفت لوكاس أخيراً ليتبعه وبإسراعه قليلاً استطاع حتى أنْ يسرج هابوي ويُخرجه من الأرض البور قبل أنْ تبدأ أمه بإرسال ألك ساندرز ليبحث عنه ويُحضره ليتناول طعام العشاء. ثم رأى لوكاس يتوقف ويلتفت وكان مُخطئاً لأنَّ لوكاس كان حتى يعلم أين هو وسط الحشد قبل أنْ يلتفتْ، ناظراً مباشرة إليه حتى قبل أنْ يستدير، مُتحدثاً إليه:

قال لوكاس " أنت، أيها الشاب. أخبر خالك أنني أريد أنْ أراه: " ثم عاد واستدار من جديد وتابع سيره خلف الشريف، ولا يزال متيبّساً قليلاً بالبزّة السوداء المُلطّخة، والقبعة المتعجرفة الباهتة تحت أشعة الشمس، والصوت وسط الحشد يقول:

" اللعنة لن يحتاج إلى محام. لن يحتاج حتى إلى حانوتي عندما يتخلّص آل غاوري منه هذه اللّيلة: " وتابع السير متجاوزاً الشريف الذي كان هو نفسه قد توقف عندئذٍ وينظر نحو الخلف إليهم، قائلاً بصوته المعتدل والبارد والمجرّد والخالي من الحرارة:

" لقد أخبرتكم يا جماعة من قبل أنْ ترحلوا عن هنا. ولن أُكرر ما قلت "

الفصل الثالث

إذن لو أنه كان قد توجه إلى المنزِل مباشرة من محل الحلاقة في صباح ذلك اليوم وسرج هايبوي عندما فكر في الأمر للمرة الأولى لكان الآن على بُعد عشر ساعات، وربما قطع مسافة خمسين ميلاً.

عندئذٍ لم يكن هناك قرع أجراس. أي نوع من الأشخاص في الشارع الآن يرتادون صلاة جماعية مسائيّة أقلّ رسميّة وأكثر حميمية، وهم يعبرون الظلام المسكون بالأشباح من عمود نور في الشارع إلى آخر؛ مُجارين بذلك جو يوم السبت الساكن الذين يمر بهم هو وخاله باستمرار، ويتعرفان عليهم عن بُعد دون أنْ يعرفا أو أنْ يتوقفا ليُفكرا في متى أو كيف أو لماذا فعلوا ذلك - ليس من الصورة الجانبية ولا حتى من الصوت: بل من الحضور، أو ربما الهالة المُحيطة؛ ربما فقط من التجاور: هذه الكينونة الحيّة عند تلك النقطة في تلك اللحظة في ذلك اليوم، كما كل ما تحتاج إلى التعرُّف إلى الناس به، الذين عشتَ بينهم طوال حياتك - ينتقلان من الأرض الإسمنتية إلى الحدود العشبية ليتجاوزاهم، مُتحدثاً (أي خاله) إليهم بالاسم، ربما بتبادُل عبارة، أو بجملة ثم يتقدم، منتقلاً إلى الإسمنت من جديد.

ولكن في هذه الليلة الشارع خال. البيوت نفسها بدتْ متقاربة وحذرة ومتوترة وكأنَّ ساكنيها، الذين في هذه الليلة الرقيقة من شهر أيار(ممَّن لم يذهبوا إلى الكنيسة) سيكونون جالسين في السرادقات المُظلمة لبعض الوقت بعد العشاء على كراسٍ هزّازة أو في أجنحة الشرفات يتبادلون فيما بينهم الأحاديث الهادئة أو ربما من سرادق إلى

آخر عندما كانت المنازل متقاربة بالقدر الكافي. أما هذه الليلة فلم يمرّا إلا برجل واحد و لم يكن يمشي بل واقفاً مباشرة داخل البوابة الأمامية لمنزل صغير وأنيق أشبه بصندوق حذاء بُنِيَ في العام السابق بين منزلَين آخرَين متقاربين إلى درجة سماع تدفّق المياه في المراحيض (كان خاله قد شرح أنه: " عندما تولد وتنشأ وتعيش طوال حياتك حيث لا تسمع إلا نعيب البوم ليلاً وصياح الديوك عند الفجر وفي الأيام الرطبة عندما يحمل الصوتُ تقطيعَ الخشب من أقرب جارٍ لك على بُعد ميلَين، فإنك تحب أنْ تعيش حيث تستطيع أنْ تسمع وتشم رائحة الناس من كلا جانبيك كلما فتحوا تدفق مياه الصرف الصحي أو فتحوا علبة سمك سلمون أو صابون")، كان أشدّ سواداً من ظل وحتماً أشدّ سكوناً - قرويّاً انتقل إلى البلدة قبل عام والآن أصبح يمتلك محل بقالة صغيراً بائساً في شارع جانبيّ زبائنه في معظمهم من الزنوج، و لم يروه إلا بعد أنْ وصلوا إليه مع أنه تعرّف عليهم أو على الأقل خاله تعرّفَ عليهم على مسافة منه وكان في انتظارهم، وباشر بالتحدُّث مع خاله قبل أنْ يصلوا إليه:

"ألستَ مُبكّراً قليلاً، أيها المُحامي؟ لا زال على جماعة منطقة بيت فور أنْ يقوموا بالحلب وبقطع الخشب من أجل إعداد وجبة الإفطار بها غداً قبل أنْ يتمكنوا من تناول وجبة العشاء ويحضروا إلى البلدة".

قال خاله بمرح، لدى مروره، "قد يقررون أنْ يمكثوا في بيوتهم في ليلة يوم أحد"، في حين قال الرجل بالضبط تقريباً ما قاله الرجل في محل الحلاقة في صباح ذلك اليوم (وتذكّر ما قاله خاله ذات مرةّ عن قلّة المفردات التي يحتاج إليها الإنسان حقاً على مدى حياته لكي يعيش بارتياح بل وبكفاءة، وكيف أنه ليس فقط في الفرد بل وداخل كامل نمطه وسلالته ونوعه بضعة شعارات بسيطة ومبتذلة تخدم أهواءه

وحاجاته ورغباته القليلة والبسيطة):

"طبعاً. ليس خطؤهم أنه يوم أحد. كان ينبغي على ابن الحرام ذاك أنْ يفكّر في ذلك قبل أنْ يُقدِم على قتل الرجال البيض بعد ظهيرة يوم سبت". ثم نادى خلفهم بعد أنْ مضوا، رافعاً صوته: " إنَّ زوجتي متوعكة هذه الليلة، إلى جانب أنني لا أريد أنْ أقفُ هناك وأكتفي بالنظر إلى واجهة ذلك السجن. ولكن أخبرهم أنْ يصيحوا إذا احتاجوا إلى مساعدة"

قال خاله " أعتقد أنهم يعلمون أنَّ في استطاعتهم أنْ يعتمدوا عليك، يا سيد ليلي ". ومضيا. قال خاله " ليس لديه شيء ضد ما يُسميه الزنوج. وإذا أردتَ رأيي، لعله سيُخبرك بأنه مُعجب بهم حتى أكثر من بعض البيض الذين يعرفهم وسوف يُصدق ذلك. لعلهم يضربونه باستمرار من أجل الحصول على بضع سنتات من هنا وهناك ومن محله وربما حتى يأخذون بعض الأغراض - علب من العلكة أو النيلة أو موزة أو علبة سردين أو زوج من رباط الأحذية أو زجاجة من مُملّس الشعر - ويُخفونها تحت معاطفهم أو مآزرهم وبعِلمه؛ بل لعله يُعطيهم بعض الأشياء مجاناً - العِظام واللحم الفاسد من صندوق ثلج اللحام الذي يتعامل معه وحلويات فاسدة وشحم خنزير. إنَّ كل ما يريد هو أنْ يتصرّفوا كزنوج. وهذا بالضبط ما يفعله لوكاس: لقد فقد أعصابه وقتل رجلاً أبيض - ولعلَّ السيد ليلي مُقتنع بأنَّ الزنوج كلهم يرغبون في فعل ذلك - والآن سوف يُخرجه البيض إلى العراء ويحرقونه، وكل شيء عادي ووفق القانون وهم أنفسهم يتصرفون بالضبط كما هو مُقتنع بأنَّ لوكاس يرغب في أنْ يتصرفوا: كالرجال البيض؛ كلاهما يتقيّد ضمنياً بالقواعد: الزنجي يتصرّف كزنجي والبيض يتصرفون كبيض دون أحقاد من كلا الطرفين (بما أنَّ السيد ليلي ليس من آل غاوري) حالما يخمد الغضب: في الحقيقة قد يكون السيد ليلي

أحد أول المُساهمين بالمال من أجل جنازة لوكاس ولإعانة أرملته وعياله إنْ كان لديه منهم. وهذا يُبرهن من جديد كيف أنَّ لا أحد يستطيع أنْ يُسبب من الحزن أكثر من ذاك الذي يتشبَّث بلا فهم برذائل أسلافه "

الآن بات في استطاعتهما أنْ يشاهدا الساحة، الخالية بدورها - المحلات التجارية الشبيهة بالمدرجات مُطفأة الأضواء، وقلم الرصاص الرفيع والأبيض للتمثال الكونفيدرالي أمام كتلة دار القضاء الذي يلوح من علوّ مُعمَّد على ضوء وجه الساعة الرباعي المعتِم المُنار بلمبة واحدة باهتة ذات طبيعة عنيدة أمام صيحات المناشدة والتحذير الميكانيكية الأربع الثابتة تلك كوهج يراعة. ثم السجن وفي تلك اللحظة، مع ومض وتوهج ودولاب من الأضواء وهدير محرك في وقت واحد ضئيل أمام الليل الشاسع والبلدة الخالية ولكنْ المتغطرسة أيضاً، اندفعت سيارة ظهرت فجأة ودارت حول الساحة؛ وصرخ صوت، صوت شاب صدر عنها - لا كلمات، ولا حتى هتاف: بل صراخ ذو مغزى وبلا معنى - وراحت السيارة تندفع حول الساحة، مُكمِلة الدورة عائدة بلا هدف ثم اختفت. وولجا السجن.

كان مبنياً من الآجر، مُربّعاً، ومُقسّماً، مُزوّداً بأربعة أعمدة من الآجر مع نقش ضحل عبر الواجهة وحتى طنف من الآجر تحت الإفريز لأنه كان قديماً، بُنيَ في وقت كان فيه الناس يتمهلون في بناء حتى السجن بتناسُق وعناية وتذكّر كيف كان خاله قد قال ذات مرة إنّه ليس دار القضاء ولا حتى الكنائس بل السجون هي السجلات الحقيقية لتاريخ المقاطعة، أو المجتمع، بما أنه ليس فقط الأحرف الأولى الغامضة المنسية والكلمات وحتى العبارات التي تصرخ بالتحدّي والاتّهام حُفِرَتْ على الجدران بل حجر الآجر نفسه والحجارة العادية نفسها بقيتْ، ليس بتلاشٍ بل بترقُّب، سليمة ومُقاومة وقوية ولا تبلى، والآلام والأعمال المشينة والأحزان التي بقيتْ القلوب بها منذ ذلك

الحين مجهولة ولا يتذكّرها أحد عَصَرَها الغبار وربما فجّرها. وكان هذا صحيحاً حقاً على هذا البناء بالذات لأنه وأيضاً الكنائس كانت الأبنية الأقدم عهداً في البلدة، أما دار القضاء وكل شيء آخر يطلّ على الساحة أو موجود فيها احترق حتى سُوّي بالأرض على أيدي قِوى الاحتلال الفيدرالي بعد معركة دارت في عام ١٨٦٤. لأنه كان محفوراً على أحد ألواح زجاج النافذة المروحية بجوار الباب اسم واحد لفتاة صغيرة، كتبتْه بخط يدها على الزجاج بحجر الماس في ذلك العام نفسه وكان أحياناً يذهب في كل عام مرات عِدّة إلى الرواق لكي يُلقي عليه نظرة، لقد أصبح مُبهماً الآن بالمعنى العكسي، ليس في صِلته بالماضي بل لكي يعي من جديد أبديّة، وخلود، وثبات الشباب - إنه اسم إحدى بنات السجّان في ذلك الوقت (وخاله الذي كان لديه لكل شيء تفسير ليس بإيراد الحقائق بل بعيداً عن الإحصاءات الجافة داخل شيء أشدّ تأثيراً بكثير لأنه كان الحقيقة: مما يُحرك القلب ولا صِلة له بما قالته المعلومات القابلة للبرهان، كان قد أخبره ما يلي أيضاً: كيف أنّ هذا الجزء من مسيسيبي كان حديث العهد حينئذٍ، كبلدة كمُستعمرة كمُجتمع محدود لا يزيد عمره عن خمسين عاماً، وكل الرجال الذين لجؤوا إليه قبل أقلّ من ذلك ربما أقل حتى من أكبرهم سناً كانوا يعملون معاً ليُحافظوا عليها، يؤدون الأعمال الأساسية جنباً إلى جنب مع الشخصيات البارزة ليس سعياً وراء الأجر أو المنصب السياسي بل لتأسيس أرض من أجل الأجيال القادمة، لذلك يمكن للرجل أنْ يكون سجّاناً حينئذٍ أو صاحب حانة أو راهباً أو بائع خضروات جوّالاً ومع ذلك يبقى سيداً محترماً على قدم المساواة مع المحامي والرسّام والطبيب والقسّ) وقفتْ عند تلك النافذة بعد ظهيرة ذلك اليوم وراقبتْ ما تبقّى من الكتيبة الفيدرالية المهزومة تتراجع خلال البلدة، لتُقابل فجأة عبر تلك المساحة عينيّ الملازم الرث طويل اللحية الذي قاد إحدى الفرق المنكسرة، حافرة على الزجاج ليس اسمه أيضاً، ليس فقط لأنّ

فتاةً صغيرة في ذلك الزمن ما كان يمكن أنْ تفعل ذلك بل لأنّها لم تكن تعرف اسمه حينئذٍ، ناهيك عن أنه بعد ستة أشهر لاحقة سيُصبح زوجها.

في الواقع لا زال يبدو أشبه بمسكن بسرادقاته الخشبية المحفوفة بالدرابزين عبر الجزء الأمامي من الطابق الأسفل. ولكن فوق ذلك كان الجدار الآجر خالياً من النوافذ ما عدا مربّع واحد طويل بقضبان متعارضة ومن جديد فكّرَ في ليالي أيام الآحاد التي بدت عندئذٍ كأنها تنتمي إلى زمن ميت كما نينوى القديمة عندما كان السجّان يُطفئ الأنوار من العشاء ويصيح نحو أعلى الدرج إليهم كي يخرسوا، وتتمدّد أيدي الظلام الرشيقة في الفترات الفاصلة القذرة بينما الأصوات الرخيمة والهادئة وغير النادمة تهتف باتجاه الأسفل للنساء بمآزر الطباخات أو الممرضات والفتيات بملابسهن الرخيصة صارخة الألوان من مكاتب البريد واجتمع الشبان الآخرون الذين لم يتم القبض عليهم أو قُبِضَ عليهم ولكن أُطلِقَ سراحهم بالأمس، على طول الشارع. ولكن ليس هذه الليلة وحتى الغرفة الخلفية كانت مُظلمة على الرغم من أنّ الساعة لم تبلغ الثامنة بعد وكان في استطاعته أنْ يرى، أنْ يتخيل أنهم ليسوا متراصّين معاً لكنهم حتماً معاً، على مرمى لمس المِرفق في الظلام سواء أكانوا حقاً يتلامسون أم لا وكانوا حتماً هادئين، لا يضحكون هذه الليلة ولا حتى يتحدثون، بل جالسين في الظلام ويراقبون أعلى الدَرَج لأنّ تلك لن تكون المرة الأولى التي ليس فقط بدت القطط السوداء كلها بالنسبة إلى رعاع من الرجال البيض رمادية بل لم يكونوا دائماً يزعجون أنفسهم بعدِّها.

كان الباب الأمامي مفتوحاً، مُشرّعاً للشارع الذي لم يكن قد رآه من قبل حتى في الصيف على الرغم من أنّ الطابق الأرضي كان مسكن السجّان، وكان مائلاً وهو على الكرسي على الجدار الخلفي بحيث

يواجه الباب والمشهد الكامل للشارع، هو لم يكن السجّان ولا حتى أحد نواب الشريف. لأنه هو أيضاً تعرّفَ عليه: إنه ويل ليغيت، الذي كان يقطن في مزرعة صغيرة تبعد ميلين عن البلدة ويُعتَبَر أحد أفضل النجّارين، وأفضل رام وأفضل صائد للغزلان في المقاطعة، جالساً على الكرسي المائل ممسكاً بقسم الكاريكاتور الملون من عدد اليوم من صحيفة ممفيس، وإلى جواره تميل على الجدار ليس البندقية ذات الزند البالي التي كان قد قتل بها من الغزلان (بل والأرانب الفارّة) أكثر مما يستطيع تذكّره بل بندقية رش بفوّهتين، ومن الجليّ أنه من دون حتى أنْ يُخفِض أو يُحرّك الصحيفة رآهم وتعرّف عليهم قبل أنْ يصلوا إلى البوابة وكان عندئذٍ يراقبهم بثبات وهم ينتقلون إلى الرصيف ويرتقون الدَرَج ويجتازون السرادق ويدخلون: في تلك اللحظة ظهر السجّان نفسه من بابٍ على اليمين - رجل قبيح مهمل كبير البطن ذو وجه مُنهَك مهموم وحانق، يتمنطق بمسدس ثقيل على حزام من الخرطوش حول خصره بدا مُزعجاً وفي غير مكانه كقبعة من الحرير أو كطوق من حديد كالذي كانوا يضعونه حول عنق العبيد في القرن الخامس عشر، أغلق الباب خلفه، وهو يصرخ في خاله:

" إنه حتى يرفض أنْ يُغلق الباب الأمامي ويقفله! يكتفي بالجلوس هناك مع تلك الصحيفة الهزلية التافهة في انتظار أي شخص يرغب في الدخول! "

قال ليغيت بصوته الرصين الممتع " إنني أقوم بما أمرني السيد هامبتون أنْ أقوم به "

صرخ السجّان " وهل يعتقد السيد هامبتون أنّ تلك المجلة الهزلية سوف توقِف القادمين من بيت فور؟ "

قال ليغيت بالصوت الممتع والرصين نفسه " لا أعتقد انه بدأ يقلق

بشأن بيت فور. إنَّ ما يحدث هنا هو فقط للاستهلاك المحلي "

ألقى خاله نظرة سريعة إلى ليغيت. " يبدو أنَّ الخطة نجحتْ. لقد رأينا السيارة - أو أحدها - تقوم بجولة حول الساحة في أثناء قدومنا. أعتقد أنها مرّت من هنا أيضاً "

قال ليغيت " أوه، مرة أو مرتين. وربما ثلاث مرات. في الحقيقة أنا لا أنتبه كثيراً "

قال السجّان " وآمل أنْ تنجح دائماً. لأنَّ من المؤكّد أنك لن توقِف أحداً بهذه البندقية المتخلفة "

قال ليغيت " طبعاً، أنا لا أتوقع أنْ أوقفهم. إذا اتخذ عدد كاف من الناس قراراً والتزموا به، فلا يمكن لأحد أنْ يمنعهم عما يعتقدون أنهم يريدون أنْ يفعلوا. ولكن، لديّ أنت وهذه البندقية لتساعداني "

صرخ السجّان " أنا؟ أنا أقفُ في طريق آل غاوري وإنغروم من أجل خمسة وسبعين دولاراً في الشهر؟ فقط من أجل زنجي واحد؟ وإذا لم تكن أحمق، فلن تفعل أنت ذلك أيضاً "

قال ليغيت بصوت الممتع الرخيّ " أوه يجب أنْ أفعل. يجب أنْ أقاوم. إنَّ السيد هامبتون يدفع لي خمسة دولارات مقابل ذلك " ثم قال لخاله " أعتقد أنك تريد أنْ تراه "

قال خاله " نعم، إنْ كان هذا يُناسب السيد تبس "

حدّقَ السجّان إلى خاله، غاضباً ومنزعجاً. " إذن تريد أنْ تتورط في الأمر أيضاً. ولا تستطيع أنْ تتركه " والتفت على عجل، " هيا بنا: "، وقاد الطريق ودخل من الباب الذي كان كرسي ليغيت يميل إلى جواره إلى الرواق الخلفي حيث يرتفع مطلع الدرج إلى الطابق الأعلى، مُديراً مفتاح النور عند أسفل الدرج وبدأ يرتقيه، وتبعه خاله خلفه

خاله وهو خلف يراقب كتلة قراب المسدس وتدلّيه من ورك السجّان. وفجأة بدا أنَّ السجّان يهمُّ بالتوقف؛ حتى خاله ظنَّ ذلك، متوقفاً بدوره لكنَّ السجّان تابع سيره، موجّهاً كلامه إلى الخلف: " لا عليك مني. سوف ابذل قُصارى جهدي؛ أنا أيضاً تعهّدتُ بأداء عملي ". ارتفع صوته قليلاً، ولا يزال هادئاً، فقط أعلى نبرة: " ولكن لا تظن أنَّ أحداً سيُجبرني على الاعتراف بأنني أحبّه. إنَّ لدي زوجة وطفلين؛ ما فائدتي لهم إذا قُتِلتُ وأنا أقوم بحماية زنجي قذر لعين؟ " ومن جديد ارتفع صوته؛ الآن لم يعُد هادئاً: " وكيف سأتعايش مع نفسي إذا تركتُ ثُلّة من أولاد الحرام التافهين تنتزع مني سجيناً؟ " وهنا توقفنا وانعطف على الدرَجة التي فوقهما، أعلى من كليهما، ومن جديد أظهرَ وجهه المزيد من الانزعاج والسُعر، وأصبح صوته مسعوراً وحانقاً: "كان من الأفضل للجميع لو أنَّ الناس أخذوه حالما وضعوا أيديهم عليه بالأمس ـ "

قال خاله " لكنهم لم يفعلوا. ولا أعتقد أنهم سيفعلون. وإذا فعلوا، فلا يهم حقاً. فإما سيفعلون أو لن يفعلوا وإذا لم يفعلوا فلا بأس وإذا فعلوا فسوف نبذل قُصارى جهدنا، أنت والسيد هامبتون وليغيت وبقيّتنا، لنقوم بما علينا القيام به، وما نستطيع القيام به. لذلك لا داعي لأنْ نقلق حول الأمر. أتفهم؟ "

قال السجّان " نعم ". ثم استدار وتابع سيره، دون أنْ يُخرج حلقة المفاتيح من حزامه تحت حزام المسدس ووضع المفتاح في الباب الثقيل الذي يفصل الجزء العلوي من الدَرَج (كان قطعة صلبة صُنِعَتْ يدوياً سُمكها يزيد عن بوصتين، مُقفَلة بقفل حديث وثقيل مُثبتٌ إلى قضيب معمول يدوياً وله ثُقبان من حديد كانا أشبه بمفاصل ثقيلة على شكل ورديّة وأيضاً معمولين يدوياً، طُرِقا قبل أكثر من مائة عام في محل حدادة يقع على الطرف المقابل من الشارع حيث وقفَ بالأمس؛

وذات يوم في الصيف السابق كان شخص غريب، من المدينة، مهندس معماريّ ذكّره نوعاً ما بخاله، عاري الرأس وبلا ربطة عنق، ينتعل حذاء لعبة التنس ويرتدي بنطلوناً متهرئاً من الفلانيلة وكان ما تبقّى من صندوق من زجاجات الشامبانيا في سيارة ذات سقف متحرك لابد أنها كلّفته ثلاثة آلاف دولار، يقودها ليس ماراً بالبلدة بل ليدخلها، ولا يؤذي أحداً بل يقود السيارة على الرصيف ومن ثم اجتازه مخترقاً واجهة من الزجاج، كان مفرط السُكر، مفرط المرح، يحمل في جيبه أقلّ من خمسين سنتاً فكّة ولكن مع أنواع شتى من بطاقات الهوية ودفتر شيكات تدل أروماته على أنه يُغطي حساباً في مصرف نيويورك يفوق ستة آلاف دولار، أصرّ على أنْ يودَع السجن على الرغم من أنَّ العمدة وصاحب المحل كانا يُحاولان أنْ يُقنعاه بالذهاب إلى الفندق لينام وينسى الأمر لكي يتمكن من تحرير شيك بقيمة الواجهة والجدار: أخيراً أودعه العمدةُ السجنَ وهناك استغرقَ فوراً في النوم كالطفل الوليد وأرسل المرأب مَنْ يُحضِر السيارة وفي صباح اليوم التالي اتصل السجّان بالعمدة عند الساعة الخامسة لكي يحضر ويُطلِق سراح الرجل لأنه أيقظ كل مَنْ في السجن بكلامه وهو في الزنزانة عن الزنوج المسجونين. فجاء العمدة وأجبره على المغادرة ومن ثم أراد أنْ يخرج وينضم إلى المجتمعين في الشارع ليعمل معهم لكنهم لم يسمحوا له بفعل ذلك وكانت سيارته موجودة أيضاً لكنه رفض أنْ يُغادر، وفي الفندق في تلك الليلة وبعدها بليلتين قام خاله حتى بدعوته على العشاء، وحينئذٍ تحدث مع خاله على امتداد ثلاث ساعات عن أوروبا وباريس وفيينا وأصغى وأصغت أمه أيضاً على الرغم من أنَّ والده استأذن بالمغادرة: ومكثَ عندهم على طوال يومين تاليين، وظل يُحاول عبر خاله والعمدة وهيئة مجلس المقاطعة وأخيراً هيئة المُشرفين أنفسهم أنْ يشتري كامل الباب كله أو إذا لم يرغبوا في

بيعه، فعلى الأقل البار والماكينات الشقّية والمفاصل) وفتحه وأزاح الباب إلى الخلف.

لكنهم كانوا قد تجاوزوا عالم الإنسان، البشر: الناس الذين يعملون ولديهم منازل ويُعيلون عائلات ويحاولون أنْ يكسبوا من المال أكثر قليلاً ربما مما يستحقون بوسائل نظيفة طبعاً أو على الأقلّ شرعيّة، ليُنفقوا قليلاً على المرح ومع ذلك يدّخروا شيئاً لأيام الشيخوخة. لأنه على الرغم من أنَّ باب السنديان تراجع إلى الخلف بدا كأنما اندفعت إلى الخارج وانقضت عليه الأنفاس البائتة لكل الانحطاط البشري وعاره - رائحة زيت الكريوسوت والبراز وقيء قديم وعناد وتحدٍ وإنكار كشيء ملموس على اندفاع ونشاط أجسادهم وهم يرتقون الدرجات الأخيرة وينتقلون إلى ممر كان في الحقيقة جزءاً من الغرفة الرئيسة، المُحتَجَز، فُصِلَ عن باقي الغرفة بجدار من شبكة سلكية كخن دجاج أو وجار كلب، داخله ممّدَدَ خمسة من الزنوج على صف من مقاعد الخشب الطويلة على طول الجدار الأنأى، بلا حراك، عيونهم مُغمضة لكنّ غطيطهم ليس مرتفعاً، ولا يصدر عنهم أي صوت من أي نوع، متمددين هناك بلا حِراك بانتظام وهادئين تحت الوهج المُغبرّ لمصباح كهربائي وحيد بلا ظِلّة وكأنهم مُحنطون، ويتوقف السجّان من جديد، ويداه تقبضان على الشبكة وهو ينظر بغضب إلى الأجساد المُستلقية الساكنة. قال السجّان " انظر إليهم " بذلك الصوت الشديد العلوّ، الرفيع جداً، إلى درجة الهستريا: " هادئون كالحملان ولكن ولا واحد لعين منهم نائم. ولا ألومهم، بوجود عُصبة من الرجال البيض يضطربون هنا في منتصف الليل حاملين مسدسات وأوعية من الغازولين – قال " هيا بنا " والتفت وتابع السير. وبعد ذلك كان هناك باب في الشبكة، بلا قفل ولكن فقط مُثبّتْ بمشبك ورزّة كالتي يمكن أنْ تُرى على وجار كلب أو مخزن ذرة لكنَّ السجّان تجاوزه.

قال خاله " أوضعته في الزنزانة؟ "

قال السجّان دون أنْ يلتفت إلى الخلف " إنها أوامر هامبتون. لا أعلم ما هو رأي الرجل الأبيض التالي الذي يعتقد أنه لن يرتاح حتى يقتل شخصاً ما. لكنني مع ذلك أزلتُ كل الأغطية عن الأسرّة "

قال خاله " ربما لأنه لن يمكث هنا مدة كافية لينام خلالها؟ "

قال السجّان بذلك الصوت الخشن عالي النبرة الخالي من المرح " ها ها: ها ها ها ها: " تساءل وهو يلحق بخاله كيف أنَّ من بين مساعي البشر جميعاً يحتاجُ القتلُ إلى الخصوصيّة المُطلقة؛ كيف أنَّ الإنسان يذهب إلى أقصى مدى لكي يُحافظ على العزلة التي يتبرز فيها أو يمارس الحب لكنه يبذل كل جهد لكي يحظى بالعزلة التي ينتحر فيها، وحتى ليقتل، ومع ذلك في وسعه أنْ يُدمرها تدميراً تاماً ولا رجعة عنها: إنها هذه المرة باب حديث مزوَّد بقضبان من الفولاذ وبقفل مُثبَّتْ بالجدار كبير بحجم حقيبة امرأة فتحه السجّان بمفتاح آخر في الحلقة ومن ثم استدار، كان ضجيج قدميه سريعاً كالعودة ركضاً على طول الرواق إلى أنْ فصلهم ضجيج باب السنديان في أعلى الدَرَج، وبعد ذلك أُضيئت الزنزانة بمصباح كهربائي واحد مُعتِم مُغبرّ يغزوه الذباب من خلف ستار من الأسلاك يقبع في السقف، لا يتجاوز حجمها خزانة المكنسة وفي الواقع لا تتسع لأكثر من مقعد خشبي طويل مزدوج يستند إلى الجدار، وكان السريران مُجرّدين ليس فقط من الأغطية بل ومن الحشيّة أيضاً، ودخل هو وخاله ومع ذلك لم ير إلا ما وقعت عليه عيناه في اللحظة الأولى: القبعة والمعطف الأسود مُعلّق بترتيب من مسمار في الجدار: ولاحقاً سوف يتذكّر كيف قال في نفسه وهو يشهق، كدفق من الارتياح: لقد نالوا منه. قُضيَ عليه. فات الأوان. انتهى الأمر منذ الآن. لأنه لم يكن يعلم ماذا توقّع، لولا أنَّ الأمر لم يكن كذلك: صحيفة ممدودة بعناية تغطي بأناقة النوابض

العارية للسرير السُفلي ومقطعاً آخر منها وُضِعَ بعناية على العُلوي لكي يحمي عينيه من الضوء ولوكاس نفسه مُستلق على الأوراق الممدودة، نائم، على ظهره، ورأسه يتوسَّد إحدى فردتيّ حذائه ويداه معقودتان على صدره، بسكينة تامة أو بسكينة نوم العجائز، فمه مفتوح ويتنفس بشهقات واهنة ضحلة ومرتعشة؛ وقف وسط فيضٍ لا يُحتَمَل ليس فقط من الاضطراب بل من الغضب وهو ينظر أسفلاً إلى الوجه الذي أصبح أخيراً وللمرة الأولى أعزل لوهلة من الزمن، كاشفاً عن سنّه، ويدا الرجل العجوز المرتخيتان الملتويتان اللتان أطلقتا في الأمس القريب الرصاص على ظهر مخلوق بشري آخر، مستلقيتان بسكون واستكانة على حِجر قميصٍ أبيض مغليّ عتيق الطراز وبلا ياقة مُقفَل عند العنق بزرٍّ من النحاس علاه الصدأ على شكل سهم وبحجم رأس حيّة صغيرة، قائلاً في نفسه: قبل كل شيء هو مجرد زنجي بأنفه المرتفع وعنقه المتيبّس وسلسلة ساعته الذهبية وبرفضه أنْ يُخاطب أحد بكلمة سيد حتى عندما يقولها. لا يمكن إلا لزنجي أنْ يقتل رجلاً، ناهيك عن أنْ يُطلق النار عليه في ظهره، ومن ثم ينام كطفل وليد حالما يعثر عن سطح منبسط يستلقي عليه؛ كان لا يزال ينظر إليه عندما أغلق لوكاس فمه دون أنْ يتحرك ويفتح جفنيه، وعيناه تُحدقان عالياً برهة أخرى، والتفتَ المِحجران ولا يزال الرأس بلا حركة إلى أنْ أصبح لوكاس ينظر أمامه مباشرة إلى خاله ولكن لا يزال لا يأتي بأية حركة: فقط يستلقي هناك ينظر إليه.

قال خاله " حسن، أيها العجوز. أخيراً عبثتَ بالجحيم ". ثم تحرّك لوكاس. اعتدل في جلسته المتيبسة وأخذ يهز ساقيه بجمود عبر حافة السرير، مُمسكاً إحداهما من الرُكبة بيديه ويؤرجحها كما يفتح المرء بوابة مرتخية أو يفتحها، متأوهاً، ناخراً ليس فقط بصراحة وبلا خجل وبصوت مرتفع بل بارتياح، وبينما العجائز ينخرون ويئنون بقليل من التصلّب المألوف الطويل المُستهلَك والاعتيادي بحيث لم يعُد حتى ألماً

وإذا ما حصل وبرئوا منه، فسوف يصبحون محرومين وضائعين؛ كان لا يزال يُصغي ويراقب بذلك الحنق وأيضاً الآن بذهول القاتلَ ليس فقط في ظل المشنقة بل والغوغاء الذين سيعدمونه بلا محاكمة، وليس فقط بتمهّل في التأوه بسبب تصلُّب في ظهره بل يفعل ذلك وكأنَّ أمامه طوال باقي حياة طبيعية طويلة يجب تفحّصه فيها كلما حرّكته النوبة المألوفة القديمة.

قال لوكاس " هكذا يبدو. لهذا أرسلتُ في طلبك. فماذا ستفعل بي؟ "

قال خاله " أنا؟ لا شيء. أنا لستُ من آل غاوري. ولا من جماعة بيت فور "

تحرّك لوكاس من جديد ومال وأمعن النظر في قدمه، ثم مدَّ يده تحت السرير وأخرج فردة الحذاء الأخرى واعتدل في جلسته من جديد وبدأ يستدير بتصلُّب مع إصدار صرير لكي ينظر خلفه فمدَّ خاله يده وتناول فردة الحذاء الأولى عن السرير وأسقطها إلى جوار الأخرى. لكنَّ لوكاس لم ينتعلهما. بل جلس من جديد، لا تصدر عنه أية حركة، ويداه على رُكبتيه، يطرف بعينيه. ثم قام بإيماء بإحدى يديه تمحو بشكل تام آل غاوري، والرعاع، والانتقام، والمحرقة وكل شيء. قال " سوف أقلق حول ذلك عندما يدخلون إلى هنا. أعني القانون. ألستَ محامي المقاطعة؟ "

قال خاله " أوه، إنَّ محامي المنطقة هو الذي سيقوم بشنقك أو بإرسالك إلى بارتشمان – وليس أنا "

كان لوكاس لا يزال يطرف بعينيه ، ليس بسرعة: فقط بثبات. راح يراقبه. وفجأة أدرك أنَّ لوكاس لا ينظر إلى خاله على الإطلاق ومن الواضح أنه لم يفعل على مدى ثلاث ثوان أو أربع.

قال لوكاس " فهمت. إذن تستطيع أنْ تتولى قضيتي "

" أتولّى قضيتك؟ أدافع عنك أمام القاضي؟ "

قال لوكاس " سوف أدفع لك. لا تقلق "

قال خاله " أنا لا أدافع عن القتلة الذين يُطلقون الرصاص على الظهر "

من جديد قام لوكاس بالايماء بإحدى اليدين القائمتين الملتويتين. " فلننس أمر المُحاكمة. لم نصل إليها بعد ". وهنا رأى أنّ لوكاس يُراقب خاله في الأعلى من تحت حاجبيه الكثّين – نظرة لاذعة سريّة مقصودة. ثم قال لوكاس: " أريد انْ أعيّن أحداً – " وسكت. فكّرَ وتذكّر وهو يراقبه سيدةً عجوزاً، ماتت الآن، عانساً، كانت جارة تضع شعراً مُستعاراً مصبوغاً وتضع على رف في خزانة المؤن وعاءً كبيراً من كعك الشاي صُنع في المنزل من أجل توزيعها على أطفال الشارع كلهم، الذين قامت ذات صيف (لم يكن حينئذٍ يتجاوز من العمر سبع سنوات أو ثمان) بتعليمهم كلهم لعبة الخمسمائة: تجلس على طاولة الورق في سُرادقها الجانبي المحجوب بستارة في أوقات الصباح في الصيف الحارّ وتُبلّل أصابعها وتتناول أوراق لعب من يدها وتضعها على الطاولة، ويدها لم تعُد موضوعة فوقها طبعاً بل إلى جوارها إلى أنْ يقوم اللاعب التالي بالكشف بحركة أو إيماء انتصار أو ابتهاج أو ربما بتنفس عميق متصاعد بسيط عن نيّته في الربح أو الانتصار، وعلى الأثر تقول بسرعة: " انتظر. لقد انتقيتُ الورقة الخطأ " وتتناول الورقة وتعيدها إلى يدها وتلعب بأخرى. هذا بالضبط ما فعله لوكاس. كان قد جلس ساكناً من قبل أما الآن فلم يكن يأت بأية حركة. بل بدا كأنه لا يتنفّس.

قال خاله " تعيّنُ أحداً؟ أنتَ لديك محام. لقد قبلتُ تواً قضيتك قبل أنْ آتي إلى هنا. وسوف أُخبرك ماذا يجب أنْ تفعل حالما تخبرني عما حدث "

قال لوكاس " كلا، أريد أنْ أُعيِّن أحداً. وليس من الضروري أنْ يكون محامياً "

الآن كان قد حان دور خاله ليُحدق إلى لوكاس. " ليفعل ماذا؟ "

راح يُراقبهما. لم تكن تلك لعبة أطفال خالية من المجازفة؛ كانت أشبه بمباريات لعبة البوكر التي تغاضى عنها. قال لوكاس " هل ستقبل المنصِب أم لا؟ "

قال خاله " إذن لن تُخبرني ماذا تريد مني أنْ أفعل إلا بعد أنْ أوافق على فعله. حسن، الآن سأخبرك ماذا ينبغي أنْ أفعل. ماذا حدث بالضبط هناك بالأمس؟ "

قال لوكاس " إذا أنت لا تريد المنصب، أنت لم تقل بعد نعم أو لا "

قال خاله، بصوت خشن، وأعلى مما ينبغي، كابحاً نفسه ولكن كان قد بدأ تواً يتكلَّم من جديد قبل أنْ يُخفِض نبرة صوته إلى ما يشبه مستوى الهدوء ظاهر الغضب: " كلا! لأنه ليس لديك أي عمل تعرضه على أحد. أنت موجود في السجن، تتكل على رحمة الله لكي يمنع آل غاوري الملاعين من جرّك بعيداً عن هذا المكان وشنقك على أول عمود نور يُصادفونه. إنني لا أزال لا أفهم لِمَ جلبوك إلى البلدة أصلاً - "

قال لوكاس " لا عليك من هذا الآن. إنَّ ما نحتاج إليه هو - "

قال خاله " لا عليَّ من هذا! قُل لآل غاوري إنه لا عليهم من الأمر عندما يقتحمون المكان هذه الليلة. قُل لجماعة بيت فور أنْ ينسوا الأمر - " وسكتْ؛ كان في الإمكان أنْ تلاحظ من جديد مع بذل جهد أنه أعاد نبرة صوته إلى ذلك الصبر الحانق. أخذ نفساً عميقاً ثم زفره. "والآن. أخبرني بالضبط ماذا حدث بالأمس".

مرّت لحظة أخيرة دون أنْ يُجيب لوكاس، وهو جالس على السرير، ويداه على رُكبتيه، عنيد وهادئ، و لم يعُد ينظر إلى خاله، ويُحرك فمه قليلاً وكأنه يختبر شيئاً. قال: كان هناك اثنان، شريكان في المنشرة. على الأقل كانا يشتريان الجذوع والمنشرة تقطعها - "

قال خاله " مَنْ كانا؟ "

"واحد منهما كان فينسون غاوري "

حدَّقَ خاله إلى لوكاس للحظة طويلة. لكنَّ صوته كان قد أصبح هادئاً الآن. قال " لوكاس، ألم يخطر في بالك قط أنه لو أنك فقط قلت يا سيدي لأي شخص أبيض وقُلتها كأنك تعنيها، لما كنتَ جالساً هنا الآن؟ "

قال لوكاس " إذن سأبدأ الآن. أستطيع أنْ أبدأ بقول يا سيدي للّذين سيجرّونني خارج هذا المكان ويُضرمون النار فيَّ "

قال خاله " لن يحدث لك أي شيء - إلى أنْ تمثُل أمام القاضي. ألا تعلم أنه حتى جماعة بيت فور لا يستطيعون أنْ يتصرفوا بحرية مع السيد هامبتون - على الأقل ليس في هذه البلدة؟ "

" إنَّ الشريف هامبتون في منزله في السرير الآن "

" لكنَّ السيد ويل ليغيت يجلس في أسفل الدَرَج مع البندقية "

" أنا لا أعرف ويل ليغيت "

" صائد الغزلان؟ الرجل الذي يستطيع أنْ يُصيب أرنباً يركض ببندقية ثلاثين بثلاثين وينشستر؟ "

قال لوكاس " هاه، آل غاوري ليسوا غزلاناً. قد يكونون قططَ جبال ونموراً لكنهم ليسوا غزلان "

قال خاله " حسن، إذا سأمكث هنا إذا كان هذا يُطمئنك. والآن،

تابع. تقول إنّ فينسون غاوري ورجل آخر كانوا يشترون زنود الخشب معاً. مَنْ الرجل الآخر؟ "

" فينسون غاوري هو الشخص الوحيد المعروف "

قال خاله " وأصبح معروفاً بإصابته بالرصاص في ظهره في وضح النهار. حسن، هذه إحدى الطرق لشرح الأمر - حسن. ومَنْ كان الرجل الآخر؟ "

لم يُجِب كارلوس. لم يتحرك؛ ولعله أيضاً لم يسمع، وهو جالس بهدوء وشرود، بل لا ينتظر حقاً: فقط يجلس هناك بينما خاله يُراقبه. ثم قال خاله:

" حسن. ماذا كانا يفعلان بها؟ "

" كانا يقيسانها ليقطعانها في المنشرة، ويبيعانها كلها دفعة واحدة بعد انتهاء عملية النشر. وحده الرجل الآخر كان يقوم بنقلها ليلاً، يأتي في وقت متأخر بعد هبوط الليل مع شاحنة ويُحمّلها ويذهب إلى غلاسكو أو هوليمانت ويبيعها ويحتفظ بالنقود لنفسه "

" وما أدراك؟ "

" رأيته. راقبته " ولم يشكّ في الأمر ولو للحظة لأنه تذكّر إيفرايم، والد بارالي قبل أنْ يتوفى، كان رجلاً عجوزاً، أرمل يقضي مُعظم وقته في النوم والاستيقاظ على كرسي هزّاز في سرادق بارالي في الصيف وأمام موقد النار في الشتاء وليلاً يجوب الشوارع، بلا هدى، فقط يتنقّل، أحياناً يقطع خمسة أميال أو ستة خارج البلدة قبل أنْ يعود عند الفجر لكي يغفو ويستيقظ من جديد طوال النهار على الكرسي الهزّاز.

قال خاله " حسن. ثم ماذا؟ "

قال لوكاس " هذا كل شيء. كان فقط يسرق حِملاً من زنود الخشب في كل ليلة أو نحوها "

حدّقَ خاله إلى لوكاس لحوالي عشر ثوان. قال بصوت ملؤه الذهول الهادئ، الخامد: " إذن شهرت مسدسك ومضيتَ لتضع الأمر في نِصابه. أنت، أيها الزنجي، شهرت مسدساً وذهبتَ لتُصحّح خطأً وقع بين رجلَين من البيض. ماذا توقّعتَ؟ ماذا توقّعتَ غير هذا؟ "

قال لوكاس " لا عليك من التوقُّع. أنا أريد - "

قال خاله " أنت ذهبتَ إلى المحل وبمحض المُصادفة وجدتَ فينسون غاوري أولاً فلحقتَ به إلى الغابة وأخبرته بأنَّ شريكه يسرقه وطبعاً سبّك ونعتكَ بالكذّاب سواء أكان هذا صحيحاً أم لا، وطبعاً كان مُضطراً إلى فعل ذلك؛ بل لعلّه طرحك أرضاً وتابع طريقه فأطلقت عليه النار في ظهره - "

قال لوكاس " لا أحد طرحني أرضاً "

قال خاله " وهذا أسوأ، بل أسوأ بكثير بالنسبة إليك. إنه ليس حتى دفاعاً عن النفس. لقد أطلقت عليه النار ببساطة في ظهره. ومن ثم وقفت هناك فوقه والمسدس الذي أطلقت الرصاص منه في جيبك وتركتَ القوم البيض يأتون ويُمسكون بك. ولولا موظف الأمن الضئيل المنكمش المُصاب بالروماتيزم ذاك الذي لم يكن ثمة سبب لتواجده هناك في المقام الأول وفي المقام الثاني لم يكن لديه أي سبب في المُطلق، يتلقّى دولاراً عن كل سجين كلما سلّمَ مُذكّرة إحضار أو قدّم كفالة، متحلياً بما يكفي من الشجاعة ليكبح جِماح كامل جماعة بيت فور اللعينة على مدى ثماني عشرة ساعة إلى أنْ رأى هوب هامبتون أنَّ الوقت أصبح ملائماً أو تذكّرَ أو توصّل إلى إحضارك إلى السجن -

ليكبح جماح ذلك الجمع الريفيّ كله لا أنت ولا كل الأصدقاء الذين تستطيع أنْ تستدعي على مدى مائة عام – "

قال لوكاس بكبرياء صارمة ولا تلين، " أنا ليس لدي أصدقاء "، ومن ثم قال شيئاً على الرغم من أنّ خاله كان قد باشر الكلام:

قال خاله " حتماً ليس لديك أصدقاء. ولو كان لديك منهم فإنّ طلقة المُسدس تلك كانت ستنسفهم وتُرسلهم إلى الآخرة – ماذا؟ ماذا قلت؟ "

قال لوكاس " قلتُ سوف أُسدِّد النقود على طريقتي "

قال خاله " فهمت. أنت لا تلجأ إلى الأصدقاء؛ بل تدفع نقداً. نعم، فهمت. والآن أصغ إليّ. غداً سوف تمْثُل أمام هيئة المُحلّفين الكبرى وسوف يوجّهون إليك الاتّهام. ثم إذا شئت سوف أجعل السيد هامبتون ينقلك إلى موتستاون أو حتى أبعد من ذلك، إلى أنْ تلتئم المحكمة في الشهر القادم. ثم سوف تعترف بذنبك؛ وسوف أقوم بإقناع محامي المنطقة بتركك تفعل ذلك لأنك رجل عجوز و لم تُسبب أي مشاكل من قبل؛ أعني حسب عِلم القاضي ومحامي المنطقة بما أنهما لا يُقيمان ضمن نطاق خمسين ميلاً من مقاطعة يوكناباتاوفا. ثم لن يشنقونك؛ سوف يُرسلونك إلى الإصلاحية؛ قد لا يطول بك العمر إلى أنْ تنال إطلاق سراح مشروط ولكن على الأقلّ لن يتمكن آل غاوري من النيل منك هناك. هل تريد مني أنْ أمكث معك هنا هذه الليلة؟ "

قال لوكاس " لا أعتقد ذلك. لقد أبقوني يقظاً طوال ليلة أمس وسوف أحاول أنْ أنام قليلاً. وإذا مكثتَ هنا فسوف تبقى تتكلّم حتى الصباح "

قال خاله بخشونة " معك حق "، ثم إليه " هيا بنا: " وقد بدأ

بالتحرك نحو الباب. ثم توقف خاله. "هل ترغب في أي شيء؟"

قال لوكاس "يمكنك أنْ ترسل إليّ بعض التبغ. هذا إذا منحني آل غاوري الوقت لأدخّنه"

قال خاله "غداً. لا أريد أنْ أُبقيك يقظاً هذه الليلة: " واستأنف طريقه، يتبعه هو، وتركه خاله يمر من الباب أولاً بحيث أنه تنحّى جانباً بدوره ووقف ينظر خلفه إلى الزنزانة بينما اجتاز خاله الباب وجرّه خلفه، فغاص الفولاذ الثقيل مع دويّ في أُخدوده الفولاذيّ مع ضجيج زيتيّ سميك يدل على ختام لا رجعة عنه كيوم الدينونة المُطلق نفسه عندما كما قال خاله تقضي آلات الإنسان عليه وتمحوه عن وجه الأرض ثم، بعد أنْ تصبح وحدها بلا هدف وليس لديها ما تدمّره، تُغلِق آخر باب ذي أخدود صلب على مثلها الأعلى المُمجّد الفريد خلف قفل بلا عدّاد لا يستجيب إلا لآخر ضربات الأبدية، وخاله يُتابع طريقه، وقدماه يرنّ وقعهما ويتردّد صداه على طول الرواق ومن ثم القعقعة الحادة لبراجمه على باب السنديان بينما يتبادلان النظرات من خلال القضبان الفولاذية ، ولوكاس واقف في وسط المكان تحت النور وينظران إلى كائنٍ ما كان في وجهه حتى أنه ظنّ لبرهة أنَّ لوكاس قد تكلّم بصوت مرتفع. لكنه لم يفعل، لم يكن يُصدِر أي صوت؛ كان فقط ينظر إليه بذلك الإلحاح الصبور الأخرس إلى أنْ اقترب وطء قدميّ السجّان المكتوم أكثر فأكثر إلى أعلى الدَرَج والقضيب ذو الشق على الباب يعود مع صوت.

ومن جديد أقفل السجّان المزلاج وتجاوزا ليغيت الذي كان لا يزال على كرسيه المائل مع صحيفته الهزلية بجوار البندقية في مواجهة الباب المفتوح، ثم انتقلا إلى الخارج، إلى الممشى المؤدي إلى البوابة والشارع ، تبع خاله خلال البوابة حيث كان قد انعطف تواً نحو المنزل: توقف،

مفكّراً زنجيّ قاتل يُطلق النار على البيض في ظهورهم دون حتى أنْ يشعر بالأسف.

قال: " أعتقد أنني ساعثر على سكيتس ماكغرو يتسكع في مكان ما في الساحة. هو الذي يحمل مفتاح الصيدلية. سوف أحمل بعض التبغ إلى لوكاس هذه الليلة ". توقف خاله.

قال خاله " يمكن لهذا أنْ ينتظر حتى الصباح "

قال، شاعراً بأنّ خاله يراقبه، ليس فقط متسائلاً عما سيفعله إذا رفض خاله، لم يكن ينتظر حقاً، بل فقط واقفاً هناك.

قال خاله "حسن، لا تغِب طويلاً". وهكذا كان في استطاعته أنْ يذهب عندئذٍ. لكنه لم يفعل.

" حسِبتُ أنكَ قلتَ إنّ لا شيء سوف يحدث هذه الليلة "

قال خاله "لا زلتُ أعتقد هذا. ولكن مَنْ يدري. إنَّ أُناساً كآل غاوري لا يعتبرون الموت أو الاحتضار أمراً على قدر كبير من الأهمية. لكنهم ينظرون بكثير من الأهمية إلى الميّت أو كيف مات – خاصة إذا كان منهم. إذا حصلتَ على التبغ، دع تبس يحمله إليه وعُد أنتَ إلى المنزل".

إذن لم يكن مُضطراً إلى قول نعم هذه المرة، خاله انعطف أولاً ومن ثم انعطفَ هو بعده وسارا باتجاه الساحة، تابعا السير إلى أنْ توقف وقع قدميّ خاله، ثم توقف إلى أنْ تغيّر المسقط الجانبي الأسود لخاله إلى اللمعان الأبيض لبذلته الكتّانية ومن ثم بهُتَ هذا اللون إلى ما بعد آخر مصباح قوسيّ ولو أنه كان قد ذهب إلى المنزل وأحضر هايبوي حالما تعرّف إلى سيارة الشريف في صباح ذلك اليوم لمضى على ذلك ثماني ساعات ولقطع مسافة تكاد تبلغ أربعين ميلاً، ثم استدار حينئذٍ ومشى عائداً نحو البوابة وعينا ليغيت تراقبانه، بعد أنْ ميّزه من فوق الصحيفة

الهزلية حتى قبل أنْ يصل البوابة ولو أنه كان قد تابع طريقه لسار في الزقاق الكائن خلف السياج وعبر الأرض البور وسرجَ هايبوي وعاد أدراجه من خلال بوابة المرج وأعطى ظهره لجيفرسون والقتلة الزنوج وكل ذلك وأطلقَ عنان هايبوي لينطلق بأسرع ما يريد وإلى أبعد ما يريد أنْ يذهب حتى بعد أنْ تاله الإرهاق ووافق على المشي، ومع ذلك كان ذيله لا يزال متجهاً نحو جيفرسون والقتلة الزنوج: من جديد جاء السجّان مُسرعاً من خلال البوابة وعلى الممشى وعبر السرادق من خلال الباب إلى اليمين، وقد بدأ تعبير وجهه يُفسِح المجال لتعبير الحنق المنزعج.

قال السجّان " من جديد. ألا تكتفي أبداً؟ "

قال " لقد نسيتُ شيئاً "

قال السجّان " فلينتظر حتى الصباح "

قال ليغيت بتشدقه الرصين " دعه يدخل الآن. إذا ترك ذلك الشيء حتى الصباح فقد يدوس عليه أحدهم ". فالتفت السجّان؛ ومن جديد ارتقيا الدرج، ومن جديد فتح السجّان المزلاج في باب السنديان.

قال " لا عليك من فتح الباب الآخر. أستطيع أنْ أتصرّف من خلال القضبان: "، ولم ينتظر، أغلقَ الباب خلفه، وسمع المزلاج ينزلق عائداً إلى الشقّ ولكن كل ما كان عليه أنْ يفعل هو أنْ يربت عليه، وسمع قدميّ السجّان تبتعدان متراجعتين إلى أسفل الدَرَج ولكن حتى عندئذٍ كل ما كان عليه أنْ يفعل هو أنْ يهتف بصوت مرتفع ويضرب بقوة على الأرض وعلى أي حال سوف يسمعه ليغيت، وقال في نفسه قد يُذكّرني بطبق الملفوف ولحم الخاصرة أو لعله قد يُخبرني بأنه ليس لديه غيري، وكل ما تبقّى له وسيكون ذلك كافياً - مشي سريع، ثم الباب الفولاذي ولم يتحرك لوكاس، كان لا يزال واقفاً في وسط الزنزانة تحت الضوء، مراقباً الباب عندما اقترب منه وتوقف وقال بصوت

خشن كصوت خاله:

" حسن. ماذا تريد مني أنْ أفعل؟ "

قال لوكاس " اخرجْ وانظرْ إليه "

قال " أخرجُ إلى أين وأنظرُ إلام؟ ". لكنه فهم طبعاً. بدا له أنه كان يعرف طوال الوقت ما هو؛ قال في نفسه بشيء من الارتياح إذن هذا هو الأمر كله حتى بينما صوته الآليّ يصرُخ معبّراً عن عدم تصديق حانق: " أنا؟ أنا؟ " وكأنه أمرٌ يُثير الرعب والخوف ورواغ منذ سنين كأنها طوال حياتك، ثم على الرغم من كل شيء وقع لك و لم يكن إلا ألماً، وكل ما فعل هو أنه سبّب لك الأذى وهكذا انتهى، انتهى كل شيء، وبات كل شيء على ما يُرام.

قال لوكاس " سوف أدفع لك "

إذن لم يكن يُصغي، ولا حتى لصوته الخاص وسط حنق مذهول غير مُصدِّق: "أنا أخرج وأحفر ذلك القبر؟". لم يعُد حتى يفكر. إذن هذا ما سيُكلّفني طبق اللحم والخضار. لأنه كان قد تجاوز هذا منذ زمن بعيد عندما أبقاه ذلك الشيء - كائناً ما كان - هنا خمس دقائق وهو ينظر خلفه عبر الهوة الشاسعة، التي يكاد من المستحيل اجتيازها الممتدة بينه وبين الزنجي العجوز القاتل ورأى، سمعَ لوكاس يقول شيئاً له ليس لأنه كان هو نفسه، تشارلز ماليسون الصغير، ولا لأنه أكل طبق الخضار واستدفأ بالنار، بل لأنه هو وحده دون القوم البيض كلهم الذي كانت ستُتاح للوكاس الفرصة للتحدث معه بين الآن واللحظة التي قد يُجرّ فيها إلى خارج الزنزانة وأسفل الدَرَج ويُشنَق، سوف يسمع إلحاح عينيه اليائس الأخرس. قال:

"تعال إلى هنا". فعل لوكاس ذلك، مُقترباً، مُمسِكاً باثنين من القضبان كما يقفُ طفل داخل سياج. ولا تذكّرَ أنه فعل ذلك بل

أنه عندما نظر إلى أسفل رأى يديه هو تقبضان على القضيبين، زوجيّ الأيدي، السوداوين والبيضاوَين، تشدّان على القضيبين بينما هما يتواجهان فوقها. قال "حسن، لماذا؟"

قال لوكاس "اخرج وانظر إليه. إنْ كان الأوان قد فات لدى عودتك، سوف أوقّع لك الآن على ورقة تقول إنني أُدين إليك بالمبلغ الذي تراه مناسِباً"

ومع ذلك لم يكن يُصغي؛ كان يعرف ذلك؛ إلا لنفسه: " سوف أقطع سبعة عشر ميلاً هناك في الظلام - "

قال لوكاس " بل تسعة. آل غاوري يُدفنون في الكنيسة الاسكتلندية. خُذ المنعطف الأول إلى اليمين وارتق التلالَ التي تقع مباشرة خلف جسر فرع الميل التاسع. يمكنك أنْ تصل إلى هناك في غضون نصف ساعة بسيارة خالك "

" - أنا أُجازف بدفع آل غاوري إلى إلقاء القبض عليّ وأنا أحفر ذلك القبر. يجب أنْ أعرف السبب. إنني حتى لا أعرف عمّا أبحث. ولماذا "

قال لوكاس " عن مسدسي الكولت واحد وأربعين "، وهذا ما سيتّضح؛ الشيء الوحيد الذي لم يكن يعرفه هو العيار - ذلك السلاح صالح للعمل وفعّال ومُعتنى به ومع ذلك قديم وخاص وفريد من نوعه كما عود خِلال الأسنان الذهبي، ولعله كان (دون أدنى شك) فخر العجوز كاثرين ماكسلن قبل نصف قرن.

قال " حسن، ثم ماذا؟ "

" إنه لم يُمت بإطلاق النار عليه من مسدس كولت واحد وأربعين "

" بمَ أُطلِقَ عليه النار إذن؟ "

لم يُجِب لوكاس عن هذا السؤال، وهو واقف في مكانه إلى جوار الباب الفولاذي، ويداه تقبضان بلا شدّ وبلا إبداء أية حركة على القضيبين، لا يأتي بأية حركة لولا حركة تنفّسه الخفيفة. ولا توقّعَ من لوكاس أنْ يفعل وكان يعلم أنَّ لوكاس لن يُجيب أبداً عن ذلك، أو يُضيف أي شيء، أي شيء لأي رجل أبيض، وكان يعلم السبب، كما علِمَ لماذا انتظر لوكاس ليُخبِره، وهو الطفل، عن المسدس في حين أنه لم يُخبِر خاله ولا الشريف المُخوّل لفتح القبر ومعاينة الجثّة؛ لقد دُهِشَ لأنَّ لوكاس اقترب كثيراً من إخبار خاله عن الأمر وأدرك، بل حبَّذَ من جديد ذلك الرُقيّ في أسلوب خاله في جرّ الناس إلى إخبارِه بأمور لا يُخبرونها لأي شخص آخر، بل بإغواء الزنوج بإخباره بما تُحرِّم عليهم طبيعتهم إخباره للبيض: مُتذكِّراً إيفرايم العجوز وخاتم أمه في ذلك الصيف قبل خمسة أعوام - شيئاً رخيصاً مع حجر كريم مُقلّد؛ كانا اثنين في الواقع، متطابقين، كانت أمه وشريكتها في الغرفة في سويتبراير فيرجينيا قد وفرتا مُخصصاتهما واشترتاه وتبادلتاه لتضعانه حتى الممات كما تفعل الفتيات الصغيرات، وكبرت شريكتها في الغرفة وهي تعيش الآن في كاليفورنيا مع ابنتها في سويتبراير وهي وأمه لم تشاهد إحداهما الأخرى منذ سنين عديدة وقد لا تريان إحداهما الأخرى مرة أخرى ومع ذلك لا تزال أمها تحتفظ بالخاتم: وذات يوم اختفى؛ وتذكّرَ كيف كان يستيقظ ليلاً ويرى أضواءً تتلألأ في الطابق السُفلي فيعلَم أنها لا تزال تفتش عنه: وطوال ذلك الوقت كله كان إيفرايم جالساً على الكرسي الهزّاز المصنوع في المنزل في السرادق الأمامي لمنزل بارالي إلى أنْ أخبره إيفرايم ذات يوم بذلك مقابل نصف دولار وبعد ظهيرة ذلك اليوم غادر لقضاء أسبوع في مخيّم للكشّافة وعاد فوجد أمّه في المطبخ وقد فرشت أوراق صُحُف على الطاولة وأفرغت وعاء الأحجار الكريمة الذي كانت هي وبارالي تحتفظان فيه بدقيق الذرة عليها وكانت هي وبارالي تفتشان داخل الدقيق باستخدام الشوك وللمرة الأولى منذ أسبوع تذكّر الخاتم وعاد إلى منزل بارالي فوجد إيفرايم جالساً هناك على الكرسي الهزّاز في السرادق فقال إيفرايم، " إنه تحت معلف الخنزير في مزرعة والدك: " ولم يكن إيفرايم في حاجة

حينئذٍ إلى إخباره كيف عثر عليه لأنه كان قد تذكَّرَ: السيدة داونز: وهي امرأة بيضاء عجوز كانت تعيش وحدها في منزل صغير تفوح منه رائحة تشبه رائحة وجار الثعلب على أطراف البلدة في مُستوطنة من منازل الزنوج، وكان الزنوج يترددون عليه باستمرار طوال النهار وفي معظم الليل دون أدنى شك: لم تكن فقط (وهذا لم تُخبره به بارالي التي كانت دائماً تبدو أنها لا تعلم أو على الأقلّ ليس لديها الوقت في تلك اللحظة للتحدث عنه، بل أليك ساندر) تقرأ الطالع وتفكّ السِحرِ بل وتعثر على الأشياء الضائعة: ولها أعطى النصف دولار وصَدَّقَ في الحال وبشكل مُطلَق أنَّ الخاتم قد تمّ العثور عليه بحيث أنه نسيَ تلك المرحلة على الفور وإلى الأبدِ و لم يُحرّك اهتمامه إلا السِمة الثانوية والنتيجة الطبيعية للشيء، قائلاً لإفرايم: " كنتَ تعلمُ طوال هذا الأسبوع مكانه و لم تُخبرهم؟ " فنظر إفرايم إليه قليلاً، وهو يهتز باستمرار وبهدوء ويمصّ غليونه البارد والمملوء بالرماد ومع كل اهتزاز يصدر صوت يشبه صوت أنبوب ربو صغير: " كان يجب أنْ أخبرُ أمك. لكنها كانت ستحتاج إلى مساعدة. لذلك انتظرتك. إنَّ الشبان والشابات لا يتكلمون. إنهم يُصغون. أما الرجل الذي في منتصف عمره كوالدك وخالك، فلا يُحسن الإصغاء. ليس لديه الوقت. إنه مشغول مع القذرين. في الواقع، يجب أنْ تضع هذا في ذهنك؛ سوف تحتاج إليه ذات يوم. إذا احتجتَ إلى إنجاز أي شيء خارج السياق العام، فلا تُضيّع وقتك مع الرجال؛ الجأ إلى النساء والأطفال لإنجازه ". وتذكّرَ ليس غضب والده بل حنقه الشديد، بل تبرّءه القاطع، ونقله كل شيء إلى عالم من المبدأ الأخلاقي المُحصّن المُعرّض للهجوم، وحتى خاله الذي حتى ذلك الحين كانت أقصى مشاكله أنه يُصدق الأشياء التي كان كل البالغين من الناس يشكون فيها لسبب وحيد هو أنها غير معقولة، بينما واصلتْ أمّه برصانة وعناد استعداداتها لكي تخرج إلى المزرعة التي لم تكن قد قامت بزيارتها منذ أكثر من عام وحتى والده لم يرها منذ أشهر قبل ضياع الخاتم وحتى خاله رفض أنْ يقود السيارة فقام والده بإستئجار سائق من المرأب وخرج هو وأمّه إلى المزرعة وبمساعدة المُشرِف عثروا تحت الجرن الذي تأكل منه الخنازير على

الخاتم. لكنَّ هذا الخاتم لم يكن شيئاً صغيراً باهتاً وبلا قيمة تم تبادله قبل عشرين عاماً بين فتاتين صغيرتين بل الموت بسبب عنف مُشين مارسه رجل سيموت ليس لأنه كان قاتلاً بل لأنَّ بشرته سوداء. ومع ذلك كان هذا كل ما سيُخبره به لوكاس وكان يعلم أنَّ هذا كل شيء؛ قال في نفسه فيما يُشبه الغضب العارم: أصدّق؟ أصدّق ماذا؟ لأنَّ لوكاس لم يكن حتى يطلب منه أنْ يُصدِّق أي شيء: لم يكن حتى يطلب معروفاً، أو يُناشد بيأسٍ للمرة الأخيرة إنسانيته وشفقته لكنه كان حتى ينوي أنْ يدفع له نقوداً شريطة ألا يكون السِعر مُغالياً فيه، ليقطع وحده مسافة سبعة عشر ميلاً في الظلام (كلا، بل تسعة؛ لقد تذكَّرَ على الأقلَ أنه سمعَ ذلك الآن) ويُجازِف بأنْ يُلقى القبض عليه وهو ينتهك حُرمة قبر أحد أفراد جماعة من الرجال على شفا أنْ يرتكبوا الاعتداء الوحشي الدموي الغاضب المطلَق، دون حتى أنْ يُخبروه السبب. ومع ذلك حاول من جديد، لأنه يعلم أنَّ لوكاس ليس فقط يعلم أنه سيفعل بل يعلم أنه يعرف الجواب الذي سيحصل عليه:

" بأي مُسدس أُطلِقَ النار عليه، يا لوكاس؟ " وحصل بالضبط على ما كان حتى لوكاس يتوقع:

قال لوكاس " سوف أدفع لك النقود. حدِّد أي ثمن معقول وسوف أدفعه "

أخذَ نَفَسَاً عميقاً ونفثه وهما يتواجهان من بين القضبان، وعينا الرجل العجوز الحسيرتان تراقبانه، بإبهام وسريّة. عندئذٍ لم يكونا مُستعجلين وقال في نفسه بهدوء إنه ليس فقط هزمني، بل لم يشك في الأمر لحظة واحدة. قال: " حسن، إنَّ نظري إليه لن يفيد في أي شيء، حتى وإنْ كان في استطاعتي أنْ أخبرك عن الطلقة. وها أنت تفهم المغزى. يجب أنْ أخرجه من القبر، أنْ أخرجه من تلك الحفرة قبل أنْ يُلقي آل غاوري القبض عليّ، وأذهب به إلى البلدة حيث يمكن للسيد هاملتون أنْ يُرسِل إلى ممفيس طالباً خبيراً يمكنه أنْ يُميِّز بين الطلقات ". تأمّل لوكاس، الرجل العجوز المتمسّك برفقٍ بالقضبان من داخل الزنزانة ولم يعُد ينظر إليه. أخذَ من جديد نَفَسَاً عميقاً. " لكنَّ الأمر

الأساسي هو أنْ نُخرِجه من التربة لكي يتمكن أحدٌ من مُعاينته قبل الـ... " ونظر إلى لوكاس. " يجب أنْ أذهب إلى هناك وأخرجه وأعود إلى البلدة قبل حلول منتصف الليل أو الواحدة صباحاً وربما حتى في منتصف الليل سيكون الأوان قد فات. لا أعلم كيف يمكن أنْ أفعل ذلك. لا أستطيع أنْ أفعله "

قال لوكاس " سوف أحاول أنْ أنتظر "

الفصل الرابع

عندما وصل البيت كانت هناك شاحنة بيك أب يبدو أنها مُستعملة ومتهالكة وفي حالة مُزرية متوقفة أمام المنزل عند حافة الطريق. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة بكثير؛ وكان من قبيل الصفقة الجيدة أكثر منه احتمال أنه لم يتبقّ إلا أقلّ من أربع ساعات لكي يذهب خاله إلى منزل الشريف ويُقنعه ومن ثم يعثران على قاضٍ أو كائناً مَنْ يعثران عليه ويوقظانه ويُقنعانه بفتح القبر (عوضاً عن أخذ الإذن من آل غاوري، الذي لأي سببٍ من الأسباب، وأسوأ ما فيه إنقاذ زنجي من حرقه بمحرقة، لن يتمكّن رئيس الولايات المتحدة نفسه ناهيك عن شريف مقاطعة من الحصول عليه) ومن ثم يذهبون إلى الكنيسة الاسكتلندية ويستخرجون الجثّة ويعودون بها إلى البلدة في الوقت المناسب. ولكن في هذه الليلة من دون الليالي كلها سوف يأتي مزارع حجز أحد الجيران بقرته او بغله أو خنزيره الشارد ويُصرّ على ألا يُطلقه إلا بعد أنْ يجبي رسماً مقداره دولار واحد، لكي يُقابل خاله، ليجلس مدة ساعة في غرفة مكتب خاله قائلاً نعم أو لا أو أعتقد ليس بينما خاله يتحدث عن المحاصيل أو في السياسة، لا يعرف خاله عن أحد الموضوعَين أي شيء والآخر لا يعرف المزارع عنه أي شيء، إلى أنْ يتوصّل الرجل إلى الإفصاح عن سبب مجيئه.

لكنه الآن لم يتمكن من مواصلة الشعائر. كان يسير بخُطى سريعة جداً منذ أنْ غادر السجن لكنه أصبح يخبّ خباً، أسفل المُنعطف وعبر المرج، متوجهاً إلى السُرادق وعبره إلى الرواق مروراً بالمكتبة حيث سيكون والده لا يزال جالساً تحت أحد مصابيح القراءة مع صفحة حل

الكلمات المتقاطعة في نسخة يوم الأحد من صحيفة ممفيس وأمه تحت مصباح آخر مع كتاب جديد من كتب الشهر، وفي الخلفية لما تعوّدتْ الأم أنْ تحاول أنْ تسميه غرفة دراسة كيفين لكنّ بارالي وألك ساندر أعادا تسميته منذ زمن طويل بغرفة المكتب لذلك كان الجميع يُسمونه هكذا. كان الباب مُغلقاً؛ استطاع أنْ يسمع غمغمة صوت الرجل من خلفه خلال اللحظة التي قرع خلالها مرّتين دون توقف وفي الوقت نفسه فُتحَ الباب ودخل، وقد باشر على الفور بقول:

" مساء الخير، يا سيدي. عُذراً. خالي كيفين - "

لأنَّ الصوت كان صوت خاله؛ جلس خلف طاولة الكتابة قبالة خاله، وبدل أنْ يجد رجلاً بعنق حليق لفحته أشعة الشمس ويرتدي بذلة يوم أحد بلا ربطة عنق وبنطلون، كانت امرأة بثوب قطني بسيط مطبوع وتعتمرُ قبعة سوداء مستديرة تبدو مُغبرّة قليلاً على قمة رأسها كالتي كانت جدّته تعتمرها ثم تعرّفَ عليها حتى قبل أنْ يرى ساعة اليد - الصغيرة الذهبية داخل علبة الصيادين مُعلّقة من دبوس ذهبي على صدرها المُسطّح فوق موقع القلب مُثبّتة على صدر الثوب المُحاط بالكنفا - لأنه منذ وفاة جدّته لم تضع أي من النساء اللواتي عرفهن أو تمتلك واحدة مثلها وفي الواقع كان ينبغي أنْ يتعرّف على شاحنة البيك أب: إنها الآنسة هابرشام، الذي كان اسمها هو أقدم ما تبقّى في المقاطعة. وذات يوم كان هناك ثلاثة: الدكتور هابرشام وصاحب حان اسمه هولستون وابن هيوغونوت الأصغر اسمه غرينيه كان قد أتى إلى المقاطعة على صهوة جواد قبل أنْ تُمسَح حدودها وتُعيّن وتُسمّى، عندما كانت جيفرسون هي مركز تجاري في تشيكاسو وتحمل اسم تشيكاسو تمييزاً لها عن برية من قصب الخيزران لا يصل إليها أي درب وغابة في ذلك الوقت لكنَّ هذا كله اندثر، اختفى ما عدا واحدة من ذكريات المقاطعة الشفوية: هولستون كمجرد اسم فندق يشرف على

الساحة لا تعرفه إلا قلة في المقاطعة أو تأبه بمعرفة أصل الكلمة، وآخر سلالة لويس غرينييه الأنيق، المُحبّ للفنون، المهندس المعماري الذي تلقّى تعليمه في باريس وكان قد مارس قليلاً مهنة المُحاماة لكنه أمضى مُعظم وقته كمزارع وكرسّام (كان هاوياً أكثر في زراعة المحاصيل الغذائية والقطن منه في استعمال اللوحة والفرشاة) والآن يدفئ عِظام رجل في منتصف العمر رصين ومرِح صاحب تفكير ووجه طفل عاش في شيء وسط بين السقيفة والوكر بناه بنفسه من ألواح خشبية منبوذة وقِطعٍ من مدخنة مفرودة وعلب تنك على ضفة نهر يبعُد مسافة عشرين ميلاً، لم يكن يعرف كم عمره ولا يُحسن كتابة حتى لوني غريناب كما كان يُسمّي نفسه ولم يكن يعلم أنَّ الأرض التي كان يجثم عليها هي آخر قطعة صغيرة ضائعة من آلاف الإكرات التي كان أسلافه يُهيمنون عليها ولم يتبقَ منهم غير الآنسة هابرشام: عانس بلا أقارب في السبعين تعيش في منزل مُعمَّد على طراز المُستعمرات على أطراف البلدة لم يُدهن منذ وفاة والدها ولم يكن مُزوّداً بالماء ولا بالكهرباء، مع زوج من الزنوج (وهنا أيضاً ألحّ شيء لبرهة على ذهنها وعلى انتباهها ولكنه زال في اللحظة نفسها، لم تطرده: فقط زال) يُقيمان في كوخ في الفناء الخلفي، وكانت (أي الزوجة) تطبخ بينما كانت الآنسة هابرشام والرجل يقومان بتربية الدجاج وزراعة الخضروات ويبيعانها في أرجاء البلدة من شاحنة البيك أب. وكانا حتى قبل عامين يستخدمان حصاناً عجوزاً أبيض ممتلئاً (قيل إنَّ عمره كان عشرين عاماً عندما تذكّره للمرة الأولى، ذا جلد نظيف ووردّي اللون تحت شعره الأبيض الصقيل كبشرة طفل) لجرّ عربة خفيفة. ثم كان أحد المواسم جيداً أو ما شابه فاشترت الآنسة هابرشام شاحنة البيك أب مُستعملة وأصبحا يُشاهدان في صباح كل يوم صيفاً وشتاءً يجوبان الشوارع من منزل إلى آخر، الآنسة هابرشام على المقود مرتدية جوارب قطنية وتعتمر قبعة سوداء مستديرة ظلّتْ تضعها طوال على

الأقلّ أربعين عاماً وترتدي الثوب النظيف المطبوع الذي في وسعك أنْ تشاهده في كاتالوغ محلات سيرز روبك وثمنه دولاران وثمانية وتسعون سنتاً وساعة الجيب الذهبية الصغيرة والأنيقة مُثبّتة بدبوس على الصدر المُسطّح الخالي من الثديين وتنتعل الحذاء وتلبس القفاز اللذين قالت أمه إنهما صُنعا على مقاسها في أحد محلات نيويورك وكلّفَ الأول ثلاثين دولاراً وأربعين سنتاً للزوج والآخر خمسة عشر دولاراً وعشرين سنتاً، بينما كان الرجل الزنجي يُهرول ببطنه الكبير داخلاً وخارجاً من المنازل حاملاً سلة مملوءة بالخضار الطازجة أو البيض بيد وذبائح الدجاج العارية منتوفة الريش بالأخرى - تعرّفَ عليها، وتذكّرها، بل وألحّ ذلك عليه (انتباهه) وطرده على الفور لأنه لم يكن لديه وقت يُبدده، قائلاً بسرعة:

" مساء الخير، آنسة هابرشام . عُذراً. يجب أنْ أتحدث مع الخال غافن: " ثم قال من جديد لخاله: " خالي غافن - "

قال خاله بسرعة وفي الحال، " وكذلك تريد الآنسة هابرشام "، بنبرة صوت كان يمكن في الأوقات العادية أنْ يتعرّفَ عليها على الفور؛ في المعتاد كان في إمكانه حتى أنْ يفهم المغزى الضمني لِما قاله خاله. ولكن ليس الآن. في الواقع هو لم يسمع ما قال. لم يكن مُصغياً. في الحقيقة هو نفسه لم يكن لديه الوقت ليتكلّم، قائلاً بسرعة ولكن أيضاً بهدوء، فقط بالحاح وحتى متوجهاً بكلامه إلى خاله فقط لأنه كان قد نسيَ أمر الآنسة هابرشام، وحتى حضورها:

" يجب أنْ أتحدث معك: " عندئذ فقط سكتَ ليس لأنه أنهى كلامه، إذ لم يكن حتى قد بدأ، بل لأنه للمرة الأولى سمعَ خاله الذي لم يكن حتى قد سكت، وهو جالس بشكل جانبيّ قليلاً على الكرسي، وإحدى ذراعيه ممدودة على ظهره والأخرى تحمل غليون الحجر المُشتعل على الطاولة أمامه، ولا زال يتكلّم بذلك الصوت

كصوت التك الكسول لمفتاح كهرباء لدن:

" إذن حملْتَه بنفسك إليه. أو ربما حتى لم تزعج نفسك بحمل التبغ. وحكى لك حكاية. آمل أنها كانت مُسليّة "

وكان ذلك كل شيء. أصبح في استطاعته أنْ يواصل كلامه، بل كان عليه أنْ يفعل. ففي ذلك الموقف ما كان ينبغي أبداً أنْ يتوقف وهو يقطع الرواق أو حتى أنْ يلج المنزل أصلاً بل أنْ يدور حوله حيث يمكنه أنْ يتصل بالك ساندر وهو في طريقه إلى الاسطبل؛ كان لوكاس قد أخبره بهذا قبل ثلاثين دقيقة في السجن عندما حتى هو فهم لب الموضوع حتى وهو قريب من آل غاوري وجد أنَّ من الأفضل أنْ يُحاول أنْ يُخبر خاله أو أي رجل أبيض. ومع ذلك لم يتحرّك. كان قد نسيَ أمر الآنسة هابرشام. صرفها من انتباهه؛ كان قد قال " عُذراً " وبهذا جعلها تختفي ليس فقط من الغرفة بل من اللحظة كما يُخفي الساحر بكلمة واحدة أو بإيماء شجرة النخيل أو الأرنب أو وعاء الورد ولم يبقَ غيرهم، ثلاثتهم: هو عند الباب ولا يزال يُمسك به، نصفه داخل الغرفة التي لم يكن في الواقع قد ولجها وما كان ينبغي حتى أنْ يصل إلى ذلك المدى ونصفه الآخر خارجه في الرواق الذي ما كان ينبغي أنْ يُبدِّد الوقت في اجتيازه أصلاً، وخاله شبه مُتمدِّد خلف الطاولة التي تتبعثر عليها الأوراق أيضاً وإبريق آخر من أباريق البيرة الألمانية مملوء بقطع الأوراق وربما بعدد من غلايين عرانيس الذُرة مرت بمراحل مختلفة من التفحُّم، وعلى بُعد نصف ميل كان زنجي وحيد بلا أقارب، بلا أصدقاء، مُتغطرس مُتشبّث برأيه عنيد حرون مُستقلّ (ووقح أيضاً) في زنزانة حيث قد يكون أول صوت مألوف يسمعه هو صوت العجوز الأكتع نَبْ غاوري في الرواق السُفلي يقول، " ابعِد عن الطريق، يا ويل ليغيت. لقد أتينا لنأخذ الزنجي "، بينما خارج الغرفة الهادئة المُضاءة بمصباح يهدر سيل الزمن الشاسع ليس نحو

منتصف الليل بل جارفاً منتصف الليل معه، ليس لكي يُطيح بمنتصف الليل ويُحطّمه بل ليُطيح بحُطام منتصف الليل ويرميهم به بحركة واحدة متوازنة تشوّه صفحة السماء؛ وبات يعلم الآن أنَّ اللحظة التي لا يمكن استعادتها لم تكن عندما قال " حسن " للوكاس من خلال باب الزنزانة الفولاذي بل عندما سيتراجع داخل الرواق ويُغلقه خلفه. لذلك حاول من جديد، ولا يزال هادئاً، وليس حتى بسرعة هذه المرة، ولا حتى بإلحاح: فقط بأقصى ما يمكن من جلاء وعقلانية:

" لنفترِض أنَّ المُسدس الذي قُتِلَ به ليس مُسدّسه "

قال خاله " طبعاً، هذا ما سأدّعي لو كنتُ في مكان لوكاس – أو أي زنجي آخر قاتل في هذا الأمر أو أي قاتل أبيض جاهل في المسألة نفسها. لعله أخبرك حتى علامَ أطلقَ من مسدسه. علام؟ أعلى أرنب، أم ربما على علبة تنك أم على إشارة على شجرة فقط ليرى إنْ كان حقاً مُلقَّماً، إنْ كان حقاً سينطلق. ولكن دعنا من هذا. فلنُسلِّم بهذا الآن: ثم ماذا؟ ماذا تقترح؟ كلا؛ بل ماذا طلبَ منك لوكاس أنْ تفعل؟ "

بل إنه أجاب عن هذا السؤال: " ألا يستطيع السيد هامبتون أنْ يُخرِج الجثّة ليرى؟ "

" على أي أساس؟ لقد أُلقيَ القبض على لوكاس بعد إطلاق الرصاص بدقيقتين، وهو واقف فوق الجثّة وفي جيبه مسدس أُطلقَ منه عياراً حديثاً. وهو لم يُنكِر أنه أطلق الرصاص منه؛ في الحقيقة لقد رفض أنْ يُدلي بأي تعليق، ولا حتى لي، أنا مُحاميه – المحامي الذي قام هو نفسه باستدعائه. فكيف يُجازف به؟ إنني إذا طلبتُ من نَبْ غاوري أنْ ينبشَ جثّة أحد أبنائه الذي كان قد كُرِّسَ وصُليَ عليه كأنني أخرج وأُطلق النار على ابن آخر له. وإذا فرضنا وتماديتُ إلى هذه الدرجة، فإنني افضّل انْ أُخبره بأنني أريد أنْ انبش جثته لأستخرج

الذهب من أسنانه على أنْ أُخبره بأنَّ السبب هو لكي أُنقِذَ حياة زنجي من الشنق دون مُحاكمة "

قال " ولكن لنفترض - "

قال خاله بما يُشبه الصبر الضجِر ولكن لا يُقهَر: " اسمع، حاول أنْ تُصغي. إنَّ لوكاس مسجون خلف باب من الفولاذ الكتيم. وعليه أفضل حماية يمكن لهامبتون أو لأي شخص آخر في هذه المقاطعة أنْ يوفِّرها له. وكما قال ويل ليغيت، هناك في هذه المقاطعة ما يكفي من الناس لكي يمروا وبه وبتبس وحتى بذلك الباب إذا أرادوا. ولكن لا أعتقد أنَّ هناك كل ذلك العدد حقاً من الناس في هذه المقاطعة يريدون أنْ يُشنَق لوكاس من عمود الهاتف وتُضرَم فيه النار بالغازولين "

سمع للمرة الثالثة وبالضبط تقريباً ما كان قد سمع مرّتين في غضون اثنتي عشرة ساعة، ومن جديد تعجّبَ من نُدرة، بل في الواقع من الضآلة القياسية ليس للمفردات المفردة بل للمفردات ذاتها، التي بوساطتها يمكن حتى للرجل أنْ يعيش ضمن حشود وجماعات حتى في أحياء مكتظة بالسكان في وئام نسبيّ: حتى خاله يستطيع:

" افترِضْ إذن. كان ينبغي على لوكاس أنْ يفكّر في ذلك قبل أنْ يُطلق النار على رجل أبيض في ظهره " ولم يُدرك إلا لاحقاً أنَّ خاله كان يُخاطب الآنسة هابرشام أيضاً؛ في تلك اللحظة لم يكن يُعيد اكتشاف حضورها في الغرفة ولا حتى يكتشفه؛ إنه حتى لم يتذكّر أنها منذ تلك الحين لم يعُد لها وجود، مُستديراً، مُغلقاً الباب في وجه المظهر الخادع المُجرَّد من المغزى لصوت خاله: " لقد أخبرته ماذا ينبغي القيام به. لو كان سيحدث أي شيء، لقام به المجتمعون هناك، في المنزل، في أفنيتهم الخلفية؛ لما سمحوا للسيد هامبرتون بالوصول إلى البلدة معه. في الحقيقة، إنني لا زلت لا أفهم لماذا سمحوا له. ولكن سواء أكان

حُسن الحظ أم سوء الإدارة أم أنّ العجوز غاوري يناله الوهن مع تقدّمه في السن، فالنتيجة جيدة؛ إنه على ما يُرام الآن وسوف أقوم بإقناعه بالاعتراف بجرم القتل؛ إنه عجوز وأعتقد أنّ محامي المنطقة سوف يقبل به. سوف يودَع الإصلاحية وربما بعد بضع سنوات إذا عاش حتى ذلك الحين - " وأغلقَ الباب، هو الذي سبق له أنْ سمع ذلك كله ولن يسمعه ثانية، خارجاً من الغرفة التي لم يلجها بشكل كامل على أية حال وما كان ينبغي أبداً أنْ يتوقف عنده، مُحرراً أُكرة الباب للمرة الأولى منذ أنْ وضع يده عليها ومُفكّراً بالصبر المسعور الشديد لرجل داخل بيت يحترق مُحاولاً أنْ يجمع حبّات مُسبحة انفرط عقدها؛ الآن سوف أُضطر إلى قطع مسافة العودة إلى السجن سيراً على الأقدام لكي أسال لوكاس عن مكان وجود القبر: مُدركاً كيف أنّ احتماليّة لوكاس تنطوي على شكوك وكل شيء آخر وتوقّعَ في الواقع على العكس أنْ يتولّى خاله والشريف الأمر ويقومان بالحملة، ليس لأنه اعتقد أنهما سوف يُصدقانه بل ببساطة لأنه ببساطة لم يستطع أنْ يفهم أنْ يَتْرَك هو وألك ساندر مع الأمر: إلى أنْ تذكّر أنّ لوكاس اهتم بهذا أيضاً، وتنبّأ به أيضاً، متذكراً من دون ارتياح بل بفورة جديدة من الحنق والغضب تتجاوز حتى تصوّره الخاص لمقدرته كيف أنّ لوكاس ليس فقط أخبره بما يُريد بل عن مكان وجوده بالضبط وحتى كيف يصل إلى هناك وعندئذٍ فقط وكفكرة متاخّرة ساله إنْ كان يود ذلك - وهو يسمع قعقعة الورقة في حجر والده من خلف باب المكتبة ويشمّ رائحة السيجار يحترق على المنفضة عند يده ومن ثم شاهد خصلة الدخان الزرقاء تطفو ببطء خارجة من الباب المفتوح بما أنّه لابد أنّ والده رفعه خلال فترة مُرادفة أو انفعال مفاجئ ونفخه مرة: وأيضاً (متذكراً) حتى بأية وسيلة يذهب إلى هناك ويعود وتخيّل نفسه يفتح الباب من جديد ويقول لخاله: انسَ أمر لوكاس. فقط أعرني سيارتك ومن ثم يمشي إلى المكتبة ويقول لوالده الذي يحتفظ بمفاتيح سيارتهم في جيبه إلى

أنْ يتذكّر عندما يخلع ملابسه أنْ يتركها حيث يمكن لأمه أنْ تجدها غداً: دعني أحتفظ بالمفاتيح، يا أبي. أريد أنْ أهرع إلى الريف وأنبش القبر؛ بل لقد تذكّر شاحنة الآنسة هابرِشاك اليبك أب المتوقفة عند الباب (ليس الآنسة هابرشام؛ إنه لم يفكر فيها من جديد. لقد تذكّر فقط وسيلة نقل بمُحرك جاثمة خالية ومن الواضح أنه لا يُلاحظها أحد في الشارع على بُعد مسافة لا تزيد عن خمسين ياردة)؛ لعل المفتاح لا زال، وربما كان، في مكانه في السيارة وغاوري الذي قبض عليه يسرق قبر ابنه أو أخيه أو قريبه قد يقبض عليه أيضاً وهو يسرق السيارة.

لأنه أدرك (وهو يخرج يتخلّى يظهر من بعثرته بحركة واحدة دوامة من الورق الملون من الطرافة الحانقة) أنه لم يشكّ أبداً في ذهابه إلى هناك من دون أنْ ينبش الجثّة. تخيّل نفسه يصل إلى الكنيسة، ثم إلى فناء المقبرة من دون بذل جهد أو مرور زمن طويل؛ تخيل نفسه ينبش الجثة وحده وأيضاً دون بذل أي جهد، بلا لهاث أو اي إرهاق للعضلات أو للرئتين ولا لتمزُّق للحساسيات المنكمشة. عندئذٍ فقط أخذ منتصف الليل المُحطّم والمتقوّض الذي يُحدِّق ويلهث على الرغم من أنَّ هو كان يودّ لو أنه لم يرَ الماضي وما خلفه، ينهار فوق رأسه. لذلك (تحرك: لم يكن قد توقف منذ الجزء الأول من اللحظة الأولى بينما كان يُغلِق باب غرفة المكتب) انهمك بجسمه دفعة واحدة في ما يُشبه العقلانية الصرف لعملية حسابية حانقة، وحصافة هادئة وعقلانية يائسة ليس للمحاسن والمساوئ لأنه لم تكن هناك محاسن: إنَّ السبب في ذهابه إلى هناك يعود إلى أنه كان لابد لأحد أنْ يفعل ذلك وليس هناك شخص آخر يقوم به والسبب في أنَّ على أحدهم أنْ يفعل هو أنه حتى الشريف هامبتون (انظر إلى بيل ليغيت والبندقية الموضوعة في الرواق السفلي من السجن وكأنما على خشبة مسرح مُضاءة حيث أي شخص يقترب سوف يراه أو يراهما حتى قبل أنْ يبلغ البوابة) كان مُقتنعاً تمام الاقتناع بأنَّ آل غاوري وأقرباءهم وأصدقاءهم لن يُحاولوا

أنْ يُخرِجوا لوكاس من السجن هذه الليلة وهكذا إذا كانوا جميعاً في البلدة في هذه الليلة يحاولون أنْ يعدموا لوكاس بلا محاكمة فلن يراه أحد يحفر القبر وإذا كانت هذه حقيقة صلبة فإنَّ عكسها صلب أيضاً: إذا لم يكونوا في البلدة ليحموا لوكاس هذه الليلة فإنَّ أياً من الرجال والفتية الخمسين أو المائة الذين يرتبطون بصِلة مباشرة بالدم أو أنهم يشتركون في صيد الثعالب وفي صناعة الويسكي أو في المتاجرة بخشب الصنوبر يمكن انْ يتعثّر به وبألك ساندر: وهذا أيضاً، هذا من جديد: يجب أنْ يذهب على صهوة جواد للسبب نفسه: لأنَّ لا أحد آخر سوف يقبل فتى في السابعة عشرة لا يملك من متاع الدنيا غير حصان بل وعليه أنْ يختار هنا: إما أنْ يذهب وحده على صهوة جواد ليصل بنصف المدّة ويقضي ثلاثة أضعاف الوقت في نبش الجثة وحده لأنه وحده لن يُضطر فقط إلى القيام بالحفر كله بل وبالحراسة وبالإصغاء أيضاً، أو أنْ يصطحب معه ألك ساندر (كان هو وألك ساندر قد قطعا ذلك المشوار من قبل على صهوة هايبوي وعلى مدى أكثر من عشرة أميال – وهو حصان كبير مخصي ونحيل تحمَّلَ عشرة بارات حتى تحت مائة وخمسة وسبعين رطلاً بخبب بطيء ثابت حتى وهو يحمل شخصين في نزهة طويلة من الخبب المُتعِب ما عدا أنَّ حتى ألك ساندر لم يستطع أنْ يتحمل الرحلة طويلاً خلف السرج ومن ثم بخُطى أقدام تتراوح بين الركض والمشي لا اسم لها استطاع أنْ يُحافظ عليها على امتداد أميال تحت كليهما، ألك ساندر خلفه خلال الميل الأول مهرولاً ثم وهو يخب بجوار الحصان متمسكاً بركاب الحث على مدى الميل التالي) وبذلك يُخرِج الجثّة في ثُلث الوقت مُجازفاً بإبقاء ألك ساندر في صُحبة لوكاس عندما يأتي آل غاوري مع الغازولين: وفجأة وجد نفسه يهرب عائداً داخل نثار الورق الملوّن تماماً كما يتراجع المرء عن الغوص أخيراً في الماء البارد، مفكّراً مُشاهداً سامعاً نفسه يُحاول أنْ يشرح ذلك للوكاس أيضاً:

يجب أنْ نستخدم الحصان. لا خيار لنا: وقال لوكاس:

كان في استطاعتك أنْ تعدمه من أجل السيارة: وقال هو:

كان سيرفض. ألا تفهم؟ ولم يكن فقط سيرفض، بل كان سيغلق الباب عليّ لكي لا أتمكن من المجيء إلى هناك، ناهيك عن أنه يمتلك حصاناً: وقال لوكاس:

حسن، حسن. إنني لا أنتقدك. فقبل كل شيء، ليس أنتَ مَنْ يريد آل غاوري أنْ يحرقوه - متقدماً على طول الرواق نحو الباب الخلفي: لقد أخطأ؛ ليس عندما قال لا بأس للوكاس من خلال القضبان الفولاذية وليس عندما عاد أدراجه على طول الرواق وأغلقَ باب غرفة المكتب خلفه، ولكن هنا كانت اللحظة التي لا يمكن إلغاؤها ولا سبيل إلى العودة عنها؛ يمكنه أنْ يتوقف هنا ولا يدعها تمرّ، ويترك حُطام منتصف الليل ينهار دون إحداث أذى أو عجز على تلك الجدران لأنها قوية، وسوف تتحمّل؛ إنها تشكّل منزلاً، أطول من الحطام، وأقوى من الخوف - حتى دون أنْ يتوقف، ولا حتى ينتابه الفضول ليتساءل إنْ كان ربما يجرؤ على التوقف، تاركاً ستارة الباب تنسدل بهدوء خلفه وهابطاً الدرَج ليخرج إلى دوامة شهر أيار الرقيق الغاضبة الكاسحة وليسير بسرعة الآن عابراً الفناء نحو الكوخ المُظلِم حيث لم تعد بارالي وألك ساندر نائمين كما حال كل الزنوج الأخرين ضمن مسافة ميل من البلدة هذه الليلة، وليسا حتى في السرير بل جالسان بهدوء في الظلام خلف الأبواب الموصدة والنوافذ المغلقة في انتظار أي صوت أية غمغمة غضبٍ وموتٍ أنْ ينفث ظلامَ الربيع: وتوقف وصفَّر الإشارة التي كانَ هو وألك يستخدمها كلٌّ مع الآخر منذ أنْ تعلَّما الصفير، مُحصياً اللحظات المنصرمة إلى أنْ تحل اللحظة لكي يُكررها، مفكّراً كيف أنه لو كانْ في مكان ألك ساندر لما خرج أيضاً من المنزل تلبية لصفير أي شخص هذه الليلة وإذا فجأة وبلا صوت وحتماً بلا

Twitter: @ketab_n

ضوء يكشفه من الخلف خرج ألك ساندر من الظلال، ماشياً، وقد أصبح تواً شديد القُرب في الظلام الخالي من ضوء القمر، أطول قليلاً مما ظنّ على الرغم من أنه لم يكن يفصِل بين عمريهما أكثر من بضعة أشهر: واقترب، دون حتى أنْ ينظر إليه بل تجاوزه، من فوق رأسه، نحو الساحة وكأنّ النظر يمكن أنْ يصنع مساراً عالياً ككرة البيسبول، من فوق الأشجار والشوارع والمنازل، ليسقط النظر على الساحة - ليس المنازل في الأفنية الظليلة والوجبات التي يرين عليها السلام والاستراحة والنوم الذي هو الختام والجائزة، بل الساحة: الصروح التي أُقيمتْ وخُصِّصتْ من أجل التجارة والحكومة وإصدار الحُكم والسجن حيث كافحت أهواء الإنسان وقاتلتْ ولأجلها كانت الراحة وموت النوم الصغير هما الختام والمهرَب والجائزة.

قال ألك ساندر " إذن لم يأتوا بعد ليأخذوا العجوز لوكاس "

قال " أهذا هو رأي قومك فيه أيضاً؟ "

قال ألك ساندر " وكذالك أنت. إنّ أمثال لوكاس يُسببون المشاكل للجميع "

" إذن يُستحسن أنْ تذهب إلى المكتب وتجلس مع الخال غافين بدل أنْ تصطحبني "

قال ألك ساندر " أصطحبك إلى أين؟ ". فأخبره، بصراحة فظّة وعارية، بأربع كلمات:

" لننبش جثّة فنسون غاوري ". لم يأتِ ألك ساندر بأية حركة، ولا يزال ينظر إلى ما بعد وفوق رأسه نحو الساحة. " لقد قال لوكاس إنّه لم يُقتَل بمُسدّسه "

بدأ ألك ساندر يضحك ولا يزال لا يأتي بأية حركة ، ليس بصوت

مرتفع وبلا مرح: فقط ضحك؛ وكرّر بالضبط ما كان خاله قد قاله تقريباً قبل دقيقة: قال ألك " وكذلك أنا "؟ قال هو " أنا؟ أخرجُ إلى هناك وأنبش جثة ذلك الرجل الأبيض؟ هل السيد غافين موجود في المكتب الآن أم أنني فقط أجلس هناك ريثما يأتي؟ "

قال " سوف يدفع لك لوكاس الأتعاب. هذا ما أخبرني به حتى قبل أنْ يُخبرني عن فحوى الأمر "

ضحك ألك ساندر، بلا مرح أو استهزاء أو أي شيء آخر؛ بنبرة خالية تماماً من أي شيء بقدر ما التنفُّس لا يحتوي إلا على التنفُّس. قال " أنا لستُ ثرياً، ولا أحتاج إلى المال "

قال " على الأقلّ سوف تسرج هايبوي بينما أفتش عن مصباح بطارية، هلا فعلت؟ أنت لستَ فخوراً كثيراً بشأن لوكاس حتى تفعل هذا، أليس كذلك؟ "

قال ألك ساندر، مُستديراً، " حتماً "

" واحضِرْ معولاً ورفشاً. وحبل الربط. سوف أحتاج إليه أيضاً "

قال ألك ساندر " سأفعل ". وسكتَ، والتفت نصف التفاتة. " كيف ستُحمّل المعول والرفش على ظهر هايبوي في حين أنه لا يُحب حتى أنْ يراك تُمسك الرسن بيديك؟ "

قال " لا أعلم " وتابع ألك ساندر سيرهَ والتفت خلفاً نحو المنزل وفكّر للوهلة الأولى أنّ خاله هو القادم بسرعة عند منعطف المنزل من الجزء الأمامي، ليس لأنه اعتقد بأنّ خاله قد يكون خمّنَ وتوقّع ما ينوي أنْ يفعل لأنه لم يفعل، فقد طرد خاله تلك الفكرة أيضاً في الحال وبشكل قاطع ليس فقط من خياله ومن إمكانية حدوثه أيضاً، بل لأنه لم يعُد يتذكّر أي شخص آخر يمكن أنْ يأتي وحتى بعد أنْ أدرك أنها

امرأة افترضَ أنها أمّه، حتى بعد أنْ كان ينبغي أنْ يُميِّز القبعة، وحتى اللحظة التي هتفت فيها الآنسة هابرشام باسمه وكان أول دافع لديه أنْ يخطو بسرعة وبهدوء عند منعطف المرأب، ومن هناك كان في استطاعته أنْ يصل إلى سياج الأرض البور الذي كان لا يزال غير مرئي ويجتازه ويتابع طريقه إلى الاسطبل وهكذا يخرج من بوابة المرج من دون المرور بالمنزل مرة أخرى على الإطلاق، بمصباح بطارية أو من دونه لكنّ الوقت كان قد تأخّر كثيراً: هتفت باسمه: " تشارلز: " بذلك الهمس المُلحاح المتوتر ثم اقتربت بسرعة وتوقفت في مواجهته، وهي تتكلّم بتلك الغمغمة السريعة المتوترة:

" ماذا قال لك؟ " هنا علِمَ ما الذي كان يلحّ على انتباهه وهو في غرفة مكتب خاله عندما تعرّفَ عليها ومن ثم في اللحظة التالية تلاشى: إنها العجوز مولي، زوجة لوكاس، التي كانت ابنة أحد عبيد الدكتور هابرشام، جدّ الآنسة هابرشام، وهي والآنسة هابرشام في سن واحدة، ولدتا في الأسبوع نفسه ورضعتا معاً من صدر والدة مولي ونشأتا معاً وكأنهما أختان من أم واحدة، كتوأم، تنامان في الغرفة نفسها، الفتاة البيضاء في سرير، والفتاة الزنجية في سرير ضيّق عند أسفله وظلتا كذلك إلى تزوجت مولي من لوكاس، ووقفت الآنسة هابرشام في كنيسة الزنوج كإشبينة أول أطفال مولي.

قال " قال إنه ليس مُسدسه "

قالت، ولا زالت تتكلّم بسرعة وبصوتٍ أصبح فيه الآن أكثر من مجرد الإلحاح " إذن لم يقتله "

قال " لا أعلم "

قالت " هراء. إذا لم يكن بمسدسه - "

قال " لا أعلم "

" يجب أنْ تعلم. أنتَ رأيته - تحدثت معه - "

قال " لا أعلم ". قالها بهدوء، بصوت خافت، بما يُشبه الدهشة غير المُصدِّقة وكأنه لم يُدرك إلا عندئذٍ ما وعد به، ما نوى: " ببساطة لا أعلم. ولا أزال لا أعلم. أنا فقط سأذهب إلى هناك... " توقف، ومات صوته. مرتْ برهة لحظة تذكّر خلالها أنه حتى كان ينبغي أنْ يتمنى لو يتذكّرها، الجملة الأخيرة الناقصة. على الرغم من أنّه ربما فات الأوان و لم تساعد نفسها إلا قليلاً بإنهائها الجملة اللازمة وفي أية لحظة الآن سوف تصرخ، تحتجّ، تهنف وتهدم المنزل كله فوق رأسه. ثم في اللحظة نفسها توقف عن تذكّرها. قالت:

" طبعاً ": غمغمة فورية وهدوء؛ ولنصف لحظة أخرى فكّر في أنها لم تفهم على الإطلاق ومن ثم في النصف الثاني نسيَ ذلك أيضاً، الاثنان يتواجهان دون تمييز بينهما في الظلام عبر الغمغمة السريعة والمتوترة: ومن ثم سمعَ صوته يتكلّم بالنبرة نفسها والعلوّ وهما الاثنان لا يتآمران بالضبط بل بالأحرى أشبه باثنين قبلا دون رجعة القيام بمناورة ليسا متأكِّدَين على الإطلاق من استطاعتهما أنْ يتعاملا معها: هما فقط سيُقاومانها: " إننا حتى لا نعلم أنه لم يكن مسدّسه. هو قال إنه ليس هو "

" نعم "

" هو لم يذكُر اسم صاحبه ولا ما إذا كان قد أطلق النار منه. إنه حتى لم يُخبرك أنه لم يُطلق النار منه. قال فقط إنه ليس مسدسه "

" نعم "

" وخالك أخبركَ هناك في غرفة مكتبه بأنّ هذا بالضبط ما سيقول، بل كل ما يستطيع أنْ يقول ". هو لم يُجِب بهذا. فلم يكن سؤالاً. ولا هي منحته وقتاً. قالت " حسن. والآن ما العمل؟ هل نعمل على معرفة

ما إذا كان ليس مُسدسه - أو كائناً ما كان ما قصد بقوله؟ أنْ نخرج إلى هناك ثم ماذا؟ "

أخبرها، بصراحة تامة كما أخبر ألك ساندر، بجلاء وبلاغة: " انظري إليه: " دون حتى أنْ يتوقف ليُفكِّر كيف أنه كان عليه هنا حتماً أنْ يتوقّع على الأقلّ شهقة. " نذهب إلى هناك وننبشه ونُحضره إلى البلدة إلى خبير في ثقوب طلقات النار ليتفحّص الثقب الذي أحدثته الطلقة فيه - "

قالت الآنسة هابرشام " نعم. طبعاً. حتماً لن يُخبر خالك. إنه زنجيّ وخالك رجل: " والآن أخذت الآنسة هابرشام بدورها تُكرر الكلام وتُعيد صياغته وقال في نفسه كيف أنّ الأمر لا يتعلّق بقلّة المفردات وشُحّها، بل لأنّ العنف المتعمّد في المقام الأول الذي يطمس إلغاء حياة إنسانية كان بحد ذاته غاية في البساطة ونهائيّ بحيث أنّ كثرة الكلام التي تكتنفه وتُحاصره وتعزله داخل تاريخ الإنسان يجب أنْ تكون بحكم الضرورة بسيطة وغير مُعقّدة أيضاً، مُكرّرة، حتى درجة الرتابة؛ وثانياً، وبصورة أرحب من هذا، بالإشارة إليه، لأنّ ما تُكرر قوله الآنسة هابرشام وتُعيد صياغته كان حقيقة بسيطة، وليس حتى واقعة ولذلك لم تكن هناك من حاجة إلى الكثير من التنويع والأصالة للتعبير عنه لأنّ الحقيقة عالميّة، ويجب أنْ تكون عالمية لتكون حقيقة وهكذا لم تكن هناك حاجة إلى الكثير منها من أجل إبقاء شيء ليس أكبر من أرض واحدة يتحرك وهكذا يمكن لأي شخص أنْ يعرف الحقيقة؛ وكل ما عليه أنْ يفعل هو فقط أنْ يركن، أنْ يتوقف، أنْ ينتظر: قالت " كان لوكاس يعلم أنّ الأمر يحتاج إلى طفل - أو امرأة عجوز مثلي: إلى شخص ليس مُهتماً بالاحتمال، يمتلك دليلاً. إنّ أمثال خالك والسيد هامبتون كان عليهم أنْ يكونوا رجالاً مدة طويلة جداً، ومنهمكين في العمل - أليس كذلك؟ اجلبه إلى البلدة حيث يمكن لشخص خبير

أنْ يتعرَّف إلى ثقب الرصاصة. لنفرض أنهم تفحصوه واكتشفوا أنها انطلقت من مسدس لوكاس؟ " و لم يُجِب عن هذا على الإطلاق، ولا هي انتظرتْ من جديد، قائلة، بعد أنْ التفتت: " سوف نحتاج إلى معول وإلى رفش. أنا معي مصباح بطارية في الشاحنة - "

قال " نحن؟ "

توقفت؛ قالت بصبر تقريباً: " إنه على بُعد خمسة عشر ميلاً من هنا - "

قال " بل عشرة "

" - القبر على عُمق ستة أقدام. الساعة تجاوزت الثامنة الآن وقد لا يكون أمامك إلا حتى منتصف الليل لتعود إلى البلدة في الوقت المناسب - " وقالت شيئاً آخر لكنه حتى لم يسمعه. بل لم يكن حتى يُصغي. لقد قال هو نفسه هذا للوكاس قبل فقط خمس عشرة دقيقة ولكن الآن فقط فهم ما قاله هو نفسه. لم يُدرك فداحة نيّته ولكن الخمول البسيط والضخامة المادية التي يستحيل التعامل معها لما كان يواجه إلا بعد أنْ سمع شخصاً آخر يبوح بها؛ قال بهدوء، مع ذهول يائس لا يُقهَر:

" من المستحيل تنفيذ ذلك "

قالت الآنسة هابرشام " كلا، والآن؟ "

قال " سيدتي؟ ماذا قلتِ؟ "

" قلت إنك لا تملك حتى سيارة "

" كنا سنذهب على متن حصان "

الآن قالت " نحن؟ "

" أنا وألك ساندر "

قالت " إذن سوف نُصبح ثلاثة. أحضر معولك ورفشك. سوف يبدؤون بالتساؤل في المنزل لِمَ لم يسمعوا مُحرّك سيارتي يدور " وتحركت من جديد.

قال " حاضر سيدتي. تابعي القيادة على طول الزقاق حتى بوابة المرج. سوف نقابلك هناك "

وهو أيضاً لم ينتظر. بينما كان يجتاز سياج الأرض البور سمع محرك الشاحنة يدور؛ وفي الحال رأى غُرَّة هاييوي في فوهة باب الاسطبل السوداء؛ هزَّ ألك ساندر حزام السرج المُثبَّت بإبزيم ليستقر في مكانه عبر الحافظة مع اقترابه. فكَّ الحبل المربوط عن حلقة الشكيمة قبل أنْ يتذكّر ويُعيد ربطها ويحلّ الطرف المقابل من حلقة الجدار وجعلها أنشوطة والعينان تعلوان رأس هاييوي وقاده إلى خارج المدخل وامتطاه.

قال ألك ساندر " خذ "، وهو يمدّ يده ليضع المعول والرفش لكنَّ هاييوي كان قد بدأ يرقص حتى قبل أنْ يراهما كما كان يفعل دائماً حتى عند مفتاح السياج فأرجعه إلى الخلف بقوة وثبّته بينما كان ألك ساندر يقول " " اثبتْ! " ووجّه لهاييوي صفعة قوية على كفله، وهو يضع المعول والرفش ويثبّتهما على عرض السرج ونجح في إرجاع هاييوي ليقف على حافريه ثانية أخرى، فترة كافية ليُحرر حافره من الركاب القريب لكي يضع ألك ساندر قدمه عليه، وهاييوي يتحرك عندئذٍ بقفزة طويلة تكاد تكون جامحة بينما ألك ساندر يرتفع نحو الأعلى إلى الخلف ولا يزال يحاول أنْ يركض إلى أنْ ثبّته من جديد بإحدى يديه، والمعول والرفش يثبان على السرج، وأداره عبر المرج نحو البوابة. قال ألك ساندر " ناولني الرفوش والمعاول اللعينة. هل أحضرتَ مصباح البطارية؟ "

قال " ولما تهتم؟ ". مدّ ألك ساندر يده الحرّة خلفه وتناول المعول والرفش؛ ومرة أخرى ولثانية من الزمن استطاع هايبوي أنْ يراهما في الواقع ولكن هذه المرة كانت يداه الاثنتان حرّتين ليُمسك بالشكيمة. " لن تذهب إلى أي مكان لتحتاج إلى مصباح بطارية. أنت قلت هذا "

كانا قد وصلا إلى البوابة تقريباً. واستطاع أنْ يرى الكتلة القاتمة للشاحنة المتوقفة أمام الطريق الباهت خلفها: أي، لقد صدّقَ أنه رآها لأنه كان يعلم أنها موجودة هناك. لكنّ ألك ساندر شاهدها في الواقع: وكان قادراً على الرؤية في الظلام كالحيوانات. حمل ألك ساندر المعول والرفش ولم تبقَ لديه يدٌ حرّة، ومع ذلك كانت لديه واحدة مدّها فجأة من جديد وأمسك اللجام خارج يديه ونخع هايبوي إلى الخلف ليربض وقال بهمس منخفض: " ما هذا؟ "

قال " إنها شاحنة الآنسة يونيس هابرشام. سوف ترافقنا. حرّره، اللعنة! " وهو ينتزع اللجام من ألك ساندر، الذي تركه الآن بسرعة كافية، قائلاً:

" سوف تأخذ الشاحنة: " دون حتى أنْ يترك المعول والرفش بل رماهما مع قعقعة وضجيج عند البوابة وانزلق هو نفسه مترجلاً وفي الوقت المناسب لأنّ هايبوي كان عندئذٍ يقفُ منتصباً على قائمتيه الخلفيتين إلى أنْ ضربه بقوة بين أُذنيه بالحبل المربوط على شكل أنشوطة.

قال " افتح البوابة "

قال ألك ساندر " لن نحتاج إلى الحصان. فكّ السرج والجمه هنا. سوف نُطعمه عندما نعود "

وهذا ما كانت الآنسة هابرشام قد قالته؛ وأخرجاه من البوابة ولا يزال هايبوي يمشي بانحراف ويضرب حوافره بينما ألك ساندر يضع المعول والرفش داخل الجزء الخلفي من الشاحنة وكأنه توقّع من ألك

ساندر أنْ يرميهما عليه هذه المرة، وصوت الآنسة هابرشام من داخل الشاحنة المُظلم:

" يبدو حصاناً جيداً. هل هو سريع أيضاً "

قال " نعم سيدتي ". قال " كلا، سوف آخذ الحصان أيضاً. إنَّ أقرب منزل يبعد مسافة ميل عن الكنيسة ولكن لا يزال من الممكن أنْ يسمع أحدهم هدير سيارة. سوف نترك الشاحنة في أسفل التل عندما نجتاز الطريق الفرعية " ثم أجاب عن هذا أيضاً قبل أنْ يُتاح لها أنْ تتكلَّم: " سوف نحتاج إلى الحصان لكي نحمله إلى الشاحنة "

قال ألك ساندر " هه ". لم يكن ضحكاً. ولكن لا أحد ظنّ أنه كذلك. " كيف تعتقد أنَّ ذلك الحصان سوف يحمل ما ستنبشانه وهو لا يريد أنْ يحمل الأدوات التي ستقومان بالحفر بها؟ " لكنه كان قد فكّر في هذا أيضاً، متذكّراً ما قاله جدّه عن الأيام الخوالي عندما كان في الإمكان صيد الغزال والدب والديك الرومي البري في مقاطعة يوكناباتاوفا ضمن مسافة اثنى عشر ميلاً من جيفرسون، وفي الصيادين: ميجور إسبانيا الذي كان أحد أقرباء جدّه والعجوز الجنرال كومبسون والعم أيك مكاسلين، والعم الأكبر لكاروثرز إدموندز، وكان لا يزال حياً في التسعين من العمر ، وبون هوغانبك الذي كانت جدّته لأمه من قبيلة تشيكاسو والزنجي سام فاذرز الذي كان والده رئيس قبيلة تشيكاسو، وبغل صيد ميجور إسبانيا الأعور المُسمّى أليس الذي لم يكن يخاف حتى من رائحة الدب وفكّر كيف أنه إذا كنتَ تمثّل خلاصة أجدادك فمن المؤسف أنَّ الأجداد الذين أنشؤوه لكي يُصبح نابشاً سرياً لقبور المقاطعة لم يُفكّروا في تزويده بسليل ذلك البغل الأعور الذي لا يخشى شيئاً لكي ينقل رعاياه.

قال " لا أعلم "

قالت الآنسة هابرشام " ربما مع عودتنا إلى الشاحنة سيكون قد علِم. هل يُحسن ألك ساندر القيادة؟ "

قال ألك ساندر " نعم يا سيدتي "

كان هايبوي لا يزال متوتراً؛ وعندما يهدأ يكتفي بإرسال الزبد دون توقف لذلك منذ أنْ هدأ هذه الليلة طوال الميل الأول بقيَ في الواقع يرى ضوء الشاحنة الخلفي. ثم أبطأ خطاه، أخذ الضوء يتلاشى ثم اختفى خلف المنعطف وجعل هايبوي في وضع خطوة مستقرة بين الركض والمشي لم يكن ليحظى باستحسان أي حكم في عرض لكنها كانت تقطع مسافة لا بأس بها؛ كان يجب قطع تسعة أميال وفكّرَ بما يُشبه التسلية المُخيفة في أنه أخيراً سيُتاح له الوقت للتفكير، التفكير في كيف أنه قد فات الأوان للتفكير الآن، لم يجروْ أي من الثلاثة على التفكير الآن، فإذا كانوا قد نفّذوا ولو شيئاً واحداً هذه الليلة فهو على الأقلّ نسيان كل تأمّل وتفكير منطقي وإلى الأبد؛ بعد خمسة أميال سيكون قد قطع (لعل هذا ما فعله تواً كلٌ من الآنسة هابرشام وألك ساندر في الشاحنة) خط المتاح غير المرئي الذي يُعيِّن حدود بيت فور: الشيء المشهور، الرائع تقريباً وحتماً أقلّ ما كان يجروْ أي منهم على التفكير فيه الآن، التفكير في كيف أنه لم يكن صعباً أبداً على أي شخص غريب أنْ يقوم بأمرين في وقت واحد لا يُحبهما أهل بيت فور بما أنَّ أهل بيت فور أصلاً لا يحبون معظم الأشياء التي لا يحبها مُعظم سكان البلدة (وغالبية باقي سكان المقاطعة أيضاً في هذا الأمر): ولكن بقي أمامهم، شاب أبيض في السادسة عشرة وزنجي في السن نفسه وعانس بيضاء عجوز في السبعين أنْ يختاروا ويُنفّذوا في الوقت نفسه الأمرين معاً من بين مخزون الرجل الواسع كله من الابتكار والكفاءة الذي جدير بأهالي البيت فور أنْ يتبرّأوا منه ويثأروا بكل عنف: انتهاك قبر شخص من سلالتهم من أجل إنقاذ قاتل زنجي من انتقامها.

ولكن على الأقلّ سوف يحصلون على بعض التحذير (دون أنْ يُفكروا فيمَن سيُساعد التحذير بما أنهم الذين يتلقّون التحذير كانوا قد أصبحوا بعيدين عن السجن مسافة ستة أميال أو سبعة ولا زالوا يبتعدون عنه بأقصى قدرته على حثّ الحصان) لأنه إذا كان أهالي البيت فور قادمون هذه الليلة فعليه أنْ يبدأ بالمرور بهم قريباً (أو هم يمرون به) - السيارات المتهالكة المُلطّخة بالطين، والشاحنات الفارغة من أجل نقل الماشية وجذوع الخشب، والجياد والبغال المسروجة. ومع ذلك حتى الآن لم يمر بأحد منذ أنْ غادر البلدة؛ امتدت الطريق شاحبة وخالية أمامه وخلفه أيضاً؛ المنازل المُعتمة والأكواخ الجاثمة أو المُبهمة على جانبها، الأرض القاتمة تمتد بعيداً داخل الظلام المُثقل برائحة التربة المحروثة وبين حين وآخر هناك الرائحة القوية للأشجار المُزهرة المنتشرة عبر الطريق تنتظر أنْ يخترقها كجدائل الدخان الراكد لذلك لعلهم يُحققون زمناً أفضل حتى مما كان هو يأمل في تحقيقه وقبل أنْ يتمكن من إيقافه قال في نفسه لعلنا نستطيع، لعلنا نستطيع مع ذلك؛ - قبل أنْ يتمكن من أنْ يثبّ ويقفز ويخنقه ويطمسه من تفكيره ليس لأنه لم يستطع أنْ يُصدّق حقاً أنّ في استطاعتهم أنْ يفعلوا وليس لأنك لا تجرؤ على التفكير بشكل كليّ حتى بينك وبين نفسك في كامل الأمل العزيز أو الأمنية ناهيك عن اليأس وإلا لقمتَ أنت نفسك بإعلان فشله بل لأنّ التفكير فيه وصياغته بكلمات حتى ولو لنفسك أشبه بعود ثقاب مقدوح لا يُبدّد الظلام بل فقط يُظهِر الرعب الكامن فيه - ومض واحد وتوهج ضعيفان يكشفان لبرهة من الزمن عدمَ الطريق الخالية والأرض المُظلمة والخالية الذي لا يمكن قهره أو تخفيفه.

لأنه - كانوا قد أشرفوا على الوصول الآن؛ وصل ألك ساندر والآنسة هابرشام قبل ربما ثلاثين دقيقة كاملة واستغرقَ منه لحظة ليأمل في أنْ يكون ألك ساندر قد فكّر قبل وقت كافٍ في أنْ يقود

الشاحنة بعيداً عن الطريق لكي لا يراها أي من المارّة، ثم في اللحظة نفسها أدرك أنه طبعاً فعل ألك ساندر ذلك و لم يكن شكه هو في ألك ساندر بل في نفسه في أنّه يشكّ حتى للحظة في ألك ساندر - لم يكن قد شاهد زنجياً منذ أنْ غادر البلدة ، وفي مثل تلك الساعة وهما معاً كان ينبغي أنْ يكون الطريق في انتظام كحبات الخرز - الرجال والصبايا والفتيات وحتى بضعة من الرجال والنساء العجائز وحتى الأطفال قبل أنْ يتأخّر الوقت، لكنهم في الغالب من الشبان العزّاب الذين انهمكوا منذ بداية يوم الاثنين الأخير في جزّ الأرض ودفع المحاريث المتمايلة والمترنحة خلف بغال مشدودة ومتوترة ثم عند ظهيرة يوم السبت اغتسلوا وحلقوا ذقونهم وارتدوا قمصان بنطلونات يوم الأحد النظيفة وطوال ليل السبت مشوا على الطرقات المُغبرّة وطوال يوم الأحد وطوال ليل الأحد سوف يمشون أيضاً بحيث بالكاد يتوفر وقت ليصلوا إلى المنزل ويبدّلوا ملابسهم ويرتدوا ملابس العمل وينتعلوا المداس ويُمسكوا بالبغال ويدفعونها وتمرّ ثمان وأربعون ساعة حتى من دون نوم ما عدا الفترة الوجيزة من الوقت تتضمن امرأة ويعودون إلى الحقل من جديد وتشقّ شفرة المحراث أخدوداً جديداً مع بزوغ فجر يوم الاثنين؛ ولكن ليس الآن، ليس في هذه الليلة: حيث لم يرَ أحداً في البلدة على مدى أربع وعشرين ساعة غير بارالي وألك ساندر لكنه كان يتوقع هذا، كانوا يتصرّفون بالضبط كما يتوقع الزنوج والبيض معاً أنْ يتصرّف الزنوج في مثل ذلك الوقت؛ كانوا لا يزالون هناك، لم يكونون قد هربوا، لكنك لم تكن تراهم - إنه إحساس شعور بحضورهم الدائم وقُربهم: رجال ونساء وأطفال سود يتنفسون وينتظرون داخل منازلهم المزودة بالقضبان وبشابيك موصدة المصاريع، ليسوا رابضين متذللين منكمشين، ليسوا غاضبين ولا خائفين بالضبط: فقط ينتظرون، يمكثون بما أنّ سلاحهم لا يستطيع البيض أنْ يُنافسوه ولا - ليته كان يعلم - حتى أنْ يتعاملوا معه: إنه

الصبر؛ فقط أنْ يبتعدوا عن الأنظار وعن الطريق - ولكن ليس هنا، لا وجود هنا لإحساس شعور بتجاور التجمعات الغفيرة، بحضور إنسانيّ قاتم رابض وغير مرئيّ؛ هذه الأرض كانت صحراء وشاهدة، وهذه الطريق الخالية هي شرطها الضروري (سوف يمرّ بعض الوقت قبل أنْ يُدرك مدى طول الشوط الذي قطع: إنه طفل من منطقة ريف مسيسيبي، عندما غربت شمس ذلك اليوم نفسه بدا أنه - وحتى هو صدَّقَ، شريطة أنْ يكون قد فكّر فيه أصلاً - لا يزال طفلاً مُقمّطاً وغير مُدرك في التراث الطويل لأرضه الأصليّة - أو في هذا الحالة هو جنين غير واع يُناضل بحد ذاته - لو كان واعياً لوجود أي آلام مبرحة - كان أعمى ومجرداً من الوعي وليس حتى يقظاً وسط نوبة بسيطة بلا ألم من الانبعاث) للانعطاف الدقيق وكأنما بظهر واحد لكامل الشعب الأسود الذي تأسس عليه اقتصاد الأرض نفسها، ليس بالحر والغضب ولا حتى بالندم بل بإنكار واحد صلب لا يُقهر ولا علاج له، ليس على الحنق العرقي بل على الخزي الإنسانيّ.

الآن هو هناك؛ وهايبوي موثق بل وبدأ يتقدّم قليلاً، حتى بعد تسعة أميال، يشم رائحة الماء والآن في استطاعته أنْ يتبيّن الجسر أو على الأقلّ فجوة ظلام أخفّ حيث يجتاز الطريقُ الظلامَ الكتيم لأشجار صفصاف تطوّق الطريق الفرعية ثم ظهر ألك ساندر من سياج الجسر؛ نخر هايبوي في وجهه ثم تعرّفَ عليه أيضاً، من دون دهشة، ولا حتى متذكراً كيف تساءل ذات مرة إنْ كان ألك ساندر قد تعمّد أنْ يُخفي الشاحنة، ولا حتى متذكراً أنه لم يتوقّع ما هو أقلّ، دون أنْ يتوقّف، متفحصاً ظهر هايبوي بعبور الجسر ومن ثم يُقدّم له رأسه لكي ينعطف عن الطريق بعد الجسر ويسقط مع نخع القوائم الأمامية إلى الأسفل نحو المياه وظل غير مرئيّ برهة أطول من استطاعته هو أيضاً أنْ يرى التموج اللامرئي عند تلاقيها مع السماء: إلى أنْ توقّف هايبوي وصهل من جديد ثم ارتفع فجأة عالياً مائلاً إلى الخلف وكاد يوقعه.

قال ألك ساندر " إنه يفوح برائحة الرمال المتحركة. دعه ينتظر إلى أنْ يصل إلى المنزل، على أية حال. افضّل أنْ أفعل أي شيء آخر غير ما افعله أيضاً "

لكنه أخذ هايبوي أبعد قليلاً إلى أسفل الضفة حيث يمكنه أنْ ينخفض نحو الماء ولكن من جديد اكتفى بالقيام بحركة مُخادعة وتراجع عائداً إلى الطريق وحرَّر الركاب من أجل ألك ساندر، وعندما امتطى ألك ساندر تحرك هايبوي من جديد. قال ألك ساندر " انتهينا " لكنه كان قد انطلق بهايبوي بعيداً عن الحصى إلى الدرب القذر والضيق متجهاً بزاوية حادة نحو الحافة التي تلوح سوداء من بعيد وتبدأ على الفور تقريباً بميلها الطويل عالياً نحو التلال على الرغم من أنه حتى قبل أنْ ترتفع كان عبق أشجار الصنوبر القوي الدائم يهبط عليهم من دون ريح تدفعه من الخلف ومع ذلك كان صلباً وقاسياً كيد، ملموساً على الجسد المتحرك كالماء. ازدادت حِدَّة الانحدار من تحت الحصان وحاول وهو يحمل ضعف الحمولة أنْ يركض عليه كعادته عند كل منحدر، مُستجمعاً قِواه ومندفعاً إلى أنْ كبح جماحه بحدّة وحتى حينئذٍ كان عليه أنْ يُمسك به بقوة ويُبقيه في خطوة غير مستقرة مترنحة قوية إلى أنْ تسطّح المستوى الأول من السهل وحتى عندما قال ألك ساندر " انتهينا " من جديد برزت الآنسة هابرشام من العتمة على حافة الطريق حاملة المعول والرفش. انزلق ألك ساندر مترجلاً بعد أنْ توقف هايبوي. وتبعها.

قالت الآنسة هابرشام " تابع السير. معي الأدوات ومصباح البطارية "

قال " بقي نصف ميل إلى أعلى التل. هذا ليس سرجاً جانبياً ولكن ربما تستطيعين أنْ تجلسي "، ثم قال لإلك ساندر " أين الشاحنة؟ "

قال ألك ساندر " خلف الشجيرات. نحن لسنا في استعراض. على الأقل أنا لست كذلك "

قالت الآنسة هابرشام " كلا، كلا، أستطيع أنْ أمشي "

فقال " سوف نوفر بعض الوقت. لابد أنَّ الساعة قد تجاوزتْ العاشرة. إنه لطيف. كان ذلك فقط عندما رمى ألك ساندر المعول والرفش – "

قالت الآنسة هابرشام " طبعاً ". وسلّمتْ الأدوات لألك ساندر واقتربتْ من الحصان.

قال " أنا آسف إنه ليس – "

قالت " هراء " وأخذتْ العنان منه وحتى قبل أنْ يتمكن من تقديم يديه لكي تضع قدمها عليهما وضعتها على الركاب وارتقتْ بخفةٍ وسرعةٍ كاللتين يتصف بهما هو أو ألك ساندر، وركبت صهوة الحصان بحيث بالكاد توفر لديه الوقت ليُشيح بوجهه، شاعراً بها تنظر نحو الأسفل في الظلام إلى رأسه المنحرف. قالت من جديد " هراء. أنا في السبعين من العمر. ثم، سوف نقلق بشأن ثوبي بعد أنْ ننتهي من الأمر " – مُحرّكة هايبوي بنفسها قبل أنْ يتوفر لديه الوقت للإمساك بالشكيمة، عائدة إلى الطريق عندما قال ألك ساندر:

" صمتاً " وتوقفوا، لا يأتون بأية حركة وسط تدفق أشجار الصنوبر المتواصل الطويل والخفي. قال ألك ساندر " ثمة بغل ينحدر على التل "

في الحال بدأ يُدير اتجاه الحصان. قالت الآنسة هابرشام " أنا لا اسمع اي شيء. أانت متأكّد؟ "

قال، وهو يُدير هايبوي بعيداً عن الدرب، " نعم يا سيدتي. إنَّ

ألك ساندر واثق " وبينما هو يقف عند رأس هايبوي بين الأشجار والشُجيرات، ويده الأخرى موضوعة على مِنخري الحصان تحسُّباً حتى إذا ما قرّر أنْ يصهل في وجه الحيوان الآخر، هو أيضاً سمعه - الحصان أو البغل المنحدر بخُطى ثابتة إلى الطريق من القمة. لعله غير مُنتعل؛ في الواقع إنَّ الصوت الوحيد الذي سمع كان صرير جلد مدبوغ وتساءل (دون أنْ يشك ولو للحظة في أنه سمعه) كيف سمعه ألك خلال الدقيقتين اللتين استغرقهما الحيوان للوصول إليهم. ثم رآه أو المكان الذي كان يمرّ بهم منه - كتلة، حركة، ظلاً أشدّ قتامة من الظل الذي يقع خلف القذارة الباهتة للطريق، منحدراً أسفل التل، وحفيف الخُطى الثابت على الأرض وصرير الجلد المدبوغ يتلاشيان بالتدريج، ثم يختفيان. لكنهم انتظروا برهة أخرى.

قال ألك ساندر " ما الذي كان يحمله أمامه على السرج؟ "

قال " إنني حتى لم أميِّز ما إذا كان الراكب رجلاً أم لا "

قالت الآنسة هابرشام " أنا لم أر أي شيء ". قاد الحصان عائداً إلى الطريق. قالت " لنفرض - "

قال " سوف يسمعه ألك ساندر في الوقت المناسب ". وهكذا بدأ هايبوي من جديد يجيش بخُطى ثابتة على الخندق الذي يزداد انحداراً، كان هو يحمل الرفش ويقبض بقوة على الجلد المدبوغ تحت ربلة ساق الآنسة هابرشام النحيلة والصلبة على أحد الجانبين وألك ساندر يحمل المعول على الجانب الآخر، مرتقياً، في الحقيقة كان يتحرك بسرعة كبيرة خلال الرائحة الحيّة والحيوية القوية المُسكِرة لأشجار الصنوبر التي كانت تؤثّر على الرئتين، على التنفُّس كتأثير (تخيُّل: إنه لم يتذوّقه أبداً. كان يمكن أنْ يفعل - الرشفة من كأس تناول القُربان غير محسوبة لأنها لم تكن فقط رشفة لكنها كريهة الطعم

ومُكرّسة وحادّة: إنَّ الدم الخالي من الموت لربّنا لا ينبغي تذوّقه، إنه يتحرك ليس نحو الأسفل إلى البطن بل نحو الأعلى والخارج داخل المعرفة كلها بين الخير والشر والاختيار والإنكار والقبول إلى الأبد - على المائدة في عيد الشُكر وعيد الميلاد لكنه أبداً لم يرغب) الخمر على المعدة. أصبحوا الآن في منطقة عالية جداً، الأرض التي تقع على الحافة تنفتح وتبتعد حتى الغياب داخل الظلام ولكن مع إحساس، الإحساس بالعلوّ وبالمسافة: في النهار كان يمكن أنْ يراها، حافة بعد حافة تكتظ بأشجار الصنوبر الممتدة نحو الشرق والشمال في تشابه للجبال الحقيقية في كارولاينا وقبل ذلك في اسكتلندا من حيث انحدر أسلافه لكنه لم يُشاهدها، والآن أصبحت أنفاسه تخرج أقصر قليلاً وأصبح ليس فقط يسمع بل يشعر أيضاً النفخات القوية والقصيرة التي تنبعث من رئتيّ هايبوي وهو يُحاول أنْ يركض على ذلك المنحدر أيضاً مع أنه يحمل شخصاً ويجرّ اثنين، والآنسة هابرشام تثبّته وتكبحه إلى أنْ وصلوا إلى القمة الحقيقية وقال ألك ساندر من جديد " انتهينا " وقامت الآنسة هابرشام بإبعاد الحصان عن الطريق لأنه كان لا يزال لا يستطيع أنْ يرى أي شيء إلا بعد أنْ خرجوا عن الطريق وعندئذٍ فقط استطاع أنْ يُميّز البقعة المكشوفة ليس لأنها مكشوفة بل لأن على هدى الشعاع الرفيع من ضياء النجوم برز، منحرفاً قليلاً حيث تغوص الأرض، لوح شاهد قبر من الرخام. وكاد لا يرى على الإطلاق الكنيسة (متهالكة، غير مدهونة، من الخشب وليست أكبر من غرفة واحدة) حتى عندما قاد هايبوي إلى الجهة الخلفية منه وربط العنان إلى شجيرة وفكّ الحبل عن الشكيمة وعاد إلى حيث كانت الآنسة هابرشام وألك ساندر ينتظران.

قال " سوف يكون القبر الوحيد الجديد. لقد قال لوكاس إنه لم يُدفَن أحد هنا منذ الشتاء الفائت "

قالت الآنسة هابرشام " نعم. والأزهار أيضاً. لقد عثر ألك ساندر عليها تواً ". ولكن لكي يتيقّن (فكر بهدوء، لم يكن يعلم لِمَنْ: سوف أرتكب الكثير من الأخطاء ولكن لن أدع هذا أحدها) غطّى مصباح البطارية بمنديله الملفوف بحيث لمس شعاع رفيع سريع للحظة الركام العشوائي بما عليه من أكاليل وباقات وحتى أزهار مفردة قليلة مُبعثرة ومن ثم للحظة أخرى لوح الشاهد المجاور له، الطويل بما يكفي بحيث يتبيّن ما حُفِرَ عليه: أماندا ووركيت زوجة ن. ب فوريست غاوري ١٨٧٨- ١٩٢٦ ثم أطفأه فعمّ الظلام من جديد ومعه عبق أشجار الصنوبر القوي ووقفوا برهة بجوار الركام العشوائي، لا يفعلون أي شيء. قالت الآنسة هابرشام " كم أكره هذا "

قال ألك ساندر " لستِ المقصودة. إن المسافة التي تفصلنا عن الشاحنة لا تزيد عن نصف ميل. وأسفل التل أيضاً "

تحركتْ؛ كانت الأولى. قالت "أزيحا الأزهار. بحذر. ألا تريان؟"

قال ألك ساندر "حاضر سيدتي. ليست كثيرة. وكأنهم رموا بها عليه أيضاً"

قالت الآنسة هابرشام " لكننا لن نفعل. أزيحاها بعناية " لابد أنّ الساعة كانت تقترب من الحادية عشرة حينئذٍ؛ قد لا يتوفر لديهم الوقت الكافي: كان ألك ساندر على صواب: كان ينبغي أنْ نرجع إلى الشاحنة ونقودها عائدين إلى البلدة ونتابع الدخول فيها، ولا نتوقف، ولا نفرد وقتاً للتفكير لاضطرارنا إلى مواصلة القيادة، إلى الأمام، ونجعل الشاحنة في حالة حركة دائمة لكي نتقدّم باستمرار، ولا نعود؛ ولكن لم يكن لديهم وقت كاف، كانوا يعلمون هذا قبل أنْ يُغادروا جيفرسون وفكّرَ برهة في ما لو أنّ ألك ساندر كان جاداً عندما قال إنه لن يرافقنا وإنه سيتولى أمر هذه القضية وحده ومن ثم

(وبسرعة) كفَّ عن التفكير في هذا تماماً، وفي النوبة الأولى استخدم ألك ساندر الرفش بينما استخدم هو المعول لحفر التراب الذي كان لا يزال هشاً بحيث لم يحتاجوا حقاً إلى المعول (ولو لم يكن لا يزال هشاً لما استطاعوا حفره حتى في ضوء النهار)؛ كان يكفي رفشان لأداء المهمة وبسرعة أكبر أيضاً لكنَّ الأوان كان قد فات لهذا إلى أنْ ناوله ألك ساندر فجأة الرفش وخرج من الحفرة واختفى (حتى دون استخدام مصباح البطارية) وبذلك الحس نفسه الذي يتجاوز الأنظار والسمع معاً الذي أدرك به أنَّ ما شمّه هايبوي عند المنعطف كان الرمال المتحركة واكتشف أمر الحصان أو البغل الهابط على التل قبل دقيقة وقبل أنْ يبدأ هو أو الآنسة هابرشام بسماعه، ثم عاد مع لوح قصير وخفيف من الخشب بحيث أصبح لدى كل منهما رفش واستطاع أنْ يسمع قعقعة الحفر تشك! ومن ثم الحفيف الخفيف لألك ساندر وهو يُقحِم لوح الخشب في التراب ومن ثم يرمي بالحِمل عالياً ونحو الخارج، زافراً أنفاسه، وفي كل مرة يقول " هاه! " - بصوت حانق غاضب ومكبوح، مُسرعاً أكثر فأكثر إلى أنْ أصبح ذلك الصوت سريعاً كإيقاع شخص يركض: " هاه!... هاه!... هاه! " حتى أنه قال موجهاً كلامه نحو الخلف:

" على رسلكما. إننا نُحرز تقدّماً: " جاعلاً ظهره مُستقيماً للحظة لكي يمسح العرق عن وجهه ويرى كالمعتاد الصورة الجانبية الثابتة للآنسة هابرشام أمام صفحة السماء فوقه بثوبها القطني الطويل وقبعتها المستديرة فوق قمة رأسها مباشرة في مشهد لم يرَ إلا قليلٌ من الناس مثيلاً له منذ خمسين عاماً وربما لم يره أحد في اي وقت ناظراً إلى أعلى من منتصف حفرة قبر منبوش: بل أكثر من منتصفها لأنه عندما عاد إلى الحفر من جديد سمع فجأة ارتطاماً مكتوماً لخشب بخشب، ثم قال ألك ساندر بحِدّة:

" هيا. ابتعدا من هنا وافسحا لي مجالاً: " ورمى بقطعة الخشب إلى الخارج وبعيداً وتناول الرفش منتزعاً إياه من بين يديه وخرج من الحفرة وحتى عندما انحنى متلمساً طريقه ناولته الآنسة هامرشام حبل الربط الملفوف.

قال " ومصباح البطارية أيضاً " فسلّمته إياه ووقف بدوره بينما دفق رائحة الصنوبر القوي القاسي والثابت جفّف العرق عن جسمه إلى أنْ شعر ببرودة القميص المُبلّل على لحمه وفي أسفله في الحفرة كان الرفش اللا مرئي يحفّ بخشونة ويكشط الخشب، ومال ووجّه الضوء من جديد وسلّطَه باتجاه الأسفل على الغطاء غير المدهون لصندوق من خشب الصنوبر ثم أطفاه.

قال " حسن. يكفي هذا. اخرج: " وحرّر ألك ساندر الرفش مع آخر كمية من التراب أيضاً، رامياً كل شيء إلى خارج الحفرة كرمح ولحق به بحركة واحدة، ثم حمل الحبل والضوء وهبط إلى الحفرة وعندئذٍ فقط تذكّر أنه في حاجة إلى مِطرقة، وعتلة - إلى شيء يفتح به الغطاء والشيء الوحيد الشبيه به كان ما تصادفَ أنْ كانت الآنسة هابرشام تحمله معها في الشاحنة على مسافة نصف ميل بالإضافة إلى ارتقاء التل سيراً على الأقدام، ومال لكي يتحسس، يتفحّص المقبض أو كائناً ما كان ما ينبغي نزعه وإذا به يكتشف أنَّ الغطاء غير مُقفل على الإطلاق: بحيث أنه نجح بعد أنْ امتطاه، متوازناً على ساقٍ واحدة، في فتح الغطاء ودعمه بأحد مِرفقيه بينما هزَّ الحبل ليحلّه وعثر على طرفه وأشعل المصباح ووجّهه إلى أسفل ومن ثم قال، " انتظرا، انتظرا "، وكان لا يزال يقول " انتظرا " عندما سمع أخيراً الآنسة هابرشام تتكلَّم بهمس منخفض:

" تشارلز... تشارلز "

قال " هذا ليس فنسون غاوري . هذا الرجل اسمه مونتغمري. إنه تاجر أخشاب صغير من مقاطعة كروسمان "

الفصل الخامس

طبعاً كان عليهم أنْ يردموا الحفرة من جديد ثم إنَّ الحصان كان بحوزته ولكن حتى حينئذٍ كان لا يزال هناك وقت طويل قبل أنْ يبزغ ضوء النهار عندما ترك هايبوي مع ألك ساندر عند بوابة المرج وحاول أنْ يتذكر أنْ يمشي على أطراف أصابع قدميه إلى المنزل لكنَّ أمه ولولتْ على الفور، بشعرها المحلول ومنامتها، من موقع قريب من الباب الأمامي، " أين كنت؟ " ثم تبعته حتى باب غرفة خاله ومن ثم قالت بينما خاله يرتدي بعض الملابس: " أنت؟ تنبش قبراً؟ " ثم قال هو بما يُشبه صبراً مُرهقاً لا يكلّ، وهو نفسه مُرهَق من الركوب والحفر ثم الالتفات والردم والركوب من جديد، ونجح بصورة ما من مُجاراة تلك القفزة متقدماً على ما لم يأمل أبداً في هزيمته بأية طريقة:

" ألك ساندر والآنسة هابرشام ساعداني: " إنْ كان لهذا الثنائي اي صِفة فهي أنهما الأسوا على الرغم من أنّها لم تكن قد رفعت صوتها؛ كانت فقط مذهولة وصامدة إلى أنْ خرج خاله بملابسه الكاملة وحتى ربطة العنق لكن ليس حليقاً وقال،

" ماغي، هل تريدين أنْ توقظي تشارلي؟ " ثم لحق بهما إلى الباب الأمامي وهذه المرة هي التي قالت - وقال لنفسه من جديد كيف حصل و لم تتمكن أبداً من هزيمتهما بسبب رشاقتهما التي لم تكن مجرد مقدرة على الحركة بل رغبة في الاستسلام للتخلي بالسرعة الأثيرية اللا ماديّة للريح أو الهواء نفسه ليس فقط عن الموقع بل وعن المبدأ أيضاً؛ لم تكن في حاجة إلى حشد قواتكَ لأنها موجودة معك أصلاً: سلاح

مدفعية متفوق، وسيطرة، وعدالة حقّة وأسبقية وعُرف وكل شيء آخر وقمت بهجومك ونظّفت الساحة، أزحتَ كل ما اعترضَ طريقك - أو هكذا ظننتَ إلى أنْ اكتشفتَ أنَّ العدو لم يتراجع على الإطلاق بل تخلّى عن ساحة القتال وليس فقط تخلّى عن الساحة بل اغتصب في أثناء ذلك صيحة الحرب الخاصة بك؛ لقد صدّقتَ أنكَ احتللتَ قلعة وبدل ذلك اكتشفتَ أنك فقط في موقع لا يمكن الدفاع عنه ومن ثم وجدتَ أنَّ المعركة التي لم تضعف وأيضاً غير الواضحة نشبتْ من جديد في مؤخرتك المكشوفة والغافلة - قالت:

" ولكن يجب أنْ ينام! إنه حتى لم يأو إلى السرير! " بحيث أنه في الواقع توقف إلى أنْ قال خاله له همساً:

" قُل لي. ما خطبك؟ ألا ترى أنها أشدّ صلابة منك ومني معاً كما كانت العجوز هابرشام أصلب منك ومن ألك ساندر معاً؛ كان يمكن أنْ تذهب إلى هناك من دون أنْ تحرّك من يدك لكنَّ ألك لم يكن ليفعل وأنا لا زلت غير متيقّن من أنك ستفعل عندما يحين وقت التنفيذ ". وهكذا تقدّم أيضاً إلى جوار خاله نحو مكان جلوس الآنسة هابرشام في الشاحنة خلف سيارة خاله المتوقفة (كانت في المرأب عند الساعة التاسعة ليلة أمس؛ ولاحقاً عندما سيتوفر لديه الوقت سوف يتذكّر أنْ يسأل خاله عن المكان الذي أرسلته أمه إليه ليبحث عنه). قال خاله " اسحبْ ما قلتُ. انسه. من أفواه الأطفال الصِغار والرُضّع والسيدات العجائز - " وأعاد صياغة الكلام. " وهذا صحيح، كما هي الحقيقة غالباً، وحده الرجل لا يُحب أنْ يُرمى به على أسنانه عند الساعة الثالثة صباحاً. وإياك أنْ تنسى أمّك، وطبعاً لا يمكنك أنْ تنساها؛ ولطالما حرصت هي على هذا منذ ذلك الحين. فقط تذكّر أنَّ في إمكانهما أنْ يتحملا أي شيء، أنْ يتقبّلا أية حقيقة (الرجال وحدهم يتصرفون بحماقه مع الحقائق) شريطة ألا يُضطرا إلى مواجهتها؛ يمكنهما أنْ

يستوعباها وهما يُشبحان برأسيهما وإحدى اليدين ممدودة خلفهما بينما السياسي يقبل الرشوة. انظر إليها: إنها تمضي حياة سعيدة مطمئنة طويلة دون أنْ تتنازل ولو عن جزء صغير من رفضها أنْ تنساك لأنك تستطيع أنْ تُثبّتْ زر بنطلونك"

كان لا يزال هناك وقت طويل قبل أنْ يبزغ ضوء النهار عندما أوقفَ خاله سيارته عند بوابة الشريف وقاد الطريق على الممشى القصير ومنه إلى السرادق المُستأجَر. (بما أنه هو نفسه لم ينجح، على الرغم من أنه كان عندئذٍ يقضي مدّته الثالثة فإنَّ المدة التي انقضت على تولي الشريف هامبتون منصبه تبلغُ في الواقع ضعف الاثنى عشر عاماً التي أمضاها في خدمته. كان من الريف، مُزارعاً وابن مزارعين، عندما انتُخِبَ للمرة الأولى والآن أصبح يمتلك مزرعته الخاصة ومنزلاً في مسقط رأسه، ويعيش في المنزل المُستأجَر في البلدة خلال فترة خدمته في المكتب ومن ثم يعود إلى المزرعة التي كانت بيته الحقيقي بعد انقضاء كل فترة خدمة، لكي يعيش هناك إلى أنْ يُنصّب - ويُنتخَب - شريفاً من جديد.

قالت الآنسة هابرشام "آمل ألا يكون نومه عميقاً"

قال خاله" إنه ليس نائماً. إنه يطبخ طعام الإفطار"

قالت الآنسة هابرشام "يطبخ طعام الإفطار؟": ومن ثم علِمَ ذلك: على الرغم من ظهرها المستقيم والقبعة التي لم تتزحزح أبداً عن قمة رأسها وكأنها كانت تُحافظ عليها متوازنة هناك ليس بالدبابيس بل ببساطة بالوضعية الجامدة الثابتة لعنقها كما تحمل النساء الزنجيات كامل غسيل العائلة، كانت مُرهقة من شدة التوتر ونقص النوم أيضاً.

قال خاله" إنه من الريف. كل ما يتناول من طعام بعد طلوع النهار في الصباح هو العشاء. إنَّ السيدة هامبتون في ممفيس مع ابنتهما تعتني بالطفلة والمرأة الوحيدة التي سوف تطبخ وجبة إفطار لرجل عند

الساعة الثالثة والنصف صباحاً هي زوجته. لن تفعل هذا أية طباخة من البلدة. إنها تأتي في ساعة معقولة هي الثامنة وتغسل الأطباق ". خاله لم يقرع الباب. بدأ بفتح الباب ثم توقف ونظر خلفه بعد كليهما إلى حيث كان ألك ساندر يقفُ في أسفل درَج الباب الأمامي. قال لألك ساندر " لا تعتقد أنك ستخرج من الأمر لمجرد أنَّ أمك لا تنتخب. أنت أيضاً ستأتي "

ثم فتح خاله الباب وفي الحال شمّوا عبق القهوة ولحم الخنزير المقلي، ومشى على أرضيّة مكسوة بالمادة المُشمّعة نحو ضوء خافت في آخر الرواق ثم عبر أرض غرفة طعام مُشمّعة في إرسالية غراند رابيدز المُستأجَرة إلى المطبخ، ومنه إلى نفحة قوية منعشة من مدفأة تعمل بالخشب حيث وقف الشريف فوق مقلاة تبقبق بقميصه الداخلي وبنطلونه وجوربه وحمالات بنطلونه تتدلى وشعره مُشوشاً ومبعثراً بتأثير النوم كشعر صبي في العاشرة، يحمل بإحدى يديه أداة تقليب كعكة مُسطّحة وباليد الأخرى منديل كؤوس. كان الشريف قد أدار وجهه العريض نحو الباب قبل أنْ يدخلوا منه وراقب العينين الصغيرتين الشاحبتين القاسيتين ترسلان ومضاً من خاله إلى الآنسة هابرشام وإليه ومن ثم إلى ألك ساندر وحتى عندئذٍ لم تكن العينان هما اللتان اتسعتا كثيراً خلال تلك اللحظة بل البؤبؤان الصغيران الأسودان القاسيان هما اللذان توترا خلال تلك البرهة الدقيقة. لكنَّ الشريف لم يكن قد قال شيئاً بعد، بل فقط ينظر إلى خاله حينئذٍ وحينئذ بدا حتى البؤبؤان الصغيران القاسيان كأنهما يتمددان من جديد كما يحدث عندما يُرخي إطلاقُ نَفَسٍ الصدرَ وبينما ثلاثتهم واقفون بهدوء ويراقبون بثبات الشريف وخالُه يُخبر ما حدث، بسرعة واختصار وإيجاز بليغ، من تلك اللحظة في السجن في الليلة الفائتة عندما أدركَ خاله أنَّ لوكاس بدأ يُخبره - أو بالأحرى يطلب، شيئاً، إلى اللحظة التي ولج فيها خاله الغرفة قبل عشر دقائق وإيقظه، وسكتَ

ومن جديد راقبوا العينين الصغيرتين القاسيتين ترسلان ومضاً، ومضاً، ومضاً عبر وجوههم الثلاثة ثم تعودان من جديد إلى خاله، تحدقان إلى خاله على مدى حوالي ربع دقيقة من دون حتى أنْ تطرفا. ثم قال الشريف:

" لا يمكن أنْ تأتي إلى هنا عند الساعة الرابعة صباحاً مع حكاية كهذه إذا لم تكن صحيحة "

قال خاله " أنت لا تُصغي فقط إلى اثنين من الفتية في السادسة عشرة من عمريهما. أذكّرك بأنَّ الآنسة هابرشام كانت موجودة هناك "

قال الشريف " لا داعي إلى هذا. أنا لم أنسَ ذلك. ولا أعتقد أنني سأنسى " ثم التفتَ الشريف. رجل عملاق وفي خمسينيات عمره أيضاً، ما كنتَ لتعتقد أنَّ في استطاعته أنْ يتحرك بسرعة و لم يبدُ عليه ذلك ومع هذا تناول مقلاة عن المسمار المُثبّت في الجدار خلف المدفأة وكان قد التفتَ تواً نحو الطاولة (حيث لاحظ للمرة الأولى، شاهد جانب اللحم المُدخَّن) قبل أنْ يبدو أنه تحرك أصلاً، ورفع سكين اللحام من جانب اللحم حتى قبل أنْ يبدأ خاله بالكلام:

" هل لديك وقت لفعل هذا؟ أمامك قيادة مسافة ستين ميلاً حتى هاريسبرغ إلى محامي المنطقة؛ وعليك أنْ تصطحب معك الآنسة هبرشام والصبيين كشاهدَين لكي يحاولوا أنْ يُقنعوه بتقديم عريضة من أجل نبش جثة فينسون غاوري - "

مسح الشريف مقبض السكين بسرعة بمنديل الأكواب. " حسبتُ أنك أخبرتني بأنَّ فينسون غاوري لم يكنِ في ذلك القبر "

قال خاله " رسمياً هو موجود هناك. حسب سجلات المقاطعة هو كذلك. وإذا كان عليك، أنت الذي يُقيم هنا ويعرف الآنسة هابرشام ويعرفني طوال حياتك السياسية، أنْ تسألني مرتين، ماذا تعتقد أنَّ جيم

هالاداي سيفعل؟ - عندئذٍ عليك أنْ تقطع مسافة ستين ميلاً بالسيارة عائداً إلى هنا مع الشاهدين والعريضة وتدفع القاضي مايكوكس إلى إصدار أمر - "

أسقطَ الشريف منديل الأكواب على الطاولة. قال بنبرة صوت معتدلة " أحقاً؟ "، بشبه انتباه: بحيث أنَّ خاله وقف بسكون تام يراقب الشريف وهو يستدير عن الطاولة، والسكين في يده.

قال خاله "آه "

قال الشريف " أنا أيضاً فكّرتُ في شيء آخر. يُدهشني أنك لم تفعل. أو لعلك فعلت "

حدّقَ خاله إلى الشريف. ثم قال ألك ساندر - وكان خلفهم جميعاً، و لم يكن قد ولج من باب غرفة الطعام إلى المطبخ - بصوت معتدل ومُجرّد وكأنه يقرأ شعاراً مأخوذا من إعلان عن مادة ما لا يمتلكها ولا توقّع أنْ يمتلك:

" لم يكن بغلاً، بل حصاناً"

قال الشريف " لعلك تذكرتَ هذا الآن "

قال خاله " أوه ". قال: " نعم " لكنَّ الآنسة هابرشام كانت قد باشرت الكلام. كانت قد رمت ألك ساندر بنظرة سريعة قاسية ثم عادت إلى النظر إلى الشريف بالسرعة والقسوة نفسيهما.

قالت " وأنا أيضاً. وأعتقد أننا نستحق أكثر من السريّة "

قال الشريف " وأنا أيضا، آنسة يونيس. لولا أنَّ الشخص الذي يحتاج إلى وضعه بعين الاعتبار ليس موجوداً هنا "

قالت الآنسة هابرشام " أوه ". قالت " نعم " أيضاً. قالت " طبعاً

": وبدأتْ تتحرك، وقابلت الشريف في منتصف المسافة بين الطاولة والباب وأخذت منه السكين وتوجهتْ إلى الطاولة بعد أنْ تجاوزها واقترب من الباب، ثم خاله ثم هو ثم ألك ساندر ابتعدوا عن الطريق بينما تابع الشريف طريقه إلى غرفة الطعام واجتازها إلى الرواق المظلم، وأغلق الباب خلفه؛ ثم تساءل لِمَ لم يُنه الشريف ارتداء ملابسه عندما استيقظ؛ إنَّ الرجل الذي لا يأبَه أو اضطرّ إلى هذا أو على أية حال استيقظ عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً ليُعد لنفسه وجبة إفطار لن يُمانع في أنْ يستيقظ قبل ذلك بخمس دقائق ليتوفر لديه وقت ليرتدي قميصه وينتعل حذاءه أيضاً ثم تكلّمتْ الآنسة هابرشام وتذكّرَها؛ إنَّ حضور سيدة كان طبعاً السبب في أنه ذهب ليرتدي القميص وينتعل حذاءً دون حتى أنْ ينتظر ريثما يتناول طعام الإفطار وتكلمت الآنسة هابرشام وهو انتفض، من دون أنْ يتحرك مُستيقظاً فجأة من نوم دام ربما بضع لحظات ونهضَ واقفاً على قدميه كما ينام الحصان لكنَّ الآنسة هابرشام كانت لا تزال تَقلب قطعة اللحم على حافتها استعداداً لقطع الشريحة الأولى. قالت: " ألا يستطيع أنْ يتصل هاتفياً بهاريسبرغ ويجعل محامي المنطقة يُعيد الاتصال بالمحامي مايكوكس؟ "

قال ألك ساندر " هذا ما يفعل الآن، يتصل هاتفياً "

" ربما يُستحسن أنْ تذهب إلى الرواق حيث تستطيع أنْ تسترق السمع جيداً إلى ما يقول " هذا ما أخبر به خاله ألك ساندر. ثم نظر خاله إلى الآنسة هابرشام من جديد؛ هو أيضاً راقبها تُقطّع بسرعة شريحة بعد أخرى من لحم الخنزير بالسرعة نفسها تقريباً التي تؤدي بها آلة. " يقول السيد هاميتون إننا لسنا في حاجة إلى تقديم أية أوراق. نستطيع أنْ نتولى الأمر بأنفسنا من دون أنْ نُزعج القاضي مايكوكس ـ "

تركت الآنسة هابرشام السكين. لم تضعها بهدوء، بل فقط فتحتْ

يدها وبالحركة نفسها تناولت منديل الأكواب وأخذت تمسح يديها وهي تستديرعن الطاولة، مجتازة المطبخ نحوهم بحركة أسرع، أسرع بكثير حتى من حركة الشريف. قالت " إذن لماذا نُبدد الوقت هنا؟ أفي انتظار أنْ يضع ربطة العنق ويلبس المعطف؟ "

تقدّم خاله بسرعة ليُصبح أمامها. قال " لا نستطيع أنْ نفعل أي شيء في الظلام. يجب أنْ ننتظر طلوع النهار "

قالت الآنسة هابرشام " لم نفعل ". ثم توقفت؛ إما أنْ تفعل هذا أو أنْ تدوس على خاله على الرغم من أنَّ خاله لم يلمسها، بل وقف بينها وبين الباب إلى أنْ أُضطرتْ إلى التوقف على الأقلّ برهة في انتظار أنْ يتنحّى خاله عن طريقها: ونظر إليها أيضاً، منتصبة، نحيلة، يكاد لا يكون لها شكل مُحدد وهب بثوبها القطنيّ الطويل من تحت الاستدارة الكاملة للقبعة وقال في نفسه إنها أكبر سناً على القيام بهذا ومن ثم صحّحَ ما قال: كلا ما كان ينبغي على امرأة على سيدة أنْ تفعل هذا ومن ثم تذكّرَ الليلة السابقة عندما غادر المكتب واجتاز الفناء الخلفي وصفّر لألك ساندر وكان يعلم أنه اعتقد - ولا زال يعتقد - أنه كان في إمكانه أنْ يذهب وحده حتى وإنْ تشبّثَ ألك ساندر برفضه ولكن فقط عندما جاءت الآنسة هابرشام إلى المنزل وكلّمته علِمَ أنه سوف يمضي في الأمر وتذكّر من جديد ما قاله العجوز إفرايم له بعد أنْ عثرا على الخاتم تحت حوض الخنزير: إذا كان لديك شيء خارج المسار العام يجب إنجازه ولا يمكن أنْ ينتظر، فلا تُبدد وقتك على الناس؛ إنهم يعملون على ما يُسمّيه خالك القواعد والقضايا. أدخل النساء والأطفال في الأمر؛ إنهم يعملون على الظروف. ثم فُتحَ باب الرواق. سمع الشريف يجتاز غرفة الطعام نحو باب المطبخ. لكنَّ الشريف لم يلج المطبخ، وتوقف عند الباب، ووقف عنده حتى بعد أنْ قالت الآنسة هابرشام بصوت خشن، يكاد يكون همجياً:

" حسن؟ " ولم يكن قد انتعل الحذاء ولم يرفع الحمالات المتدلية ولم يبد أنه سمع شيئاً مما قالت الآنسة هابرشام: اكتفى بالوقوف يظهر بارزاً من الباب وينظر إلى الآنسة هابرشام – ليس إلى القبعة، ولا إلى عينيها ولا حتى إلى وجهها: بل فقط إليها – كما تنظر إلى سلسلة من الأحرف بالروسيّة أو الصينية قال لكَ شخصٌ تُصدّقه أنها تُشكّل اسمك، قائلاً أخيراً بصوت متأمّل مُشوّش:

" كلا: " ثم أدار راسه لينظر إليه ويقول: " ولا أنت: " ثم أداره أكثر إلى أنْ أصبح ينظر إلى ألك ساندر بينما رفع ألك ساندر عينيه نحو الأعلى إلى الشريف ثم أبعدهما من جديد ثم رفعهما أيضاً. قال الشريف " أنت. أنت المطلوب. أنت اذهب في الظلام وساعد في نبش الجثة. وليس فقط هذا، بل جثة رجل أبيض يدّعي باقي البيض أنَّ زنجياً آخر قتله. لَمِ؟ الأنَّ الآنسة هابرشام هي التي دفعتك إلى ذلك؟ "

قال ألك ساندر " لا أحد دفعني إليه. إنني حتى لم أكن أعلم أنني ذاهب. كنتُ قد أخبرت تشيك بأنني لن أذهب. ولم يبد أنَّ الجميع يُسلمون بأنني فقط سأذهب ولن أفعل شيئاً إلا بعد أنْ ركبتُ الشاحنة وفجأة علمتُ أنني لن أفعل "

قالت الآنسة هابرشام " سيد هامبتون ". هنا نظر الشريف إليها. بل إنه سمعها الآن.

قال " ألم تنتهي من تقطيع ذلك اللحم بعد؟ أعطني هذه السكين إذن " وأمسك بها من ذراعها، وأعادها إلى الطاولة. " ألم تكتفي من الاندفاع والتنقّل هذه الليلة وحتى مدة قادمة؟ سوف يطلع النهار في غضون خمس عشرة دقيقة والناس لا يشنقون أحداً بلا محاكمة في ضوء النهار. سينفذون ذلك مع طلوع النهار إذا واجهوا بعض المشاكل أو سوء حظ وتأخروا في تنفيذه. لكنهم لا يبدؤون به بعد

طلوع النهار لأنهم حينئذٍ سوف يُضطرون إلى أنْ يرى كل منهم وجه الآخر. كم شخص يستطيع أنْ يأكل أكثر من بيضتين؟ "

تركوا ألك ساندر مع إفطاره على طاولة المطبخ وحملوا وجباتهم إلى غرفة الطعام، وحمل هو وخاله والآنسة هابرشام أطباق البيض المقلي واللحم ومقلاة البسكويت المُعدّ في الليلة السابقة وسُخِّنَ من جديد على المدفأة إلى أنْ أصبح تقريباً كالخبز المُحمّص ووِعاء القهوة الذي يحوي الثفل الخشن والماء الذي كان يغلي إلى أنْ فكّر الشريف في رفع الوعاء عن الجزء الحار من المدفأة؛ كانوا أربعة على الرغم من أنَّ الشريف كان قد أعدَّ خمسة أماكن وما كادوا يجلسون حتى رفع الشريف رأسه مُصغياً على الرغم من أنه لم يسمع شيئاً، ثم نهضَ واقفاً وذهب إلى الرواق المُظلِم وباتجاه مؤخرة المنزل وعندئذٍ سمع ضجيج الباب الخلفي وسرعان ما عاد الشريف مع ويل ليغيت ولكن من دون بندقيته، وأدار رأسه بقدر كافٍ ليطلّ من النافذة خلفه ويجد أنَّ النهار قد طلع حقاً.

قدّم الشريف الأطباق بينما مرّرَ خاله وليغيت طبقيهما وكوب الشريف للآنسة هابرشام عند وعاء القهوة. وفي الحال بدا كأنه كان يسمع منذ مدة طويلة الشريف يقول من مسافة بعيدة "... يا فتى... يا فتى... " ثم " أيقِظه، يا غافن. دعه يأكل إفطاره قبل أنْ يغط في النوم "، وانتفضَ، كان ضوء النهار بالكاد طلع، وكانت الآنسة هابرشام لا تزال تصبّ القهوة في الكوب نفسه وبدأ هو يأكل، يمضغ وحتى يبتلع، وينهض ويسقط وكأنما على إيقاع حركة المضغ على طول حمأة النوم العميقة الناعمة، داخل ما كان عندئذٍ طنين الأشياء المنتهية القديمة التي لم يعُد يهتم بها بعيداً عن الأصوات كلها: كلام الشريف:

" أتعرف جيك مونتغومري، من مقاطعة كروسمان؟ كان يتردد على البلدة على مدى الأشهر الستة الماضية أو نحوها؟ " ثم قال

ليغيت:

" طبعاً. إنه الآن ما يشبه تاجر أخشاب صغير. كان في السابق يُدير مكاناً يُدعى مطعماً يقع على الجانب المقابل من حدود تينيسي خارج ممفيس، على الرغم من انني لم أسمع أبداً أنَّ أحداً ارتاده، إلى أنْ دخله رجل ذات ليلة وقُتِلَ فيه قبل سنتين أو ثلاث. ولم يعرف أحد مدى صِلة جيك بهذا الأمر لكنَّ شرطة تنيسي لاحقته عبر حدود المسيسيبي من باب القيام بالواجب. ومنذ ذلك الحين أعتقد أنه كان يلازم مزرعة والده خلف غلاسغو. لعله ينتظر إلى أنْ يعتقد أنَّ الناس نسوا أمر المسألة الأخرى ويستطيع أنْ يبدأ عملاً جديداً في مكان آخر على الطريق العامة مع حفرة كبيرة في الأرض تكفي لإخفاء صندوق من الويسكي "

قال الشريف " ماذا كان يفعل هنا؟ ": ثم قال لليغيت:

" إذن كان يتاجر في الأخشاب؟ ألم يكن هو وفينسون غاوري... " ثم قال ليغيت بنبرة الصوت نفسها. " أتقول كان؟ " ومن ثم قال بدون أية نبرة مميّزة: " ماذا يعمل؟ " وقال هو هذه المرة، بصوته اللا مبالي بالإضافة إلى نبرة حافة النوم العميق الناعمة، شديد اللا مبالاة بحيث لم يُزعج نفسه بمعرفة ما إذا كان مرتفعاً أم لا:

" ليس لديه أي عمل "

لكنّ الوضع أصبح أفضل بعد ذلك، وخرجوا من جديد من جو المنزل الدافئ والتفِه إلى الهواء الطلق، والصباح، والشمس المُشرقة في دفق واحد ذهبيّ ناعم منعش في ذُرى الأشجار، صابغاً اندفاع خزان مياه البلدة الضخم الساكن بحركة طولانية كأطراف العنكبوت باللون الذهبي في وجه صفحة السماء، الزرقاء، وركبوا جميعاً سيارة خاله دفعة واحدة بينما وقف الشريف متكئاً على أعلى نافذة السائق

مرتدياً الآن حتى ربطة العنق البرّاقة بلونيها البرتقالي والأصفر، قائلاً لخاله:

" أوصل الآنسة يونيس بالسيارة إلى منزلها لكي تأخذ قسطاً من النوم. وسوف ألحق بك في منزلك فلنقُل بعد ساعة - "

جلست الآنسة هابرشام مع خاله في المقدمة وقالت " هراء " لا أكثر. لم تسب. لم تكن في حاجة إلى ذلك. كان ذلك جلياً ونهائياً أكثر منه سباباً. مالتْ إلى الأمام لتنظر إلى ما بعد خاله إلى الشريف. قالت " اركب سيارتك واذهب إلى السجن أو أينما شئت أنْ تذهب لتُحضِر شخصاً ليقوم بالحفر هذه المرة. لقد اضطررنا إلى ردمها من جديد لأننا كنا متيقنين من أنك لن تصدِّق إلا إذا شاهدته بأم عينك. هيا. سوف نقابلك هناك. هيا "

لكنَّ الشريف لم يأت بأية حركة. كان يستطيع أنْ يسمع أنفاسه، شاسعة تحت أرضيّة ودقيقة، أشبه بالتنهد. قال الشريف " طبعاً أنا لا أعرف شيئاً عنك. سيدة لا تملك إلا عدداً كبيراً من الدجاج تُطعمها وترعاها وتسقيها ومزرعة للخضروات لا تزيد مساحتها عن خمسة أكرات، ربما ليس لديها ما تفعل طوال النهار. لكنَّ هذين الصبيين يجب أنْ يرتادا المدرسة. على الأقل أنا لم أسمع عن أية قاعدة في هيئة التدريس لمنح عطلة من أجل نبش الجثث "

وهذا جعلها تجمّد حركتها. لكنها لم تكن قد عادت إلى الجلوس. كانت لا تزال تميل لتنظر ما بعد خاله إلى الشريف وقال في نفسه من جديد إنها عجوز ولا تصلح لهذا العمل، لتقوم بهذا العمل: ولكن لولا هو وألك ساندر، ماذا كانت هي وخاله والشريف كلهم معاً وأمه وأبوه وبارالي أيضاً سيُسمون الأطفال، ماذا كان سيكون لديهم لينفذوا الأمر - ما كانوا سينفذونه بل كان سيكون عليهم أنْ ينفّذوه ليطبّقوا

ليس العدالة والأصول بل البراءة: وفكّر في الرجل الذي اضطرّ إلى قتل رجل ليس لأي دافع أو سبب بل ببساطة من أجل الحاجة والدافع القوي للاضطرار إلى قتل رجل، مُختلقاً مُبتكراً دافعه وسببه بعد ذلك لكي يبقى مرفوع القامة بين الرجال كمخلوق عقلاني: وكائناً مَنْ اضطرَّ إلى قتل فينسون غاوري اضطرَّ إلى نبش جثته وإلى قتل شخص آخر ليضعه في قبره الفارغ بحيث يرتاح مَنْ اضطرَّ إلى قتله؛ ولكي يتمكن أقرباء فينسون غاوري وجيرانه الذين سيضطرون إلى قتل لوكاس أو شخص ما أو أي شخص، لا يهم مَنْ، من الجلوس والتنفس بهدوء بل والحزن بهدوء وبذلك يرتاحوا. كان صوت الشريف معتدلاً، بل ورقيقاً تقريباً: " اذهبي إلى بيتك. لقد قمتِ أنت وهذان الصبيان بعمل طيب. علّكم أنقذتم حياة. والآن اذهبي إلى بيتك ودعينا نقوم بالباقي. لن يكون هناك مكان لسيدة "

لكنَّ الآنسة هابرشام فقط توقفتْ، وليس لفترة طويلة: " و لم يكن العمل ليلة أمس جديراً برجل أيضاً "

قال خاله " انتظر، يا هوب "، ثم التفتَ خاله إلى الآنسة هابرشام. قال " إنَّ عملك هو في البلدة هنا. ألا تعلمين هذا؟ ". وهنا راحت الآنسة هابرشام تراقب خاله. لكنها كانت لا تزال لم تعُد إلى الجلوس على المقعد، و لم تُعط أي شخص أي سبب بعد؛ تراقب، وكأنها لم تبدّل على الإطلاق خصماً بآخر بل قبلتْ كليهما من دون توقف أو تعثُّر، أو طلب الرحمة، أو مُحاباة. قال خاله " إنَّ ويل ليغيت مُزارع. إلى جانب أنه يبقى يقظاً طوال الليل. يجب أنْ يذهب إلى المنزل ويعتني بأمر نفسه قليلاً "

قالت الآنسة هابرشام " أليس لدى السيد هامبتون مساعدون آخرون؟ ما فائدتهم؟ "

قال خاله " إنهم مجرد رجال يحملون بنادق. ليغيت نفسه أخبر تشيك وأخبرني في الليلة الفائتة أنه إذا ما عقد عدد كاف من الرجال العزم ونفّذوا، فسوف يمرون به وبالسيد تبس معاً في الوقت المناسب. ولكن إذا ما ارتأت امرأة، سيدة، سيدة بيضاء... " توقف خاله، سكت؛ وحدّق كل منهما إلى الآخر؛ فكّر من جديد وهو يراقبهم في خاله وفي لوكاس في الزنزانة في الليلة السابقة (حدث ذلك في الليلة الفائتة، طبعاً؛ بدت عندئذٍ كأنها سنون)؛ وأيضاً ما عدا أنَّ خاله والآنسة هابرشام كانا ينظر كلٍ منهما في عينيّ الآخر بدل أنْ يفرِض كل على الآخر ذلك التركيز المُطلَق للأحاسيس كلها التي لا يزيد مجرد الإدراك المعصوم الأخرق فيها إلا قليلاً عن القدرة على قراءة اللغة السنسكريتيّة، لعله كان يراقب الاثنين الأخيرين الباقيين في العملية. "... أنْ تكتفي بالجلوس هناك، مُعرّضة للأنظار، حيث يمكن لأول المارة نشر الخبر قبل أنْ تنطلق جماعة بيت فور بالشاحنة إلى البلدة... بينما نخرج نحن إلى هناك ونُنهي الأمر كله، وإلى الأبد - "

مالت الآنسة هابرشام ببطء إلى الخلف إلى أنْ استقرّ ظهرها على المقعد. قالت: " إذاً عليّ أنْ أجلس هناك على ذلك الدَرَج وثوبي منتشر أو ربما الأفضل أنْ أستند بظهري إلى الدرابزين وإحدى قدميّ تدعم جدار مطبخ السيدة تبس بينما أنت والرجال الذين لم يُتح لهم الوقت بالأمس أنْ يطرحوا على ذلك الزنجي العجوز بضعة أسئلة وهكذا كل ما حصل عليه ليلة أمس كان صبياً، طفلاً - " لم يقُل خاله أي شيء. مال الشريف عبر النافذة ليزفر تنهيدات عميقة واسعة، ليس بقوة بل كما يجب على رجل ضخم الجثة أنْ يتنفس. قالت الآنسة هابرشام: " أوصلني إلى البيت أولاً. يجب أنْ أقوم ببعض أعمال الإصلاح. لن أجلس هناك طوال الصباح لا أفعل شيئاً بحيث تشعر السيدة تبس بأنّها مُضطرة إلى أنْ تتحدث معي. أوصلني أولاً إلى البيت. لقد أدركتُ قبل ساعة من الآن الاندفاع والسرعة اللتين

تتصرفان بها أنت والسيد هامبتون ولكن في وسعكما أنْ تُخصصا وقتاً لذلك. يستطيع ألك ساندر أنْ يجلب الشاحنة إلى السجن في طريقه إلى المدرسة ويتركها أمام البوابة "

قال خاله " حاضر سيدتي "

.

الفصل السادس

وهكذا أوصلوا الآنسة هابرشام إلى البيت، هناك خارج البلدة وخلال بستان من أشجار الأرز المشوّشة العشوائية إلى المدخل المُعمَّد غير المدهون حيث ترجلتْ وولجت المنزل وكما بدا استمرت في دخوله دون حتى أنْ تتوقف لأنهم سمعوها في الحال في مكان ما في الخلف تصرخ في أحدهم - لعله الزنجي العجوز الذي كان شقيق مولي وصهر لوكاس - بصوتها القويّ المتوتر والمرتفع قليلاً بسبب قلّة النوم والتعب، ثم خرجت من جديد حاملة علبة كبيرة من الكرتون مملوءة بما بدا أنه غسيل غير مكوي وشبكات طويلة رخوة وحبال من الجوارب وعادت إلى داخل السيارة ورجعوا إلى الساحة خلال شوارع الصباح الهادئة والنضرة: منازل جيفرسون الخشبية الكبيرة القديمة والمتهرئة بأساسها القديم كأساس منزل الآنسة هابرشام العميق على مروج مُهملة عشوائية من أشجار قديمة وشجيرات مزهرة عطِرة مُحاطة بالجذور لم تعد غالبية الناس ممَّن هم تحت الخمسين من العمر تعرف أسماءها وحتى عندما كان الأطفال يعيشون فيها بدتْ مع ذلك مسكونة بأشباح نساء، نساء عجائز لا يزلن عوانس وأرامل ينتظرن حتى بعد مرور سبعين عاماً وصول البرقية البطيئة جالبة معها أخبار معارك تينيسي وفرجينيا وبنسلفانيا، والتي لم تعد حتى تواجه الشارع بل يلوح لها من فوق الأكتاف المُستقبلية للمنازل الصغيرة والأنيقة الجديدة المؤلّفة من طابق واحد صُمّمتْ في فلوريدا وكاليفورنيا ومُرفقة بمآرب تجاريها في أناقة بقع العشب المُشذّب ومساكب الأزهار المُملّة، أصبحت ثلاثاً أو أربعاً الآن، ومُجزّأة إلى ما كان يُعتَبَر

قبل عشرين عاماً مرجاً أمامياً صغيراً وأنيقاً، حيث يعيش أزواج شبان أثرياء ومع كل زوج طفلان (حالما يتمكنان من تحمّل نفقاتهما) ولكل منهما سيارة وعضويات في النادي الريفي/ونوادي البريدج وروتاري الشبان وغرفة التجارة وأدوات الطبخ والتجميد والتنظيف الكهربائية المُرخّصة وخادمات أنيقات مرتبات زاهيات الألوان بقلنسوات مُهذّبة ليُشغّلنها ويتحدثن مع بعضهن هاتفياً من منزل إلى منزل بينما الزوجات ينتعلن الصنادل ويرتدين الملابس الداخلية بأظافر أقدام مدهونة ينفخن دخان سجائر مُلطّخة بأحمر الشِفاه فوق حقائب التبضّع في سلسلة محلات البقالة والصيدليات.

أم سيكونون كذلك ويجب أنْ يكونوا كذلك؛ إنه يوم أحد وربما أمضوا، قبِلوا يوماً من دون شخص يوصِل المكانس الكهربائية الطنانة أو يفصلها ويُدير مفاتيح المدافئ بينما يوم إجازة أو عطلة أو ربما مناسبة كالتعميد أو القيام بنزهة أو جنازة كبرى ولكن ذاك كان يوم اثنين، يوم جديد وأسبوع جديد، الراحة والحاجة إلى ملء الوقت وقهر الملل انتهى، والأطفال نشطون استعداداً للمدرسة والزوج والوالد للذهاب إلى المتجر أو للمكتب أو للتجول حول طاولة الويسترن يونيون حيث ترِد تقارير القطن كل ساعة؛ وقبل ذلك هناك طعام الإفطار وصخب الخروج الهائل ومع ذلك لم يشاهدوا أي زنجي - الصبايا بشعورهم المُسرّحة والمساحيق وملابس المستقبل الأنيقة البرّاقة من مراكز الطلبات البريدية اللواتي لا يعتمرن حتى قلنسوات ولا يرتدين مآزر سوق هاربر إلا بعد أنْ يدخلن المطابخ والأكبر سناً يرتدين ملابس قطنية بيتيّة الصنع الطويلة حتى الكاحلين اللواتي ويضعن المآزر البسيطة الطويلة بيتيّة الصنع طوال الوقت بحيث لا تعود رمزاً بل ثوباً، ولا حتى الذين ينبغي أنْ يجزوا المروج ويُشذبوا السياجات ؛ ولا حتى (إنهم يعبرون الساحة الآن) فرق الأشغال العامة التي كان ينبغي أنْ تكون منهمكة في غسل الرصيف بالخراطيم وفي كنس صحف يوم الأحد المرمية

وعلب السجائر الفارغة؛ عبروا الساحة ومنها إلى السجن حيث خرج خاله أيضاً وانتقل إلى الرصيف مع الآنسة هابرشام وارتقيا الدرَج وولجا الباب الذي بقيَ مفتوحاً حيث كان كرسي ليغيت لا يزال شاغراً مُستنداً إلى الجدار وخرج هو بجيش كتلة واحدة من النوم ليجد كالمعتاد أنه لم تمرّ أية فترة زمنية، وخاله لا يزال يعتمر قبعته ويستدير ليسير على طول الممشى عائداً إلى السيارة. ثم توقفوا عند المنزل، وكان ألك ساندر قد خرج من السيارة ودار حول جانب البيت واختفى وقال هو:

" كلا "

قال خاله " نعم. يجب أنْ تذهب إلى المدرسة. أو الأفضل من هذا، أنْ تأوي إلى السرير لتنام - نعم "، قال خاله فجأة: " وألك ساندر أيضاً. يجب أنْ يلزم المنزل هذا اليوم أيضاً. لأنه لا ينبغي الحديث عن هذا، ولا كلمة عنه إلا بعد أنْ ننتهي منه. افهما هذا "

لكنه لم يكن يُصغي، هو وخاله لم يكونا حتى يتكلّمان عن الشيء نفسه، ولا حتى عندما قال " كلا " من جديد وتوقف خاله الذي كان قد خرج من السيارة وأخذ ينعطف نحو المنزل ونظر خلفه إليه ومن ثم وقف هو ينظر إليه برهة طويلة جداً ثم قال:

" إننا ذاهبون للقيام بهذا ونحن مترددون، ألسنا كذلك؟ أنا الذي يجب أنْ أسألك إنْ كان في استطاعتي أنْ أذهب ". لأنه كان يفكّر في أمه، وليس فقط يتذكّرها لأنه فعل ذلك حالما اجتازا الساحة قبل خمس دقائق وكان أبسط شيء يمكن أنْ يحدث هو أنْ يخرج من سيارة خاله هناك وينتقل إلى سيارة الشريف ويمكث فيها ببساطة إلى أنْ يستعدوا للعودة إلى الكنيسة ولعله فكّر في هذا في ذلك الوقت وكان يمكن أنْ يُنفّذه لو لم يكن يشعر بإرهاق شديد وبوهن وكسل

ولا يستطيع النوم وكان يعلم أنه لا يستطيع أنْ يتعامل معها هذه المرة حتى وإنْ كان مُفعماً بالنشاط التام؛ ومجرد أنه فعل ذلك حتى الآن مرّتين في غضون إحدى عشرة ساعة، مرة سراً ومرة بحركة مُفاجئة وسريعة وضخمة، ولكن هذا قضى عليه الآن بالهزيمة المُنكرة: يفكّر في تسويغ خاله الساذج والصبياني أمر المدرسة والسرير عندما يُواجه ذلك الهجوم السريع الذي لا يُردّ، ومرة أخرى عرِفَ خاله ما يدور في خلده، وهو واقف بجوار السيارة وينظر إليه برهة أخرى بحب وبلا أمل على الرغم من أنه كان عازباً في الخمسين وحراً من هيمنة المرأة على مدى خمسة وثلاثين عاماً، وخاله أيضاً كان يعلم يتذكّر كيف يمكنها أنْ تستغل حُجج ثقافته وإرهاقه الجسدي بسرعة أقلّ من نبذها لها؛ ولن تُصغي بعد الآن لأسباب تسوّغ مكوثه في المنزل ولا - من أجل أداء واجب مدني أو تحقيق عدالة بسيطة أو إنجاز عمل إنساني أو لإنقاذ حياة أو حتى من أجل سكينة روحه الخالدة - لخروجه. قال خاله:

" حسن، هيا بنا. سأتحدث معها "

تحرك، وخرج؛ وفجأة وبهدوء قال هو، مذهولاً ليس من يأسه من الأمل بل من مقدار اليأس الذي يمكن أنْ يتحمّله المرء: " أنت مجرد خال لي "

قال خاله " أنا أسوأ من هذا. أنا مجرد رجل ". ثم من جديد خمّنَ خاله ما يدور في ذهنه: " حسن. سأحاول أنْ أتحدث مع باراالي أيضاً. الوضع نفسه هنا: يبدو أنّ الأمومة تخلو من الدم "

ولعلّ خاله أيضاً كان يفكّر في كيف أنّك ليس فقط لم تتمكن من هزيمتهم ، بل لم تتمكن حتى من العثور على ساحة حرب في الوقت المناسب لكي تعترف بهزيمتك قبل أنْ يُزيلوها من جديد؛

تذكّر، حدث ذلك قبل عامين، كان أخيراً قد نجح في تشكيل فريق كرة القدم للمدرسة الثانوية، أو فاز أو اختير لشغل أحد المناصب لكي يقوم بجولة خارج البلدة لأنّ اللاعب النظامي أُصيبَ بجرح في أثناء التمرين أو أنه تراجع في تحصيل العلامات أو ربما أمه أيضاً لم تسمح له بالرحيل، أمرٌ ما، لقد نسيَ ما هو بالضبط لأنه كان شديد الانشغال طوال يوميّ الخميس والجمعة في شحذ ذهنه عبثاً ليعرف كيف ينبغي أنْ يُخبر أمه بأنه ذاهب إلى موتستاون لكي يلعب في الفريق النظامي، وظل كذلك حتى آخر دقيقة عندما بات عليه أنْ يُخبرها شيئاً وقد فعل: بطريقة رديئة: وأفسد الأمر بما أنه تصادفَ أنْ كان والده حاضراً (على الرغم أنه لم يكن يعتقد أنّ الأمر سيجري على تلك الطريقة - وهذا لا يعني أنه لم يكن ليفشل لو أنه لم يُغالِ في القلق والارتباك مع مزيج من الغضب والشعور بالخزي والخزي من غضبه ومن شعوره بالخزي (صارخاً في وجهها عند نقطة ما: " أهو خطأ الفريق أنني الابن الوحيد لديك؟ ") عندما يفكّر في الأمر) وغادر بعد ظهيرة يوم الجمعة ذاك مع الفريق شاعراً كما تخيّلَ أنّ جندياً يمكن أنْ يشعر وهو يتملّص من بين ذراعيّ أمه المُقيّدتين لكي يذهب ويخوض معركة من أجل قضية مُخزية؛ كانت ستحزن عليه طبعاً لو أنه سقط وكانت ستنظر إلى وجهه من جديد لو أنه لم يسقط ولكن كان سيبقى بينهما إلى الأبد الأثر المتجدد دائماً والخالد: بحيث أنه ظل طوال ليل يوم الجمعة يُحاول أنْ ينام على سرير غريب وطوال بعد ظهيرة اليوم التالي أيضاً في انتظار بداية المباراة وتمنى التوفق للفريق إذا لم يتمكن من الحضور بما أنه ربما يكون ذهنه شديد الانشغال والأمر لا يستحق: إلى أنْ انطلقت الصافرة الأولى وبدأ اللعب ولاحقاً إلى أنْ قبض على الكرة وهو في أسفل تكتُّل الفريقين وضمها إلى صدره وامتلأ فمه ومنخريه بماء الكلس الجاف المتناثر الذي يُحدد خط المرمى سمع وميّز فوق كل الآخرين الصوت الوحيد الزاعق الدال على الانتصار وعلى

التعطش إلى الدماء ونهضَ أخيراً وضربته الريح وشاهدها في مقدمة الحشد ليست جالسة في المُدرّج المسقوف بل بين المهرولين وتركض جيئة وذهاباً على طول الخط الجانبي تتابع كل خطوة في اللعبة، ثم في السيارة في تلك الأمسية في طريق العودة إلى جيفرسون، هو جالس في المقعد الأمامي بجوار السائق المُستأجَر وأمه وثلاثة من اللاعبين الآخرين في الخلف وصوتها مملوء بالفخر والصفاء وخالٍ من الشفقة كما كان يمكن لصوته أنْ يكون: " ألا تزال ذراعك تؤلمك؟ " – وولج الرواق وعندئذٍ فقط اكتشفَ أنّه توقّع أنْ يجد أنها لا تزال داخل الباب الأمامي ولا يزال شعرها مبعثراً وترتدي منامتها وهو عائد حتى بعد الساعة الثالثة إلى العويل المتواصِل والمستمر. ولكن بدل هذا وجد والده يزأر وخرج من غرفة الطعام ولا يزال يزأر على الرغم من أنّ خاله يرد بالزعيق في وجهه مباشرة تقريباً:

" تشارلي، تشارلي. اللعنة، هلا انتظرت؟ " وعندئذٍ فقط جاءت أمه بملابسها الكاملة، نشطة ومنهمكة وهادئة على طول الرواق عائدة من الخلف، من المطبخ، قائلة لوالده من دون حتى أنْ ترفع صوتها:

" تشارلي. عُد وأكمل إفطارك. إنّ بارالي متوعكة هذا الصباح ولا تريد أنْ تقضي النهار كله في تحضير وجبة العشاء: " ثم قالت له – الوجه المألوف المُحب والثابت الذي عرفه طوال حياته ولذلك لم يتمكن من وصفه لكي يتعرّف شخصٌ غريب عليه ولا تعرّفَ عليه نفسه من وصف أي شخص بل فقط هادئ ورشيق وحتى شارد قليلاً الآن، العويل عويل فقط بسبب العادة القديمة المُستهلكة للغته: " أنت لم تغسل وجهك: " دون حتى أنْ تتوقف لترى إنْ كان يسمعها، ارتقى أعلى الدرَج ومنه إلى الحمّام، بل وفتح الحنفية وحمل الصابون بيديه ووقف والمنشفة مفتوحة تنتظر، الوجه المألوف يحمل تعبير الذهول

والاحتجاج والقلق والإنكار التامّ المألوف الذي حمله طوال حياته كلما قام بعمل يُبعِده خطوة أخرى عن البداية، عن الطفولة: عندما أهداه خاله مهر شتلند كان قد تعلّم أنْ يؤدي قفزات مسافتها ثماني عشرة أو أربع وعشرين بوصة وعندما أهداه والده أول بندقية حقيقية تطلق البارود وفي عصر أحد الأيام عندما أحضر له السائس هايبوي على متن الشاحنة وامتطى للمرة الأولى ووقف هايبوي على قوائمه الخلفية صرختْ وقال صوت السائس الهادئ " اضربه بقوة على رأسه عندما يفعل ذلك. أنت لا تريده أنْ يسقط نحو الخلف عليك " لكنَّ العضلات عادت فقط إلى التعبير القديم عبر الشرود وطول الاستخدام بينما صوتها انتقى فقط بشرود وطول الاستخدام العويلَ اللفظيَّ المُستهلَكَ لأنه كان هناك شيء آخر فيه الآن - الشيء نفسه الذي كان في السيارة بعد ظهيرة ذلك اليوم عندما قالت " ذراعك لن تعُد تؤلمك الآن، أليس كذلك؟ " وبعد ظهيرة يوم آخر عندما عاد والده إلى المنزل ووجده يمتطي هايبوي ويقفز فوق حوض الماء الإسمنتيّ في الأرض البور، وأمه تتكئ على السياج تراقب وحنق والده من الارتياح والغضب وصوت أمه الهادئ هذه المرة " ولِمَ لا؟ الحوض ليس طويلاً بقدر طول ذلك الشيء الشبيه بالسياج المُهلهَل الذي اشتريتَ له وليس حتى مُثبّتاً بمسامير: " بحيث حتى وهو فاتر الهمة ويرغب في النوم ميّز ذلك وأدار وجهه ويداه تقطران وصرخ فيها بحنق مذهول وغير مُصدِّق: " لن تذهبي أنت أيضاً! لا يمكنك أنْ تذهبي! " ثم على الرغم من تراخيه ورغبته في النوم أدرك السذاجة الحمقاء لكل مَنْ يستخدم كلمة لا يمكنك في أي موضوع وبهذا يلعب بورقته الأخيرة اليائسة: " إذا ذهبتِ، فلن أذهب! أتسمعين؟ لن أذهب! "

قالت " جفِّف وجهك وسرِّح شعرك، ثم انزل واشرب قهوتك "

هذا أيضاً. كانت بارالي تبدو على ما يُرام أيضاً لأنَّ خاله كان

يتحدث عبر الهاتف في الرواق عندما ولج هو غرفة الطعام، وباشر والده بالزئير من جديد حتى قبل أنْ يجلس:

" اللعنة، لِمَ لم تُخبرني في الليلة السابقة؟ إياك أنْ تفعل من جديد"

قال خاله وهو قادم من الرواق " لأنكَ ما كنتَ لتُصدّقه. ما كنت لتصغي إليه. هذه المهمة تحتاج إلى امرأة عجوز وصبيين، من أجل تصديق حقيقة لسبب واحد هو أنها الحقيقة، نطقَ بها رجل عجوز بنبرة شفقة وإيمان مُستحقين لشخص قادر على الشفقة حتى عندما لم يُصدّقه أحد. وهو ما لم تُصدقه أنت في أول الأمر " قال خاله له. " متى بدأتَ حقاً بتصديقه؟ عندما فتحت التابوت، أليس كذلك؟ أريد أنْ أعرف، حقاً. لعلي لستُ عجوزاً جداً على التعلُّم. متى كان ذلك؟ "

قال " لا أعلم ". لأنه لم يكن يعلم. لقد بدا له أنه كان يعلم طوال الوقت. ثم بدا له أنه لم يُصدِّق لوكاس حقاً أبداً . ثم بدا له أنَّ هذا لم يحدث أبداً، تململ مرة أخرى من دون أنْ يتحرك ليخرج من عمق أعماق النوم إلا على الأقل لبعض الوقت، هذا ما كسبه على أية حال، لعله كافٍ ليُحقق أمانه لبعض الوقت كالأقراص التي يتناولها سائقو الشاحنات الليلية ليست بحجم أزرار القميص ولكنها تحتوي ما يكفي من اليقظة المُركّزة من أجل بلوغ البلدة التالية لأنَّ أمه كانت في الغرفة الآن رشيقة وهادئة، تضع فنجان القهوة أمامه بحيث لو أنَّ بارالي هي التي فعلتْ ذلك لقالت إنَّ بارالي دلقتها عليه: وهي السبب، أي القهوة، في أنَّ لا أبيه ولا خاله حتى نظرا إليها، بل على العكس لقد أبدى والده استغرابه:

" قهوة؟ ما هذا بحق الجحيم؟ لقد حسبتُ أنَّ الاتّفاق كان أنك عندما وافقت أخيراً على أنْ يشتري غافين ذلك الحصان الذي لم يطلبه ولا حتى قبلَ ملء ملعقة من القهوة إلى أنْ بلغ الثامنة عشرة

من العمر: " وأمه لم تكن حتى تُصغي، باليد نفسها وبالطريقة نفسها نصف تُقحِم ونصف تدفع وعاء الكريما ثم وعاء السُكّر ليُصبحا في متناوله وتلتفت إلى الخلف نحو المطبخ، وصوتها لا ينم كثيراً عن الاستعجال والنزق: كان فقط رشيقاً:

" اشربها الآن. إننا متأخرون أصلاً: " والان نظرا إليها للمرة الأولى: مرتدية ملابسها، وحتى القبعة، وذراعها المعقوفة ممدودة على طولها بسلّة القش ومن محتوياتها قامت برتق جواربه وجوارب والده وخاله حسب ما يتذكّر، على الرغم من أنَّ خاله لم ير في أول الأمر القبعة وبدا لوهلة من الزمن أنه انضم إليه في الدهشة المرتعبة نفسها التي شعر بها في الحمّام.

قال خاله " ماغي! لا يمكنك أنْ تذهبي! تشارلي - "

قالت أمّه، دون حتى أنْ تتوقف، " لا أنوي هذا. هذه المرة عليكم أنتم الرجال أنْ تقوموا بالحفر. أنا ذاهبة إلى السجن: " كانت قد أصبحت في المطبخ الآن ووحده صوتها يعود: " لن أدع الآنسة هابرشام تجلس هناك وحدها والمقاطعة برمتها تُحدّق ببلهٍ إليها. حالما أنتهي من مساعدة بارالي في إعداد العشاء سوف - " ولكن ليس تموت تتلاشى: بل تتوقف، تستقيل: بما أنها صرفتهم على الرغم من أنَّ والده حاول مرة أخرى:

" يجب أنْ يذهب إلى المدرسة "

ولكن حتى خاله لم يُصغ. قال خاله " يمكنك أنْ تقود شاحنة الآنسة يونيس، أليس كذلك؟ لن يكون هناك دوام مدرسة للزنوج هذا اليوم من أجل ألك ساندر لذلك يمكنه أنْ يتركها عند السجن. وحتى لو كان هناك دوام أشكُّ في أنْ تسمح له بارالي أنْ يجتاز الفناء الأمامي ويدخل في الأسبوع القادم". ثم بدا أنَّ خاله حتى سمع والده أو على

الأقلّ قرّر أنْ يُجيبه: قال خاله " ولا أية مدرسة للبيض أيضاً لو أنَّ هذا الفتى لم يُصغِ إلى لوكاس، وما كنتُ أنا لأفعل، وللآنسة هابرشام، و لم أفعل هذا. ما رأيك؟ أيمكنك أنْ تبقى يقظاً طوال تلك المدة؟ يمكنك أنْ تأخذ غفوة حالما ننطلق على الطريق "

قال هو " نعم يا سيدي ". وهكذا شرب القهوة التي أيقظه الصابون والماء والتجفيف الشديد بما يكفي لجعله يعرف أنها لم تعجبه و لم يرغب فيها لكنها ليست كافيه بالنسبة إليه ليختار الأمر البسيط الذي يجب أنْ يقوم به بشأنها: ألا يشربها: رشفَ رشفة منها ثم أضاف المزيد من السُكّر حتى لم يعُد أي منهما - القهوة والسُكّر - ما هو عليه وأصبحت مزيجاً حلواً حريفاً مُثيراً للاشمئزاز في أسوأ ما فيهما إلى أنْ قال خاله:

" اللعنة، كفى " ونهضَ واقفاً وذهب إلى المطبخ ثم عاد مع وعاء من الحليب الساخن ووعاء من الحساء وأفرغ القهوة في الحساء وصبَّ الحليب فيه وقال " هيا. لا تفكر فيه. فقط اشربه " وشربه، من وعاء الحساء الذي أمسكه بيديه الاثنتين كما يشرب الماء من يقطينة، وبالكاد تذوّقه ومع ذلك رجع والده بكرسيه إلى الخلف وهو ينظر إليه ويتكلّم، يسأله إلى أي مدى كان ألك خائفاً وما إذا كان حتى أشدّ خوفاً من ألك ساندر لكنّ غروره لم يسمح له بأنْ يُظهره أمام رجل أسود وأنْ يُخبر الحقيقة الآن، أي أنه ما كان يمكن لأي منهما أنْ يلمس القبر في الظلام حتى بالقدر الكافي لرفع الأزهار عنه لو لم تنقلهم الانسة هابرشام بسيارتها إلى مكانه: قاطعَه خاله:

" بل أنَّ ألك ساندر أخبرك حينئذٍ بأنَّ أحدهم كان قد نبش القبر على عجل، ألم يفعل؟ "

قال هو " نعم يا سيدي " وقال خاله:

" أتعلم بمَ أفكِّر الآن؟ "

قال هو " كلا يا سيدي "

" إنني سعيد لأنَّ ألك ساندر لم يتمكن من اختراق الظلام وهتف باسم الرجل الذي كان يهبط التل حاملاً شيئاً أمامه على البغل ". وتذكَّر أنَّ: ثلاثتهم كانوا يفكرون في الأمر ولكن ولا واحد منهم جهر به: فقط وقفوا لا يرى أحدهم الآخر فوق فوهة الحفرة المُظلمة اللا مرئية.

قالت الآنسة هابرشام " اردماها ". فعلا، كان التراب المحفور (للمرة الخامسة) يغوص بشكلٍ أسرع بكثير من حفره على الرغم من أنه بدا دائماً تحت ضياء النجوم الخافت مملوءاً بالحفيف المستمر لأشجار الصنوبر في غياب الريح كهمهمة ذهول ولكن انتباه، مراقبة، فضول واحدة هائلة لا تتوقف؛ لا أخلاقية، منفصلة، مستقلّة ولا تفتقد شيئاً. قالت الآنسة هابرشام " أعِيدا الأزهار ".

قال هو " سيستغرق هذا بعض الوقت "

قالت ألانسة هابرشام " أعِيداها ". ففعلا.

قال هو " سأُحضِر الحصان. وأنت وألك ساندر – "

قالت الآنسة هابرشام " سنذهب جميعاً ". وهكذا جمعوا الأدوات والحبل (و لم يستخدموا مصباح البطارية من جديد) وقال ألك ساندر " انتظرا " وعثر باللمس على لوح الخشب الذي كان قد استخدمه في جرف التراب وحمله إلى أنْ تمكن من دفعه وأعاده إلى تحت الكنيسة وحلَّ رباط هايبوي وأمسك بالركاب لكنَّ الآنسة هابرشام قالت " كلا. سوف نقوده. يمكن لألك ساندر أنْ يمشي خلفي بالضبط وأنت تمشي خلف ألك ساندر بالضبط وتقود الحصان "

قال من جديد " يمكننا أنْ نُسرع أكثر - " ولم يتمكنا من رؤية وجهها: فقط القامة المنتصبة والنحيلة، الظل، القبعة التي لو وضعها أي شخص على رأسه لما بدت حتى كقبعة ولكن عليها كما على رأس جدَّته بدت مناسبة تماماً، لا تشبه أي شيء، كان صوتها ليس مرتفعاً، ليس أعلى من مستوى صوت الأنفاس، وكأنها حتى لا تُحرّك شفتيها، ليس لأحد، فقط تغمغم:

" إنه أفضل ما أعتقد أنه يجب عمله. لا أعرف أي شيء آخر نفعله "

قال " ربما ينبغي علينا جميعاً أنْ نمشي في الوسط "، بصوت مرتفع، مرتفع أكثر مما ينبغي، أعلى بمقدار ضعف ما كان ينوي أو يفكّر فيه؛ كان يجب أنْ يبقى المفعول على امتداد أميال خاصةً على امتداد ريف وكان قد أصبح يقظاً ومنتبهاً تماماً بفعل صفير لا يخفت لعل أرالي والعجوز إفرايم كانا سيُسميانه حتماً ولوكاس أيضاً " سلوك مبالغ فيه " من أشجار الصنوبر. كانت تنظر إليه الآن. كان يشعر بذلك.

قالت " لن أستطيع أبداً أنْ أشرح الأمر لأمك لكنَّ ألك ساندر لا عمل له هنا على الإطلاق. سيرا أنتما الاثنان خلفي تماماً وليكن الحصان هو آخرنا: " واستدارتْ وواصلتْ عمل أفضل ما يمكن عمله ولا يستطيع هو عمله لأنه حسب فهمه فإنّ كلمة " كمين " ذاتها كانت تعني " من الجناح، من الجانب ": عادوا برتل واحد على ذلك الدرب وهبطوا التل إلى حيث كان ألك ساندر قد قاد السيارة بين أجمات الأشجار: وقال في نفسه لو كنتُ في مكانه لكان ذلك هو المكان المناسب وهذا ما فعلته هي؛ قالت، " انتظر "

قال " كيف يمكنك أنْ تقفي أمامنا إذا لم نبقَ معاً؟ ". وهذه المرة لم تقُل حتى هذا كل ما أستطيع أنْ أفكر في عمله بل اكتفتْ بالوقوف

هناك بحيث أنّ ألك ساندر تجاوزها وانتقل إلى الشجيرات وأدار محرك الشاحنة وسار بها إلى الخلف وخرج بها وجعلها باتّجاه انحدار التل، كان المحرك يدور ولكن بلا أضواء وقالتْ " اربط العنان ودعه يذهب. ألن يذهب إلى المنزل؟ "

قال " آمل ذلك " ونهضَ واقفاً.

قالت " إذن اربطه إلى شجرة. سوف نعود ونُحضره حالما نقابل عمّك والسيد هامبتون - "

قال ألك ساندر " إذن يمكننا أنْ نراقبه يهبط التل مع ربما حصان أو البغل يتقدمه أيضاً ". سرَّعَ المُحرّك ثم أوقفه من جديد. " هيا، اركبا. إنه إما هنا يُراقبنا أو ليس هنا وإذا لم يكن هنا فنحن على ما يُرام وإذا كان هنا فقد تأخر في الانتظار عندما تركنا نعود إلى الشاحنة "

قالت " ثم قُد الحصان خلف الشاحنة. سوف نسير ببطء - "

قال ألك ساندر " كلا "؛ ومال نحو الخارج. " انطلقي أنت؛ سوف نضطر إلى انتظارك في كل الأحوال عندما نصل إلى البلدة "

وهكذا - لم يكن في حاجة إلى الحثّ - ترك هايبوي يهبط التل، فقط رافعاً رأسه إلى أعلى؛ سطع ضوء الشاحنة وتحرّكت وحالما أصبح هايبوي على أرض مستوية أخذ يُحاول حتى في المسافة القصيرة الفاصلة عن الطريق العامة أنْ يركض لكنه لجمه وتوجه إلى الطريق العامة، وأضواء الشاحنة ترتفع وتنتشر مع اقترابها من السطح المنبسط ثم أرخى الشكيمة، وبدأ هايبوي يركض، وهو يُقعقع بالشكيمة كعادته، معتقداً كعهده دائماً أنّ عضّ الشكيمة مرة أخرى سوف يجعلها تخرج قليلاً بقدر كافٍ ليقبض عليها بأسنانه، وقد بات يركض الآن عندما سُلطت أضواء الشاحنة على الطريق العامة أيضاً، وقوائمه توقع بثماني ضربات جوفاء على الجسر ومال على الريح القوية المظلمة

وأطلق عنانه، وعلى امتداد نصف ميل كامل لم تُر أضواء الشاحنة إلى أنْ أبطأ خطوته لتلائم الطريق الطويلة القاسية وكان قد بقي مسافة ميل قبل أنْ تتجاوزهم الشاحنة ومن ثم مرّتْ واقترب المصباح الخلفي ذي اللون الياقوتي ومن ثم ابتعد ومن ثم اختفى ولكن على الأقلّ خرج من بين أشجار الصنوبر، وتحرر من ذلك الصفير البعيد المُهيمن غير الآبه ولا يفوته شيء مما يُقال للمُحيط كله: انظر. انظر: ولكن كانوا لا يزالون يقولون ذلك في مكان ما وكانوا حتماً يقولونه منذ مدة طويلة لأهالي بيت فور، من آل غاوري وإنغرام ووركيت وفريجر لكي يسمع الجميع وهكذا لا يعود يفكر في الأمر وهكذا توقف عن التفكير فيه الآن، كل ذلك في اللحظة التي تذكّره فيها، مزدرداً آخر ما تبقّى في الوعاء وتاركاً إياه بينما انتزع والده بصورة أو بأخرى نفسه عن الطاولة، مُقعقعاً بأرجل كرسيه وعائداً عبر الغرفة، قائلاً:

" ربما من الأفضل أنْ أذهب إلى العمل. على أحدنا هنا أنْ يكسب بعض القوت بينما بقيتكم تلعب عسكر وحرامية: " وخرج ومن الجليّ أنَّ القهوة أثّرتْ على ما سمّاه عمليات تفكيره أو على أي حال ما يُسميه الناس التفكير لأنه الآن بات يعلم السبب من أجل والده أيضاً – الحنق الذي كان مُريحاً بعد الحدث وكان عليه أنْ يُعبّر عن نفسه بطريقة ما واختار الغضب ليس لأنه كان سيمنعه من الذهاب بل لأنه لم تتوفر لديه فرصة لفعل ذلك، التفنيد المرح الهازئ الزائف لشجاعته وشجاعة ألك ساندر التي أجفلتْ ليس أمام قبر منبوش في الظلام بل أمام إرادة الآنسة هابرشام – في الحقيقة كامل التشهير ثقيل الوطأة للأمر كله باختزاله إلى ما يشبه مُطاردة الساحرات في روضة أطفال: الذي ربما كان الشكل الذكوري لرفض تصديق أيضاً أنه كان ما سمّاه خاله راشداً بالقدر الذي يسمح له بتثبيت زر بنطلونه ولذلك ترك التفكير في والده، ولدى سماعه أنَّ أمّه توشك أنْ تظهر من المطبخ دفع كرسيه إلى الخلف ونهض واقفاً وفكّر فجأة كم أنَّ القهوة كانت

تمثّل أكثر بكثير مما اعتقد ولكن لا أحد حذّره من أنها تُثير أوهاماً كما يفعل الكوكايين أو الأفيون: وهو يرى يراقبُ الضجيج والهدير اللذين يُثيرهما والده يفضحان ويختفيان كنفخة من دخان أو ضباب، ليس فقط يكشفان النقاب بل ويعرضان الرجل الذي أنجبه وهو ينظر خلفه إليه عبر الهوة الفاغرة لذلك الإنجاب ليس فقط بفخر بل وبحسد أيضاً؛ إنّ إنكار خاله لذاته وتعذيبه البليغ لها هما الزائفان وكان والده ينهش في العَظَمة المُرّة الحقيقية العُضال لكل ما لم يتوافق مع الزمن، لكونه وُلِدَ أبكر مما ينبغي أو متأخراً أكثر مما يجب ليكون في سن السادسة عشرة وينطلق على متن جواد عشرة أميال في الظلام لكي يُنقذ عنق زنجي عجوز وقح وبلا أصدقاء.

ولكن على الأقلّ كان يقظاً. على أية حال كانت القهوة هي التي أنجزت ذلك. كان لا يزال في حاجة إلى غفوة لكنه لم يعد يستطيع ذلك الآن؛ كانت الرغبة في النوم موجودة لكنّ اليقظة الآن هي التي كان عليه أنْ يكافحها ويُخمدها. كانت الساعة عندئذٍ قد تجاوزت الثامنة؛ مرّت إحدى حافلات مدارس المقاطعة وهو يستعد لإبعاد شاحنة الآنسة هابرشام عن حافة الرصيف وسوف يمتلئ الشارع بالأطفال أيضاً نشطين استعداداً لصباح يوم الاثنين حاملين كتباً مع علب من الكرتون تحوي وجبات الغداء ليتناولوها في أوقات الاستراحة وخلف حافلة المدرسة كانت سلسلة من السيارات والشاحنات الملطّخة بطين المقاطعة وغبارها متواصلة ومتلاصقة حتى أنّ خاله وأمه كان يمكن أنْ يكونا قد وصلا السجن قبل أنْ يتمكن من اجتيازها لأنّ يوم الاثنين كان يوم مزاد الأغراض المستعملة في مخازن المبيعات خلف الساحة وكان يستطيع أنْ يرى السيارات والشاحنات الفارغة تصطف في صف متراصّ على طول رصيف دار القضاء كصغار الخنازير على حوض العلف والرجال مع بضائعهم وعصي المشي لا يتوقفون بل يجتازون الساحة ويمشون على طوال الزقاق إلى مخازن المبيعات نحو

تبغ المضغ والسيجار غير المُشتعل من حظيرة إلى حظيرة وسط الروث الذي يفوح برائحة النشادر والمرهم وخوار العجول ورفس الجياد والبغال وعطسها وعربات النقل المُستعملة والمحاريث والبنادق وعدّة الفرس وساعات اليد ووحدهن النساء (القِلّة الباقية منهن منذ أنْ كان يوم مبيع الأشياء المُستعملة لا يشبه يوم السبت المُخصص للرجال) بقين حول الساحة والمخازن بحيث أنَّ الساحة نفسها خلت إلا من السيارات والشاحنات المتوقفة إلى أنْ يعود الرجال لمدة ساعة عند الظهيرة ليُقابلوهن في المقاهي والمطاعم.

على الأثر هذه المرة هزَّ نفسه، لا ردّة فعل الآن، وليس حتى من النوم بل من الوهم، وهو الذي حمل التنويم المغناطيسي وخرج معه من المنزل حتى إلى شمس النهار الساطعة، حتى وهو يقود الشاحنة الصغيرة التي لو أنه قادها في الليلة السابقة لليلة أمس لما لاحظ وجودها بعد والتي أصبحت منذ ليلة أمس جزءاً منيعاً من ذاكرته وتجربته وتنفّسه كهسيس قمامة محروقة أو كحفيف قطعة من المعدن على صندوق من خشب الصنوبر، خلال سراب فراغ ليس ببساطة لم تحدث فيه الليلة الفائتة بل لم يكن هناك يوم سبت، متذكراً الآن كأنه رآه فقط في هذه اللحظة أنّه لم يكن هناك أطفال في حافلة المدرسة بل فقط أناس بالغون وسيل السيارات والشاحنات التي تتبعها والآن تتبعه هو حيث نجح أخيراً في الاجتياز، بل إنَّ بعضها كان حتى في مزاد الأغراض المستعملة ليوم الاثنين (في يوم السبت يكون نصف الأسرّة المُسطّحة المفتوحة مزدحمة بهم، رجال ونساء وأطفال جاؤوا إلى البلدة بملابس وحلي رخيصة وتافهة) وكان ينبغي أنْ تنقل زنوجاً، ولم يكن هناك أي وجه أسود.

ولا كان هناك أي طفل في الشارع من محيط المدرسة على الرغم من أنه سمع من دون أنْ يُصغي بالقدر الكافي من خاله وهو يتكلم عبر الهاتف وعلِمَ أنَّ المدير اتصل متسائلاً هل يجعل اليوم دواماً مدرسياً أم لا وقال له خاله نعم، وهنا كان يرى في الساحة ثلاث حافلات

صفراء أُخَر من المفترض والنيّة أنْ تجلب أطفال المقاطعة إلى المدرسة لكنّ مالكها-متعهدها-مُشغلوها حوّلوها في أيام السبت والعُطل إلى وسيلة نقل بأجر ومن ثم الساحة نفسها، والسيارات والشاحنات المتوقفة كما ينبغي أنْ تكون دائماً لكنّ الساحة نفسها كانت تغصّ: لا أحد من الرجال كان يخرج إلى حظائر البضائع المُستعملة أو من النساء إلى المخازن بحيث بينما كان يوقِف الشاحنة الصغيرة على حافة الرصيف خلف سيارة خاله كان يرى ويشعر أين تموج الحركة وتتركّز، كان النبض والهدير يملآن الساحة كما يتدفق الحشد إلى قلب مهرجان أو إلى ملعب كرة القدم، يتدفق إلى الشارع وقد ازدحم أصلاً على طول الجانب المقابل للسجن إلى أنْ اجتازت مقدمته دكان الحدّاد حيث كان قد وقف بالأمس مُحاولاً ألا يكون مرئياً وكأنهم في انتظار مرور عرض عسكري (وفي منتصف الشارع تقريباً بحيث اضطُرّ سيل السيارات والشاحنات المتواصِل إلى أنْ ينعطف حوله عددٌ منها كمجموعة في موقف معاينة لمحَ في وسطه بدوره قبعة عمدة البلدة الرسمية ذات الشعار الذي كان في مثل تلك الساعة من اليوم يقفُ أمام مبنى المدرسة يُنظِّم حركة المرور لكي يعبر الأطفال الشارع ولم يكن مُضطراً إلى أنْ يتذكّر أنّ اسم العمدة هو إنغرام، أحد أفراد آل أنغرام من بيت فور جاء إلى البلدة كما كان أبناء منطقة بيت فور المرتدون يفعلون أحياناً ليتزوجوا من فتاة من البلدة ويُصبحوا حلاّقين ومساعدي عمدة وحرّاساً ليليين كما يأتي الأمراء الجرمان الحقيرين الصغار أحياناً من أماكنهم في تلال براندنبرغ ليتزوجوا من وارثات عروش أوروبا) - رجال ونساء ولكن لا أطفال، الوجوه القروية الذاوية والأعناق والظهور والأيدي التي لفحتها أشعة الشمس، والقمصان والبنطلونات التي بلون تراب الأرض الباهتة وبلا ربطات عنق والأثواب القطنية المطبوعة تعجّ بها الساحة والشارع وكأنّ المخازن نفسها قد اغلقتْ أبوابها وأقفلتها، لا يُحدقون حتى إلى الواجهة الجامدة للسجن وإلى النافذة المزودة

بالقضبان التي ظلت خالية وصامتة أيضاً طوال ثمان وأربعين ساعة حتى الآن بل فقط يتجمعون، يتراصون، لا يتوقعون ولا يترقبون ولا حتى ينتبهون بل فقط في حالة من الاستقرار التمهيدي كما قُبيل رفع الستارة في المسرح: واعتقد أنه عرف السبب: إنها العطلة: وهذا يعني لم يكن ذاك هو يوم السبت الذي لم يقع أبداً بل فقط ليلة أمس التي بالنسبة إليهم لم تحدث بعد، وليس فقط هم لم يعرفوا عن أمر الليلة السابقة ولكن لا أحد، ولا حتى هامبتون، الذي ربما أخبرهم لأنهم كانوا سيرفضون أنْ يُصدقوه؛ وعليه أخذ شيء أشبه بغمامة أو حجاب كالذي يكسو عين دجاجة ولم يكن يعلم حتى بوجوده يومض! من عينه ورآهم للمرة الأولى - الوجوه نفسها الذاوية الساكنة الشاردة تقريباً والقمصان والبنطلونات والأثواب القطنية النظيفة والباهتة نفسها لكنه لم يعُد الآن حشداً ينتظر رفع الستارة على خشبة مسرح وهمية بل يتجمّع في قاعة المحكمة في انتظار أنْ تصدر عن غرفة مكتب الشريف نداء أويز أويز أويز : هذه القاعة المُشرّفة؛ ليست حتى نافذة الصبر لأنَّ اللحظة لم تكن حتى قد حانت ليجلسوا من أجل صدور الحكم ليس على لوكاس بوشان، فقد كان قد أُدين بل على أهالي بيت فور الذين أتوا ليس ليشهدوا على ما سمّوه إقرار العدالة ولا حتى إنزال العقوبة بل لكي يشهدوا على أنَّ أهالي بيت فور ما كان ينبغي أنْ يخذلوا منزلة الرجل الأبيض الرفيعة.

بحيث كان قد توقف وتعطلتْ الشاحنة وكانت قد بدأتْ تواً تدور عندما توقف: لدى تذكّره الليلة السابقة انتابه إحساس بالكرامة بالكبرياء عندما حرّضَ وبصورة ما قاد وعلى أية حال رافق الضربة المُفاجئة التي لم يعرف قيمتها أي من البالغين المسؤولين، ناهيك عن الحاجة إليها، وانتابه أيضاً شيء من الحذر لدى تذكّره كيف أنَّ خاله لم يقُل شيئاً يكفي لحضّ الرعاع على الهياج لذلك ربما حتى طفل يركض باتجاه السجن كان سيكفي: ثم تذكّر من جديد وجوه أعداد هائلة

لكنها متطابقة بصورة غريبة في افتقارها إلى الهوية الفردية، إلى تخلّيها الكامل عن الهوية الفردية لأخرى لا نشتاق إليها، ولا حتى قابلة للحث، وتكاد تكون مرحة في نسيانها الكامل لتهديدها، ولا يُشتت جمعها مائة ن الأطفال الراكضين: ومن ثم في اللحظة نفسها الوجه الآخر؛ لا يُعيقها أو يحرفها مائة ضعف من أولئك المائة، ولما أدرك عقمها المحض عندما كانت لا تزال بجرد نيّة ومن ثم انعدام قابليتها للوزن المادي عندما دخلتْ مرحلة التنفيذ عرِفَ ضخامة ما عبث به دون وعي وأنَّ أول دافع غريزي له - أنْ يعود إلى المنزل ويسرج الحصان ويلجمه ويمتطيه بينما الغراب يطير ويترنح للمرة الأخيرة من الإرهاق ومن ثم ينام ومن ثم يعود بعد أنْ ينتهي كل شيء - كان على صواب (لأنه ببساطة تصادف أنه لم يكن يتيماً ولا حتى هرب) لأنه بدا له الآن أنه مسؤول عن إخراجه إلى العلن وضوء النهار شيء صاعقاً ومُخزٍ من كامل الأساس الأبيض للمقاطعة الذي عليه هو نفسه أنْ يتقاسمه أيضاً بما أنه هو أيضاً نشأ منه، وإلا لكان توهج وسطع خارجاً من بيت فور ومن ثم اختفى عائداً إلى ظلامه أو على الأقل إلى انعدام الرؤية مع انطفاء جمر صَلبْ لوكاس.

لكنَّ الأوان كان قد فات الآن، لم يتمكن حتى من أنْ يتبرّأ، يتخلّى، يهرب: باب السجن مفتوح ولا يزال قبالته واستطاع أنْ يرى الآنسة هابرشام جالسة على الكرسي الذي كان ليغيت قد جلس عليه، وصندوق الكرتون على الأرض عند قدميها وثوب من نوع ما على حجرها؛ كانت لا تزال تعتمر القبعة ورأى الحركة الثابتة ليدها ومِرفقها وبدا له أنَّ في استطاعته حتى أنْ يرى ومض وبريق الابرة في يدها على الرغم من معرفته أنه لا يستطيع انْ يرى من تلك المسافة؛ لكنَّ خاله كان يقفُ في الطريق لذلك كان عليه أنْ يتحرك أكثر على طول المشى ولكن في تلك اللحظة التفتَ خاله وخرج من الباب واجتاز من جديد الشرفة ومن ثم استطاع أنْ يراها أيضاً على الكرسي

الثاني بجوار الآنسة هابرشام؛ توقفتْ سيارة خلفه عند حافة الطريق وعندئذٍ وبلا استعجال انتقت جورباً من السلّة وأقحمت بيضة الرفو فيه؛ بل إنها كانت قد غرزت الإبرة التي أُدخِلَ فيها الخيط في مقدمة ثوبها وأصبح في استطاعته الآن أنْ يُميِّز ومضها وبريقها ربما لأنه كان يعلم جيداً الحركة، لدانة اليد المألوفة الضيّقة التي كان طالما راقبها طوال حياته ولكن على الأقلّ ما كان لأيِ رجل أنْ يُجادله في أنه جوربه.

قال الشريف من خلفه " مَنْ هذا؟ ". التفتَ. كان الشريف جالساً خلف مقود سيارته، وعنقه وكتفاه مقوّسة ومُحدّبة لكي يتمكّن من أنْ يُنعِم النظر إلى ما تحت أعلى إطار النافذة. كان المُحرّك لا يزال يدور ورأى في خلفيّة السيارة مقبضيّ رفشين والمعول أيضاً التي لن يحتاجا إليها وعلى المقعد الخلفي كان زنجيان بسِتْرتين زرقاوين وبنطلوني المحكومين بحلقاتهما السوداء الملوّثين كالتي يرتديها أفراد عصابات الشوارع يجلسان بهدوء ولا يأتيان بأية حركة ما عدا تلألؤ بياض عيونهما وطرفها.

قال خاله من خلفه أيضاً " مَنْ يمكن أنْ يكون؟ " ولكن هذه المرة لم يلتفت ولا حتى أصغى أكثر من المعتاد لأنّ ثلاثة رجال ظهروا فجأة من الشارع وتوقفوا بجوار السيارة وبينما هو يراقب اقتربَ خمسة أو ستة منهم أو أكثر وبعد لحظة أخرى بدأ الحشد كله يتدفق عبر الشارع؛ كانت سيارة مارّة قد توقفت فجأة (ومن ثم تبعتها أخرى) في أول الأمر لكي لا تصطدما بهم ومن ثم لكي يميل راكبوهما وينظروا إلى سيارة الشريف حيث كان أول الواصلين إليها قد انحنى لكي يُنعِم النظر إلى داخلها، ويداه السمراوان الخليقتان بمزارع تقبضان على حافة النافذة المفتوحة، ووجه الأسمر الذاوي مُقحَم داخل السيارة بفضول وتحدٍ وبلا خجل بينما خلفه نسخه المُتراكمة بقبعاتهم اللباد والباناما المُبقّعة بالعرق تُصغي.

قال الرجل " علام تنوي، يا هوب؟ ألا تعلم أنّ المحكمة العليا سوف تنال منك، وأنت تُبدِّد أموال المقاطعة بهذه الطريقة؟ ألم تسمع عن قانون الإعدام بلا محاكمة الذي مرّره اليانكي؟ وأنّ الذين سيعدمون زنجياً بلا محاكمة من المفترَض أنْ ينبشوا القبر؟"

قال الثاني " ربما هو يحمل الرفوش إلى هناك من أجل نَبْ غاوري وأهله ليتدربوا بها "

قال الثالث " إذن من الجيد أنْ يحمل هوب الرفوش أيضاً. إذا كان يعتمد على أي شخص من آل غاوري ليحفر حفرة أو ليفعل أي شيء آخر يمكن أنْ يجعل العرق يتصبب، فسوف يحتاج إليها حتماً "

قال الرابع "أو لعلها ليست رفوشاً. لعل آل غاوري سيتدربون بها". وعلى الرغم من أنَّ أحدهم قهقه إلا أنهم لم يكونوا يضحكون، وحينئذٍ كانت هناك حفنة من الأشخاص يلتفون حول السيارة ليُلقوا نظرة سريعة شاملة إلى الجزء الخلفي منها حيث اثنان من الزنوج يجلسان لا يأتيان بأية حركة كأنهما محفوران على الخشب يُحدقان أمامهما مباشرة إلى الفراغ لا تند عنهما أية حركة حتى التنفُّس خلاف الاتّساع الدقيق لمُقل عيونهما وضيق بياضها، ثم ينظرون إلى الشريف من جديد بتعبير الوجه نفسه الذي كان قد شاهده على الوجوه المُنتظرة توقف دوران الأشرطة خلف زجاج الآلات الشقيّة.

قال الشريف " أعتقد أنَّ هذا صحيح ". أبرزَ رأسه وذراعاً ضخمةً من النافذة وبذراع واحدةٍ دفع الأقرب إليه إلى الخلف بعيداً عن السيارة بلا جهد وكأنه يزيح ستارة، رافعاً صوته ولكن ليس كثيراً: " ويلي ". جاء النائب؛ كان يسمعه قبل أنْ يظهر:

" أفسحوا الطريق، يا شباب. دعوني أرى ما الذي يجول في خلد الشريف هذا الصباح "

قال الشريف " لِمَ لا تُبعِد هؤلاء الناس عن الشارع لكي تصل السيارات إلى البلدة؟ لعلهم يُريدون أنْ يتجمعوا في المكان ويتفرجوا على السجن أيضاً "

قال النائب " حاضر ". استدار، وهو يجرف بيديه الأقرب إليه من الناس، دون أنْ يلمسهم، وكأنه يقود قطيعاً من الماشية. قال " انتهينا يا شباب "

لم يتحركوا، ولا يزالون ينظرون ما بعد النائب إلى الشريف، ليس بتحدٍ، ليس تجرؤاً على أحد: فقط بتسامُح، وودّ، إلى درجة تقترب من الكياسة.

قال صوت " هذا لا يجوز، أيها الشريف "، ثم قال آخر:

" إنَّ الشارع مكان حر، أليس كذلك، أيها الشريف؟ إنكم أهل البلدة لا تمانعون إذا وقفنا فيه ما دمنا نُنفق نقودنا معكم، أليس كذلك؟ "

قال الشريف " ولكن ليس لتمنعوا باقي الناس من محاولة الوصول إلى البلدة ليُنفقوا قليلاً. تحركوا الآن. أبعدهم عن الطريق، يا ويلي "

قال النائب " هيا، يا شباب. هناك أناس آخرون غيركم يريدون أنْ يصلوا إلى حيث يمكنهم أنْ يُشاهدوا " عندئذٍ تحركوا ولكن بلا عجلة، والنائب يقودهم إلى الخلف عبر الشارع كامرأة تقود سرباً من الدجاج عبر الخمّ، فقط بالتحكّم في الاتّجاه وليس في السرعة وليس كثيراً من هذا، الدواجن تتحرك أمام مئزرها المُرفرف ليس بتمرُّد، بل فقط بشكل غير متوقَّع، دون خوف منها ولا حتى برعب؛ السيارة المتوقفة والسيارات التي خلفها تحركوا أيضاً، ببط، جارَّة حمولتها من الوجوه المشرئبة؛ وسمع النائب يصرخ في السائقين: " تقدموا. تقدموا. هناك سيارات خلفكم – "

عاد الشريف ينظر من جديد إلى خاله. " أين الآخر؟ "

قال خاله " أي آخر؟ "

" التحرّي الآخر. الذي يستطيع أنْ يرى في الظلام "

قال خاله " ألك ساندر. أتريده أيضاً؟ "

قال الشريف " كلا. أنا فقط استفقدته. فقط فوجئتُ لأنني وجدتُ كائناً بشرياً واحداً في هذه المقاطعة يتمتع بما يكفي من حُسن الذوق والحُكم ليلازم المنزل هذا اليوم . أأنت مستعد؟ فلننطلق "

قال خاله " حسن ". كان معروفاً عن الشريف أنه سائق يستهلك سيارة مدة عام بقسوة كما يستهلك كنّاس المكانس: ليس بالسرعة بل ببساطة بسبب الاحتكاك؛ والآن ابتعدت السيارة عن حافة الطريق وانطلق في الحال. ذهب خاله إلى سيارتهما وفتح الباب. قال خاله "اركبْ"

ثم نطقها؛ على الأقلّ كان الأمر شديد البساطة: " أنا لن أذهب "

توقف خاله وعندئذٍ رأى الوجه الكئيب والساخر يراقبه، العينين الساخرتين اللتين لم تفقدا أي شيء خلال ذلك الوقت الوجيز؛ في الواقع وحسب معرفته الطويلة لهما لم تفقدا أي شيء حتى الليلة السابقة.

قال خاله " آه، إنَّ الآنسة هابرشام سيدة محترمة طبعاً ولكن تلك الأخرى تخصّك "

قال " انظر إليهما "، دون أنْ يتحرك، ولا حتى شفتاه. " عبر الشارع. في الساحة أيضاً ولا أحد غير ويلي إنغرام وتلك القلنسوة اللعينة – "

قال خاله " ألم تسمعهم يتحدثون مع هامبتون؟ "

قال " سمعتهم. لم يكونوا حتى يضحكون على نكاتهم. كانوا يضحكون عليه "

قال خاله " لم يكونوا حتى يسخرون منه. لم يكونوا حتى يستهجنون تصرفه. كانوا فقط يراقبونه. يراقبونه ويراقبون أهالي بيت فور، ليروا ماذا سيحدث. إنَّ أولئك الناس جاؤوا إلى البلدة ليروا ماذا سيفعل كل طرف منهما "

قال " كلا، بل أكثر من هذا "

قال خاله، وبرصانة تامة هذه المرة، " حسن. فلنُسلِّم بهذا. وماذا بعد؟ "

" ماذا لو – " لكنَّ خاله قاطعه.

" ماذا لو أنَّ أهالي بيت فور دخلوا وأخذوا كرسي أمك وكرسي الآنسة هابرشام وحملوهما إلى الفناء بحيث تكونان بعيدتين عن الطريق؟ إنَّ لوكاس غير موجود في تلك الزنزانة. إنه في منزل الآنسة هابرشام، لعله الآن يجلس في المطبخ ويتناول طعام الإفطار. ماذا اعتقدتَ أنَّ ويل ليغيت كان يفعل بولوجه من الباب الخلفي في غضون خمسة عشر دقيقة من دخولنا إلى هناك ونقل الخبر إلى هامبتون؟ بل إنَّ ألك ساندر سمعه يتكلم عبر الهاتف "

قال " إذن ما سبب استعجال السيد هامبتون الشديد؟ ": وكان صوت خاله قد أضحى رصيناً تماماً: ولكن فقط رصين، لا أكثر:

" لأنَّ الطريقة المُثلى للكف عن اضطرارنا افتراض أو إنكار أي منهما هي أنْ نخرج إلى هناك والقيام بما ينبغي القيام به ومن ثم نعود إلى هنا. اقفز إلى السيارة "

الفصل السابع

لم يشاهدا سيارة الشريف من جديد إلا عندما وصلا الكنيسة. بالنسبة إليه كان السبب النوم وهو الذي على الرغم من القهوة ربما توقّع ذلك أو في الواقع توقعه فعلاً. وحتى اللحظة التي اقترب فيها وهو يقود الشاحنة بالقدر الكافي ليرى الساحة ومن ثم تجمُّع الناس المُصطفّين على الجانب المقابل من الشارع أمام السجن توقَّعَ أنه حالما يخرج هو وخاله عائدين إلى الكنيسة، لن يُكافح النوم من جديد، بقهوة أو من دونها، بل على العكس سوف يستسلم ويقبل به وهكذا على طول تسعة أميال من الحصى وميل من المنحدر القذر استعاد على الأقلّ نصف ساعة من الساعات الثماني التي كان قد خسرها في الليلة السابقة وأيضاً - كما بدا له حينئذٍ - المرات الثلاث أو الأربع التي أمضاها من الساعات في محاولة الكفّ عن التفكير في لوكاس دوشان في الليلة السابقة.

وعندما وصلا إلى البلدة قُبيل الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم ما كان يمكن لأحد أنْ يُقنعه بأنه بحلول ذلك الوقت، أي حوالي الساعة التاسعة، لن يستعيد على الأقلّ خمس ساعات ونصف من النوم إذا لم نقُل الساعات الست، مُتذكّراً كيف أنه - ومن دون شك الآنسة هابرشام وألك ساندر أيضاً - اعتقد أنهم حالما يدخلون مع خاله منزل الشريف سينتهي الأمر؛ سوف يدخلون من الباب الأمامي ويستلقون على راحة يد الشريف العريضة القادرة المرسومة كما ترمي قبعتك على طاولة الرواق في أثناء مرورك، وكامل كوابيس الليل حول الشك والتردُّد والرق والتوتّر والتعب والصدمة والذهول وأيضاً (ولنعترف

بهذا) بعض الخوف. لكنّ ذلك لم يحدث وبات يعلم الآن أنه لم يتوقع ذلك حقاً؛ الفكرة لم تخطر على بالهم فقط لأنهم كانوا مُرهقين، ليس من انعدام النوم وفرط التعب والتوتر بقدر ما كانوا مُرهقين من الصدمة والذهول والإحباط؛ إنه لم يحتج إلى الوجوه المتجمّعة التي تراقبُ الواجهة الآجريّة الصمّاء للسجن ولا تلك التي اجتازت الشارع بل وسدّته في أثناء احتشادها حول سيارة الشريف، ليقرأ ما في داخلها ومن ثم ينبذه بتلك النظرة السريعة المنسجمة المشتركة الشاملة الخالية من الخجل والثقة ولا يمكن إنكارها كما يتوقف الأب المشغول برهة ليتفقّد ويتوقع نوايا طفل محبوب وإنْ كان غير موثوق كثيراً. إذا احتاج إلى أي شيء كان يناله حتماً - الوجوه الأصوات ليست حتى تسخر ولا حتى تستهجن: فقط واضحة مازحة وخالية من الشفقة - متمركزاً تحت أول استرخاء استسلام كدبوس في فراش لذلك كان يقظاً تماماً حتى كخاله الذي نام طوال الليل أو على الأقل الردح الأكبر منه، متحرراً الآن من البلدة وينطلق مُسرعاً الآن، ماراً خلال الميل الأول بآخر السيارات والشاحنات ومن ثم لم يعد هناك أي منها لأنّ كل مَنْ سيأتي إلى البلدة في ذلك اليوم سيكون في ذلك الوقت داخل مجال ذلك الميل الأخير المتقلّص باستمرار - الجزء الأبيض بأكمله من المقاطعة يستفيد من الطقس الحسن ومن الطرقات الجيدة في أحوال الطقس كلها التي كانت ملكهم لأنّ ضرائبهم وأصواتهم الانتخابية وأصوات أقاربهم ومعارفهم التي يمكن أنْ تمارس ضغطاً على أعضاء مجلس الشيوخ الذين في أيديهم منح الموارد المالية هي التي شقّتها، من أجل الوصول بسرعة إلى البلدة التي كانت بدورها ملكهم بما أنها وُجِدَتْ فقط بمعاناتهم ودعمهم لتحتوي سجنهم وقاعة محكمتهم، ليحتشدوا ويزدحموا فيها ويسدّوا شوارعها أيضاً إذا وجدوا ذلك مناسباً: انتظار صبور وبلا شفقة، لا يُحثّون ولا يُكبحون ولا يفرّقون ولا يُنكّرون بما أنّ المقتول والقاتل أيضاً يُخصانهم؛ المُهين والمبدأ

المُهان: الرجل الأبيض وسلب مكانه الشاغر، وحقّهم ليس فقط في تحقيق العدالة بل في الانتقام أيضاً في العطاء أو المنع.

عندئذٍ كانا ينطلقان بأقصى سرعة، أسرع مما استطاع أنْ يتذكّر أنَّ خاله قاد السيارة بها، على طول الطريق الذي كان قد سار فيه راكباً صهوة جواد في الليلة السابقة أما الآن فهما في وضح النهار، في صباح يوم لطيف يفوق الوصف من شهر أيار؛ الآن يستطيع أنْ يرى تفتُّح أزهار القرانيا البيضاء على امتداد السياجات التي تُحدد خط عمليات المسح القديمة أو تشمخ كراهبات في البقع الشبيهة بالأديرة وحزم الخمائل النضرة وثمار الخوخ والإجاص الوردية والبيضاء والبياض المتورِّد لبشائر أشجار التفّاح في البساتين التي كان فقط قد شمَّ أريجها في الليلة السابقة: ودائماً بعيداً عنهما وحولهما تمتد الأرض الثابتة – الحقول بأخاديدها الهندسية التي زُرِعَت فيها الذُرة عندما بدأتْ أوائل طيور الحمام تنادي في أواخر شهر آذار وفي نيسان، وزُرِعَ القطن عندما صرخت طيور السُبَد في الليل مع بداية شهر أيار قبل أسبوعَين: لكنها فارغة، خالية من أية حركة أو أية دلالة على حياة – منازل المزارع التي لا يتصاعد منها أي دخان لأنَّ وجبة الإفطار كانت عندئذٍ قد انتهت منذ وقت طويل ولا يُعدُّ أي غداء لأنه لن يعود أحد إلى المنزل ليأكله، أكواخ الزنوج غير المدهونة التي يجب أنْ يكون الأطفال شبه العُراة في أوقات صباح أيام الاثنين يزحفون ويُخربشون وسط غبار الأفنية المُجرّدة من العشب والأشجار خلف دواليب آلة العزق وأُطُر سيارات متهالكة وزجاجات السعوط الفارغة وعلب التنك وفي الأفنية الخلفية لابد أنَّ القدور الحديدية المسودّة بالدخان تغلي فوق نار الحطب بجوار السياجات المرتخية لبقع الأرض المزروعة بالخضروات وبدروب الدجاج وتصبح مُبهرجة الألوان مع هبوط الليل بما يُنشَر فيها من ملابس العمل والمآزر والمناشف والبذلات النقابية: ولكن ليس في صباح هذا اليوم، ليس الآن؛ الدواليب وما يُشبه الكعك المُحلّى من

المطاط الممضوغ والزجاجات وعلب التنك مُلقاة ومنتثرة ومنبوذة في التراب منذ تلك اللحظة بعد ظهيرة يوم السبت عندما صرخ أول صوت من داخل المنزل، وفي الأفنية الخلفية القدور تجثم فارغة وباردة بين رماد يوم الاثنين الأخير وحبال الغسيل الخالية منه وبينما السيارة تنطلق بأقصى سرعة مارة من أمام الأبواب الصلدة والخالية سوف يلمح ومض خاطف من النار في الموقد ولا يرى بل يحسّ بين الظلال دوران العيون الساكنة؛ ولكن فوق كل شيء، الحقول الخالية نفسها التي في كلٍ منها هذا اليوم وفي هذه الساعة في ثاني يوم اثنين من شهر أيار كان ينبغي أنْ يكون ثابتاً في تكرار رتيب رمز الأرض الحيّ - مجموعة من الطقوس الرسمية ذات مغزى يكاد يكون غامضاً متطابقاً ورتيباً كنقاط علاّم تربط مقعد المقاطعة بالإطار المُطلَق للمقاطعة كما تفعل نقاط العلاّم: الحيوان والمحراث والإنسان متكاملين في وحدة واحدة مع الموجة المتجمّدة لأخدودهم بجهد هائل وفي الوقت نفسه دون إحراز تقدّم، ذوو ثقل لا يمكن تحريكه وثابت كمجموعة من التماثيل المتصارعة تقفُ في مواجهة امتداد الأرض الهائل - إلى أنْ قال فجأة (كانا على مسافة ثمانية أميال من البلدة؛ وبدأ يظهر للعيان ارتفاع التلال الأزرق المائل إلى الخُضرة) بذهول غير مُصدِّق وشبه مصعوق لشخصٍ لم يكن قد شاهد زنجياً واحداً على مدى ثمانٍ وأربعين ساعة ما عدا بارالي وألك ساندر:

" هناك زنجي "

قال خاله " نعم. اليوم هو التاسع من شهر أيار. هذه المقاطعة تضم نصف ما مجموعه مائة واثنان وأربعون ألف إكر لم تُزرَع بعد. ويجب أنْ يبقى أحدهم في الوطن ويعمل: " - السيارة تندفع مخترقة المدى بحيث أنَّ حافة الحقل ومقدار حوالي خمسين ياردة تفصلهما هو والزنجي خلف المحراث تتلاقى عيونهما ووجهيهما قبل أنْ يُشيح

الزنجي بنظره بعيداً - الوجه أسود ويلمع بالعرق ومُتّقد بالجهد المبذول، متوتر ومُركّز وهادئ، والسيارة تنطلق كالومض مارة به بينما هو يميل خارج النافذة المفتوحة لينظر خلفه ثم التفت وهو على المقعد لينظر إلى الخلف من خلال النافذة الخلفية، يراقبهم ولا يزالون في تلاشيهم السريع الواضح - الرجل والبغل والمحراث الخشبي الذي ربطهما بالغضب وبالعزلة، بثبات وبدون تقدُّم على الأرض، يميلون بشدة نحو العدم.

بات في استطاعتهما الآن أنْ يُشاهدا التلال؛ يكادان يصلان - الارتفاع الطويل لحافة أشجار الصنوبر الأولى تشمخ عبر نصف الأفق وبعدها حسّ إحساسٌ بوجود غيرها، لا تبدو كتلتها أنها تندفع شامخة بسرعة من السهل بل مُعلّقة فوقه كما كان خاله قد أخبره أنَّ مناطق اسكوتلندا المرتفعة تفعل ما عدا هذا الانحدار السحيق والقلق؛ كان ذلك قبل عامين، وربما ثلاثة أعوام وكان خاله قد قال: " وهذا هو السبب في أنَّ الذين فضّلوا العيش هناك على قطع الأراضي الصغيرة التي لم تكن تُنتج أكثر من ثمانية أوعية من الذرة أو خمسين رطلاً من قطن النسالة في كل إكر حتى وإنْ لم تكن شديدة الانحدار على قُدرة بغل على جرّ محراث عبرها (لكنها لا ترغب في أنْ تُنتج القطن على أي حال، بل فقط الذرة وليس الكثير من هذا لأنه في الحقيقة لا يلزم الكثير من الذرة لخداع رجل ضخم مثله مع أولاده) هي عائلات غاوري ومكالم وفريجر وإنغرام الذين كان اسمهم إنغراهام ووركيت الذين كان اسمهم أوركهارت فقط الشخص الذي جلبه إلى أميركا والمسيسيبي لم يتمكن من نُطقه، وكان يُحب الشجار ويخشى الله ويؤمن بجهنم - " وكأنَّ خاله قرأ ما يجول في خلده، مُحافظاً على مؤشر السرعة على خمسة وخمسين خلال الميل الأخير من الأرض المُحصّاة (كان الطريق قد بدأ ينحدر نحو أسفل أشجار الصفصاف والسرو من الطريق الفرعية التي طولها تسعة أميال) متكلّماً، أي

متطوعاً بالكلام للمرة الأولى منذ أنْ غادرا البلدة:

" غاوري وفريجر ووركيت. وفي الوديان على طول الأنهار، على الأرض الشاسعة الغنيّة والسهلة حيث يمكن للرجل أنْ يزرع شيئاً يمكنه أنْ يبيعه جهاراً في وضح النهار، الأشخاص الذين أسماؤهم ليتلجون وغرينليف وآرمستيد وميلينغام وبوكرايت - " وسكت، والسيارة تهبط أسفل المنحدر، وتزيد من سرعتها بفعل وزنها؛ بات في استطاعته هنا أنْ يرى الجسر حيث كان ألك ساندر قد انتظره في الظلام وتحته كان هايبوي قد شمّ رائحة الوعث.

قال " بعده سوف نخرج عن الطريق العامة "

قال خاله " أعلم - والذين أسماؤهم سامبو أقاموا في كليهما، اختاروا المكانين لأنّ في استطاعتهم أنْ يتحملوا كليهما لأنّ في مقدورهم أنْ يتحملوا كل شيء ". كان الجسر قد أضحى قريباً جداً، والدرابزين الأبيض للمدخل فاغراً فاه مندفعاً نحوهما. " ليس كل القوم البيض يستطيعون أنْ يتحملوا العبودية ومن الواضح أنّ لا أحد يستطيع أنْ يتحمل الحرية (وهذه بالمناسبة - على فرض أنّ الإنسان يريد حقاً السلام والحرية - هي مشكلة علاقاتنا التي نُقيمها مع أوروبا في الوقت الحالي، التي ليس فقط لا يعرف شعبها معنى السلام - ما عدا الأنغلو ساكسونيين - بل ويخافون بشدة الحرية الشخصية ولا يثقون فيها؛ ونحن نأمل من دون وجود حقاً أي أمل في أنْ تكون قبلتنا النوورية كافية للدفاع عن فكرة قديمة قِدَم سفينة نوح)؛ إنه يفرِض حرّيته بموافقة واحدة فورية ومشتركة ويضعها بين يدي أول مُهيِّج للعامة يظهر أمامه: ناسياً أنه هو نفسه يُدمّرها ويُبعدها عن ناظريه وإدراكه وحتى عن ذاكرته بإجماعٍ مسعور من حي يُخمِد حريق العشب. لكنّ الذين اسمهم سامبو ينجون منه ومَنْ يدري؟ قد ينجون من الآخر. - ومَنْ يدري - "

ثم بريق رمل، ومضُ ولمعان ماء؛ انساب الدرابزين الأبيض ماراً بهدير واحد واندفاع وقعقعة ألواح الخشب التي يعبرون فوقها. قال في نفسه عليه الآن أنْ يُبطئ سرعته لكنَّ خاله لم يفعل، مُكتفياً بفصل المحرك عن الدواليب، والسيارة تندفع بزخمها الخاص حتى زاد من سرعتها خلال منعطف مستنقعيّ منزلق إلى الطريق القذرة وعلى مدى خمسين ياردة راحت تقفز بين الحفر حتى آخر أرض منبسطة انتهت بمنخفض يُفضي إلى أول منحدر خفيف، وزخمها لا يزال يُفاقِم من سرعتها وهي ترتقي المنحدر حتى ذلك الحين بعد أنْ رأى الآثار التي كان ألك ساندر قد قاد الشاحنة الصغيرة خارج الطريق داخل الشجيرات وحيث وقف واضعاً يده على منخريّ هايبوي بينما الحصان أو البغل، كائناً ما كان، كان قد هبط أسفل التل مع حمولته أمام الراكب الذي فشل حتى ألك ساندر بعينيه الشبيهتين بعينيّ بوم أو المنك أو اي شيء آخر يقوم بالاصطياد في الليل، في انتقادها (وتذكّر من جديد ليس فقط خاله على المائدة في صباح ذلك اليوم بل نفسه وهو واقف في الفناء في الليلة السابقة خلال تلك اللحظة بعد أنْ رحل ألك ساندر وقبل أنْ يلمح الآنسة هابرشام عندما كان خارجاً وحده ليقوم بالعمل الذي ينبغي القيام به وقال لنفسه عندئذٍ كما كان قد قال وهو على المائدة: يجب أنْ أفكر في هذا)؛ كادا يصلان الآن، بل لقد وصلا فعلاً في الحقيقة: ما تبقى من مساحة متداخلة و لم يعُد يمكن قياسها حتى بالأميال.

على الرغم من أنَّ السيارة كانت تتقدَّم ببطء، إلا أنَّها كانت تئن على السرعة الثانية في وجه الاندفاع الخالي من الحركة لحافّة التلال الرئيسة والتدفق الراتينجي الثابت القوي لأشجار الصنوبر حيث بدت أشجار القرانيا الآن أشبه براهبات على الأروقة الخضراء الطويلة، ترتقي وتتقدم نحو القمة الأخيرة، السطح السهل والآن بدا أنه يرى أرض وطنه كلها، بلده - التربة، الأرض التي أنجبتْ عِظامه وعِظام آبائه على

مدى ستة أجيال ولا زالت تشكّله ليُصبح ليس فقط رجلاً بل رجلاً متميّزاً، لا يتمتع فقط بأهواء وطموحات ومُعتقدات رجل بل بأهواء خاصة وآمال ومعتقدات وأساليب تفكير وحتى تصرُّف نوع خاص من سلالة: بل أكثر من ذلك: حتى بين نوع وسلالة خاصّين وفريدتين (وعلى ضوء معظم، بل حتماً كل الذين توافدوا على البلدة في صباح ذلك اليوم ليقفوا على الجهة المقابلة للسجن من الشارع ويحتشدوا حول سيارة الشريف، فريدتين جدا) بما أنها دمجت فيه ما أجبره على التوقُّف والإصغاء إلى زنجي وقح متكبِّر لعين إذا لم يكن قاتلاً فقد كان يوشك أنْ ينال إذا لم يكن ما يستحق فعلى الأقلّ ما أمضى سنوات عمره الستين ونيّف يطلبه - تمتد تحته كالخريطة في انفجارٍ بطيء بلا ضجيج: باتجاه حافة التلال الشرقية على الحافة الخضراء تتدحرج بعيداً نحو ألاباما وإلى الغرب والجنوب تتدفق الحقول متنوعة الألوان والغابات داخل المدى الأزرق والضبابي الذي يترامى بعده كسحابة جدار السدّ الطويل والنهر العظيم نفسه متدفقاً ليس فقط من الشمال بل من بلاد الشمال كلها التي تُطوّقها والأراضي الأجنبية - قلب أميركا ينضم إلى التراب الذي كان وطنه وحتى أبائه والذي فشل قبل ثلاثة أجيال مضتْ في أنْ يُنكر انتسابه إليه؛ وعندما أدار رأسه رأى بقعة الدخان الباهتة التي كانت بلدة تبعد عشرة أميال وبالنظر أمامه فقط استطاع أنْ يرى الامتداد الطويل من الأرض المنخفضة الغنية التي تحدّ الممتلكات الكبرى، المزارع (إحداها كانت ملكاً لإدموندز حيث أنَّ إدموند الحالي ولوكاس وُلدا معاً، من أصل الجدّ نفسه) التي تمتد على طول نهرهم الصغير (على الرغم من أنه حتى في ذاكرة جدّه أبحرتْ القوارب البخارية فيه) ومن ثم الخط الكثيف من غابة النهر نفسها: وبعد ذلك تتواصل في تقدمها بعيداً داخل الشرق والشمال والغرب ليس فقط إلى حيث أطراف الأراضي النهائية تتجهم جنباً إلى جنب في وجه قِفار مُحيطَين والحاجز الطويل لكندا بل إلى الطرف

القصيّ للأرض نفسها، بلاد الشمال: ليس المنطقة الشمالية بل بلاد الشمال كلها، الأرض الأجنبية وما حولها وليست حتى مكاناً جغرافياً بل فكرة عاطفية، حالة تغذّى عليها من حليب أمه لكي يبقى منتبهاً ولا يخاف وفي الحقيقة لا يكره إلا - أحياناً بقليل من الملل وتارة حتى ليس بكثير من الجديّة - التحدّي: الذي جلب معه من الطفولة صورة للطفولة لم يجد منذ عتبة الشباب أي سبب أو وسيلة لتغييرها و لم يكن لديه أي سبب ليؤمن بأنّها عندما يصل إلى سن الشيخوخة سوف تتغيّر: جدار منحن شبه دائريّ ليس مرتفعاً (كل مَنْ أراد كان يستطيع في الواقع أنْ يرتقي؛ اعتقدَ أنَّ كل فتى كان في استطاعته أصلاً أنْ يفعل) من أعلاه ومع توفّر المشهد الشامل الكامل لأرضهم الغنية المُنتجة التي لا تتلف أبداً وتضمّ المدن المتلألئة غير الملوّثة والبلدات غير المحترقة والمزارع التي لا تبور ومؤمّنة منذ عهد بعيد والوافرة إلى درجة أنك تعتقد أنه لم يعُد هناك أي حيِّز للفضول، هناك نظرتْ إليه صفوف لا تُحصى من الوجوه تشبه وجهه بازدراء وتكلّمت اللغة نفسها التي يتكلّمها بل وأحياناً ردّتْ على الأسماء نفسها التي كان يحملها ومع ذلك لم تعد تربط بينهم وبين خاله وبينه أية قرابة حقيقية وقريباً لن تبقى هناك أية صِلة بما أنَّ الكلمات المشتركة نفسها التي يستخدمونها لن يكون لها المعنى نفسه وبعد ذلك مباشرة حتى هذا سوف يختفي لأنهم سيُصبحون من فرط التشرذم بحيث لا يعود أحدهم يسمع الآخر: وحدها الوجوه المُكدّسة التي لا تُحصى التي تنظر إلى خاله وإليه بازدراء وبذهول يتلاشى وبغضب وإحباط والأغرب من هذا كله، بسذاجة: بمقدرة لا إرادية وعاجزة وتوق إلى تصديق أي شيء حول الجنوب حتى دون الاشتراط بأنْ يكون مُنتقِصاً بل فقط شاذاً بقدر كافٍ وغريباً بقدر كاف: على الأثر تكلّم خاله مرة أخرى في تكامُلٍ معه ومن جديد بلا دهشة رأى تفكيره لا يُقاطَع بل فقط ينتقل من نقطة إلى أخرى:

" ذلك لأننا في الولايات المتحدة وحدنا (أنا لا أتحدثُ عن سامبو في الوقت الراهن؛ سوف أصل إليه بعد قليل) شعب متجانس. أعني أننا الوحيدون من أي حجم. وكذلك أهالي نيو إنغلند طبعاً هناك في الداخل بدءاً بقيء أوربا الساحلي الذي ضرب حوله هذا البلد حجراً صحياً لأنه لا يُستأصَل وحتى داخل المدن سريعة الزوال والمعدومة الجذور حيث المصنع والمسبك ومركز صرف الشيكات المحلية شديدة القُرب بعضها من بعض كما يمكن لأي رجل شرطة أنْ يجعلها كذلك، ولكن لم يعُد هناك عدد كاف منه كما لم يعد هناك من السويسريين الذين ليسوا شعباً قدر ما هم شروع تجاري صغير نظيف وأنيق ومُذيب تماماً. لذلك فنحن لسنا في الحقيقة نقاوم ما تسمّيه البلاد الأجنبية (ونحن أيضاً) تقدُّماً وتنويراً. لا ندافعُ في الواقع عن سياستنا أو معتقداتنا أو أسلوبنا في الحياة، بل ببساطة عن تجانسنا من حكومة فيدرالية التي على باقي هذا البلد أنْ يتنازل لها أكثر فأكثر طوعاً في لحظة اليأس العادي عن حريته الشخصية والخاصة لكي يستمر في تحمّل تكاليف الولايات المتحدة. وطبعاً سوف نستمر في الدفاع عنها. إننا (أعني كلنا: لن ينام أهالي بيت فور ليلاً إلا بعد أنْ يُلغوا لوكاس بوشان (أو شخصاً آخر) في مواجهة فينسون غاوري بلون الحبر نفسه، وبيت واحد واثنين وثلاثة وخمسة الذين ينوون على أساس مبدأ فاتر أنْ يروا أنَّ أهالي بيت أربعة يقومون بذلك الإلغاء) لا نعلم لماذا هو ثمين. ولا نحتاج إلى أنْ نعرف. فقط حفنة منا تعلم أنه فقط من التجانس يخرج أي شيء من شعب أو من أجل شعب ذي قيمة متينة أو دائمة – الأدب، الفن، العِلم، ذلك الحد الأدنى من حكومة وشرطة الذي هو معنى الحرية والتحرُّر، ولعلّ الأكثر قيمة قاطبة هو شخصية وطنية لها أية قيمة في وقت الأزمة – تلك الأزمة التي سنواجهها ذات يوم عندما نواجه عدواً بكل ما لدينا من رجال ومن عتاد وأيضاً – مَنْ يدري؟ – ممّن يستطيعون حتى أنْ يتباهو ويفخروا كما تباهينا وفخرنا.

" لهذا السبب يجب أنْ نقاوم بلاد الشمال: ليس فقط بالمحافظة على أنفسنا ولا حتى نحن الاثنين كأننا شخص واحد لكي نبقى أمة واحدة لأنَّ ذلك سيكون النِتاج الفرعي الذي لا مفرّ منه لِما سنحافظ عليه: الشيء نفسه الذي من أجل المُحافظة على سلامته قبل ثلاثة أجيال خسرنا حرباً دموية على أراضينا نفسها: التسليم بأنَّ سامبو هو كائن بشري يعيش في بلد حرّ وبالتالي يجب أنْ يكون حراً. هذا ما نقوم حقاً بالدفاع عنه: امتياز إطلاق سراحه بأنفسنا: الذي سوف نضطر إلى فعله لأنّه ليس هناك غيرنا يستطيع أنْ يفعل ومنذ أنْ حدث الأمر قبل قرن جرّبتْ بلاد الشمال ذلك ومنذ خمسة وسبعين عاماً وهي تعترف بأنها فشلت. لذلك علينا نحن أنْ نفعل. وقريباً لن يُهددنا هذا النوع من الأشياء بعد الآن. ولا ينبغي أنْ يفعل الآن. وما كان ينبغي أنْ يفعل. لكنه فعل يوم السبت الفائت ولعله سيفعل من جديد، ربما مرة أخرى، ربما مرتين أخريين. ولكن ليس بعد ذلك، سوف ينتهي؛ سوف يبقى الخزي طبعاً ولكن كامل تاريخ خلود الإنسان موجود في المعاناة التي مرَّ بها، في كفاحه للارتقاء نحو النجوم على درج كفّارته. ذات يوم سوف يصبح في استطاعة لوكاس دوشان أنْ يُطلق النار على رجل أبيض في ظهره بالحصانة نفسها ضد الشنق بلا محاكمة أو الحرق بالوقود كما الرجل الأبيض؛ في الوقت المناسب سوف ينتخب في أي زمان وأي مكان يستطيع الرجل الأبيض أنْ يفعل ذلك ويُرسِل أولاده إلى المدرسة نفسها التي يرتادها أولاد الرجل الأبيض ويُسافر إلى حيث يُسافر الرجل الأبيض. لكنَّ الأمر لن يحدث يوم الثلاثاء القادم. لكنَّ أهالي بلاد الشمال يعتقدون أنّه يمكن فرض الأمر حتى في يوم الاثنين القادم ببساطة بإقرار الأمر عن طريق التصويت على فقرة مطبوعة: لقد نسوا أنه على الرغم من أنَّ حريّة لوكاس دوشان كانت قبل ربع قرن مضى تردُ كمادة في دستورنا و لم يكن سيد لوكاس دوشان فقط يُضرَب على رُكبتيه بل ويُسحَق بالأقدام على مدى عشرة

أعوام وهو منبطح على وجهه في التراب لكي يتلعه، ومع ذلك بعد مرور ثلاثة أجيال قصيرة واجهوا من جديد ضرورة المرور بالقانون من أجل إطلاق سراح لوكاس بوشان.

" أما بالنسبة إلى لوكاس دوشان، سامبو رجل متجانس أيضاً، لولا ذلك الجانب منه الذي يُحاول أنْ يهرب ليس حتى إلى أفضل ما في السلالة البيضاء بل إلى ثاني أفضل شيء - الموسيقى الرخيصة المُدّعية المُفتعلة، والنقود الرخيصة السريعة المُغالى في قيمتها، صرح الدعاية المتلألئ المُقام على أساسٍ لا يشبه منزل من الكرتون فوق هوة فاغرة وكل الفوضى الضاجّة للنشاط السياسي الذي كان صناعتنا الوطنية الصغيرة وهو الآن هوايتنا الوطنية في تزجية الوقت - كل الهدير الزائف الذي يُثيره رجال ينتشون على شغفنا الوطني بالمُبتذل ومن ثم يُحققون الثراء: الذين يقبلون الأفضل شريطة أنْ يُحطّ من قدره ويُلوّث قبل أنْ نتغذّى عليه: وهم الوحيدون على الأرض الذين يتباهون علناً بأنهم من الدرجة الثمية، أي، الضئيلو الشأن. أنا لا أقصد سامبو ذاك. بل أقصد باقي ذاك الذي يتصف بانسجام أفضل منا ويُثبتُ ذلك بالعثور على جذور له في الأرض حيث كان عليه في الواقع أنْ يزيل الرجال البيض لكي يحطّ من قدرهم: لأنه اتصف بالصبر حتى عندما لم يكن لديه أمل، وبالنظرة الشاملة حتى عندما لم يكن هناك ما يُرى في آخرها، ولا حتى فقط بالإرادة بل بالرغبة في التحمُّل لأنه كان يحب الأشياء القليلة البسيطة والقديمة التي لا أحد رغب في أخذها منه: ليس سيارة ولا ملابس مبهرجة ولا صورته التي ظهرت في الصحف بل القليل من الموسيقى (موسيقاه الخاصة)، ومأوى، ليس طفله بل أي طفل، إله في السماء يمكن للإنسان أنْ يستفيد منه قليلاً في أي وقت من دون أنْ يُضطر إلى الانتظار حتى يموت، قليل من التربة لكي يسقي عرقه براعمه ونباتاته النضرة. علينا نحن - هو ونحن - أنْ نتحالف: أنْ نُقايضه بما تبقّى من المزايا الاقتصادية والسياسية والثقافية

التي هي من حقّه، مقابل استعادة مقدرته على الانتظار والتحمّل والبقاء حياً. حينئذٍ سوف نسود: معاً سوف نهيمن على الولايات المتحدة؛ سوف نقدِّم واجهة ليست فقط حصينة بل لا تتعرض حتى للتهديد من عامة الناس الذين لم يعد يجمعهم أي قاسم مشترك غير الجشع المسعور للمال وخوف عميق من فشل الشخصية الوطنية التي يُخفونها أحدهم عن عينيّ الآخر خلف صياح مرتفع منافق أمام علم"

الآن وصلا ليس بعد الشريف بكثير. إذ على الرغم من أنَّ السيارة كانت قد حادت عن الطريق إلى البستان أمام الكنيسة، كان الشريف لا يزال واقفاً بجوارها وكان أحد الزنوج يُخرِج المعول من السيارة ويُعطيه للسجين الآخر الواقف ممسكاً بالرفشين معاً. أوقف خاله السيارة بجوارها وأصبح في استطاعته الآن أنْ يرى الكنيسة في ضوء النهار، وللمرة الأولى وهو الذي كان يقطن ضمن مسافة عشرة أميال منها طوال حياته ولابد أنه قد مرَّ بها، ورآها على الأقلّ نصف عدد تلك المرات. ومع ذلك لم يتذكّر أبداً أنه سبق أنْ نظر إليها من قبل – كانت أشبه بصندوق عادي بلا برج لا يختلف في شكله عن بعض الكبائن ذات الغرفة الواحدة التي يقطن فيها أهالي التل، بلا دهان أيضاً ومع ذلك (ويا للغرابة) ليست رثّة المنظر وليست حتى مُهملة أو تحتاج إلى ترميم لأنه رأى أقساماً من جذوع الأشجار الجديدة الخام وقطع ومقاطع من السقف المُركّب مُرقّعة ومُثبّتة بالجدران القديمة وألواح خشب متراكبة بعُجالة همجية حتى الوقاحة، ليست جاثمة ولا مُقرفصة ولا حتى جالسة بل واقفة بين جذوع أشجار الصنوبر الباسقة القوية الرثّة دائماً، منعزلة لكنها ليست بائسة، عنيدة ومستقلّة، لا تطلب شيئاً من أحد، ولا تتصالح مع أحد وتذكّر أبراجاً نحيلة شامخة تقول السلام عليكم وأبراج أجراس نفعيّة مهيمنة تقول توبوا وتذكّر واحدةً تقول حتى حذارِ لكنَّ هذه قالت ببساطة: احترقوا: وترجل هو وخاله؛ كان الشريف والزنجيان اللذان يحملان الأدوات

قد أصبحا داخل السياج وتبعاهم هو وخاله، من خلال البوابة الرخوة في الأسلاك المنخفضة المُكدَسة بأزهار صريمة الجدي وبورد متسلق أبيض ووردي خالٍ من الرائحة ورأى فناء المقبرة أيضاً للمرة الأولى، ولم يكتفِ بتدنيس قبر فيها بل وارتكب جريمة نبش آخر - كانت قطعة مربعة من الأرض ليست أكبر من قطع مفروزة في حديقة كان قد رآها ذات مرة والتي بحلول شهر أيلول قد تعجّ بالمريمية والرحيد ونفل العث وتكاد تعصى على المرور منها وتصبح غير مرئية تقريباً، تبرز بلا تناسق أو نظام كمؤشرات الصفحات أُقحمتْ عشوائياً داخل دفتر أو كخلال أسنان داخل رغيف خبز ودائماً مائلة قليلاً وكأنها أستعارت تعامُدَها الثابت من أشجار الصنوبر اللدنة غير العمودية تماماً، صفائح رقيقة من الغرانيت الرمادي الرخيص من لون الكنيسة الباهت نفسه الخالية من الدهان وكأنها قُطِعتْ من ألواحها بفؤوس (وحُفِرَتْ عليها بلا شِعار أسماءٌ وتواريخ وكأنما لا شيء حتى مُعزيهم يتذكرون عنهم أكثر من أنهم عاشوا وماتوا) ولا النخر ولا الزمن أجبراها على العودة إلى داخل الجدران المُدنّسة الترقيع الجديد الخشن بالخشب غير المُسوّى والخالي من الدهان بل مقتضيات فناء اللحم وقدره.

شقّ هو وخاله طريقهما بحذر بينها إلى حيث كان قد وقف الشريف مع الزنجيين فوق ركام التراب المحفور حديثاً الذي كما أنّ هو قد دنّسه كان في الواقع يراه الآن للمرة الأولى . لكنهم لم يكونوا قد بدؤوا بالحفر بعد. بل إنّ الشريف كان قد التفت، ناظراً نحو الخلف إليه إلى أنْ اقترب هو وخاله ووقفا أيضاً.

قال خاله " والآن ماذا سنفعل؟ "

لكنّ الشريف كان يُخاطبه بصوت ثقيل معتدل النبرة: " أعتقد أنك والآنسة يونيس وسكرتيرك كنتم شديدي الحرص على ألا تدعوا أحداً يراكم وأنتم تقومون بهذا العمل ليلة أمس، أليس كذلك؟ "

أجاب خاله: " إنّ هذا العمل حتماً ليس من النوع الذي تريد له جمهوراً، أليس كذلك؟ "

لكنّ الشـريف كان لا يزال ينظر إليه. " لمــاذا إذن لم يُعيدوا الأزهار إلى مكانها؟ "

ثم رآها أيضاً - إكليل الأزهار الاصطناعية، التركيبة المعقّدة الرتيبة للأسلاك والخيوط وأوراق النبات المصقولة والبراعم المُحنّطة التي أحضرها أحدهم أو أرسلها من بائع أزهار في البلدة، والباقات الثلاث من الحديقة الذابلة وأزهار الحقل رُبطتْ بخيط قطني، وكان ألك ساندر قد قال عنها في الليلة السابقة إنها تبدو وكأنها رُميَتْ عند القبر أو عليه وتذكّر أنّ ألك ساندر وهو وضعاها جانباً بعيداً عن الطريق وكان يعلم أنها أُعيدتْ إلى مكانها بعد ردم الحفرة؛ تذكّر الآنسة هابرشام تُردّد مرتين على مسمعه أنْ يُعيدها إلى مكانها بعد انْ اعترضَ هو نفسه على عدم الحاجة إلى ذلك أو على الأقلّ على تبديد الوقت؛ بل لعله تذكّر الآنسة هابرشام نفسها تُساعد في إعادتها إلى مكانها: أو لعله لم يتذكّر أنها أُعيدتْ على الإطلاق بل فقط حسبَ أنه تذكّر لأنّ من الواضح أنها لم تُعد، وها هي الآن ملقاة جانباً ولا سبيل إلى التخلّص منها ومن الجليّ أنه هو أو ألك ساندر قد وطأ الإكليل على الرغم من أنّ هذا لم يعُد أمراً هاماً الآن، وهذا ما كان خاله يقوله تواً:

" لا يهم الآن. فلنباشر. وحتى بعد أنْ ننتهي من العمل هنا ونعود إلى البلدة سوف نكون فقط بالكاد باشرنا "

قال الشريف للزنجيين " حسن، يا شباب. باشرا. ولنخرج من هنا - " و لم يصدر أي صوت، لم يسمع شيئاً يُحذّره، فقط رفع هو بصره عالياً ثم نظر حوله كما فعل خاله والشريف وشاهد، ليس قادماً على طول الطريق بل من خلف الكنيسة وكأنما من بين أشجار الصنوبر الباسقة

نفسها التي تعصف بها الريح، رجلاً بقبعة عريضة باهتة اللون وقميص نظيف أزرق فاتح كان كمّه الأيسر الفارغ مطوياً بأناقة نحو الخلف وثُبّت طرف الكم إلى الكتف بدبوس، ممتطياً مهراً صغيراً مزركشاً يميل لونه إلى الصفرة ويُبدي الكثير من بياض العين يتبعه رجلان أصغر سناً يمتطيان معاً بغلاً أسود كبيراً بلا سرج على عنقه أثر حرق من حبل ويتبعهما بدورهما (ويبقى على مسافة حذرة واضحة من عقبيّ البغل) كلبا صيد ثعالب نحيلين، يخبّان بخُطى سريعة عبر البستان نحو البوابة حيث أوقفَ الرجل المهر وتأرجح بخفة وسرعة مترجلاً عن صهوته بيده الوحيدة وترك العنان عبر عنق المهر واقترب بتلك السرعة الخفيفة الشبيهة بسرعة السلك والنابض من خلال البوابة منهم - كان عجوزاً قصير القامة ونحيلاً ذا عينين شاحبتين كعينيّ الشريف ووجه أحمر ذاوٍ برز منه أنفٌ أشبه بمنقار نسر معقوف، وباشر تواً بالكلام بصوت مرتفع رفيع قوي وثابت:

" ما الذي يجري هنا، أيها الشريف؟ "

قال الشريف " سوف أفتح هذا القبر، يا سيد غاوري "

قال الآخر على الفور، من دون أي تغيير مهما كان على نبرة صوته: ليس مُجادلاً، لا شيء: فقط تقريرياً: " كلا، أيها الشريف. ليس هذا القبر "

قال الشريف " بل نعم، يا سيد غاوري. سوف أفتحه "

وبلا استعجال أو تعثُّر، بل في الواقع بشبه تروٍ، حلَّ الرجل العجوز بيده الوحيدة زرّين في مقدمة قميصه ثم أقحمَ يده إلى داخله، محنياً قليلاً وركه لكي يقابل يده وأخرج من داخل القميص مسدساً ثقيلاً مطلياً بالنيكل وأيضا بلا استعجال ولكن دون توقف أيضاً أقحم المسدس إلى تحت إبط ذراعه اليسرى، مُطبِقاً بجدعته على جسمه بينما يده

الوحيدة تُزرّر القميص، ثم أمسك بالمسدس من جديد باليد الوحيدة دون توجيهه إلى أي شيء، بل فقط حمله.

ولكن قبل ذلك بوقت طويل كان قد رأى الشريف يتحرك، يتحرك بسرعة هائلة حقاً ليس باتجاه الرجل العجوز بل حول آخر القبر، وكان قد تحرك حتى قبل أنْ يستدير الزنجيان ليهربا، بحيث عندما انطلقا بدا أنهما يركضان بأقصى سرعة نحو الشريف وكأنما نحو جرف، بل وبدا كأنهما يطفران إلى الخلف قليلاً قبل أنْ يقبض الشريف على كل منهما بيد وكأنهما طفلان ومن ثم في اللحظة التالية بدا أنه يُمسك بهما معاً بيدٍ واحدة كدميتين من قماش، مُديراً جسمه بحيث أصبح بينهما والرجل العجوز الضئيل والنحيل يحمل المسدس قائلاً بذلك الصوت المعتدل وحتى البليد:

" كفى. الا تعلم أنَّ أسوأ ما يمكن أنْ يحدث لزنجي هو أنْ يتنقل ببنطلون رجل محكوم هنا هذا اليوم؟ "

قال العجوز بصوته عالي النبرة والثابت " نعم، يا شباب. لن أؤذي أحداً. إنني أتحدث مع الشريف هنا. لن تنبش قبر ولدي، يا شريف "

تمتم خاله بسرعة " أعدهما إلى السيارة ". لكنَّ الشريف لم يُجِب، وظل ينظر إلى العجوز.

قال الشريف " إنَّ ابنك ليس موجوداً في هذا القبر، يا سيد غاوري ". وفكّر وهو يراقب في الأشياء كلها التي كان يمكن للعجوز أنْ يقول – المفاجأة، عدم التصديق، والغضب ربما، وحتى التفكير بصوت مرتفع: كيف عرفتَ أنَّ ابني ليس موجوداً هنا؟ – التفكير بعقل وتأمُّل يمكن به ربما أنْ يُعيد صياغة كلام الشريف مع خاله قبل ست ساعات: ما كنتَ قلتَ هذا لو لم تكن تعلم أنَّ الأمر كذلك؛ يراقبُ، بل ويتبع الرجل العجوز وهو يعبر ذلك كله وفجأة فكّر بذهول: في الحقيقة، هو

حزين: مفكّراً كيف أنه شهد الحزن مرتين في غضون عامَين حيث لم يتوقعه أو يُخمّن حدوثه، حيث بمعنى ما لم يكن لقلب قابل للانكسار صِلة بالأمر: مرة في زنجي تصادف أنْ ظل حياً وماتت زوجته العجوز والآن في رجل عجوز كافر عنيف بذيء اللسان تصادفَ أنْ خسر أحد أبنائه الستة الكسالى العاطلين المتمردين كثيراً أو قليلاً أكثر بكثير من فقط أكثر أو أقلّ لأبنائه الفاشلين، واحدٌ فقط منهم نفع مجتمعه وأقرانه وذلك فقط بآخر ملجأ يائس ليُقتَل ويخرج منه: سمع الصوت عالي النبرة فورياً وقوياً وبلا فواصل، أو اهتزاز، كأنه حوار:

" في الواقع، آمل ألا تُخبرني باسم الشخص الذي أثبتَ أنَّ ابني ليس هناك، أيها الشريف. آمل ألا تذكر اسمه: " - عينان صغيرتان شاحبتان قاسيتان تُحدقان إلى عينين صغيرتين شاحبتين قاسيتين، وأصبح صوت الشريف ولا يزال معتدل النبرة مُبهماً الآن:

" كلا، سيد غاوري. إنه ليس فارغاً: " ولاحقاً، بعد ذلك، أدرك أنَّ هذا حدث عندما اعتقد ربما أنه لم يعلم لماذا وصل لوكاس إلى البلدة حياً لأنَّ السببَ كان جلياً: لقد تصادفَ أنه لم يكن هناك أحد من آل غاوري حاضراً في تلك اللحظة غير المتوفى: ولكن على الأقلّ كيف حدث وخرج الرجل العجوز مع ولديه من الغابة خلف الكنيسة حالما وصل هو وخاله والشريف إلى القبر، وحتماً لماذا كان لوكاس طوال الساعات الثماني والأربعين لا يزال يتنفّس. قال الشريف " إنَّ جيك مونتغمري هو الموجود في الداخل "

التفت العجوز، على الفور، ليس باستعجال أو حتى بسرعة بل فقط بسهولة وكأنَّ بُنية جسمه الضئيل والنحيل لم يُبد مقاومة في وجه الريح ولا وزناً للعضلات المُحرِّكة، وصرخ باتجاه السياج حيث كان الرجلان الأصغر سناً لا يزالان يمتطيان البغل كدميتين في محل بيع الملابس ولا يُبديان حراكاً، ولا باشراً بعد بالترجّل إلى أنْ صرخ

العجوز: " تعالا إلى هنا، يا شباب "

قال الشريف " لا عليك. نحن سنقوم بالعمل " والتفت نحو الزنجيين. " حسن. أحضرا رفشيكما - "

غمغم خاله من جديد بسرعة " لقد قلت لك. أعِدهما إلى السيارة "

قال العجوز " هذا صحيح، أيها المحامي - المحامي ستيفنس، أليس كذلك؟ أبعدهما عن المكان. هذا عملنا. سوف نقوم به "

قال الشريف " إنه عملي الآن، يا سيد غاوري "

رفع العجوز المسدس، بثبات وبلا استعجال، مُثنياً مِرفقه إلى أنْ اصبح مستوياً، وعقف إبهامه نحو الأعلى وفوق الزند مُبرزاً إياه بحيث أصبح منتصباً أو ليس بالضبط، ليس بالضبط مُسدَّداً نحو أي شيء في أي مكان على مستوى أنشوطة الحزام الفارغة على بنطلون الشريف. قال العجوز " أبعدهما عن هنا، أيها الشريف "

قال الشريف من دون أنْ يتحرك " حسن، عودا يا شباب إلى السيارة "

قال العجوز " بل إلى أبعد من ذلك. أعِدهما إلى البلدة "

قال الشريف " إنهما سجينان، يا سيد غاوري. لا أستطيع أنْ أفعل هذا " ولم يتحرك. قال لهما " عودا وادخلا السيارة ". عندئذٍ تحركا، سارا ليس عائدين إلى البوابة بل مباشرة عبر الحوش، بخطى سريعة جداً، رافعَين أقدامهما ورُكبهما في البنطلون المُخطط القذر عالياً جداً، وأصبحا سائرين بسرعة كبيرة لدى وصولهما إلى السياج المقابل بين السير والقفز فوقه وعندئذٍ فقط غيّرا اتجاههما عائدين نحو السيارتين بحيث حالما يصلان إلى سيارة الشريف يكونان بعيدين عن الرجلين الأبيضين على متن البغل كما كانا عندما غادرا القبر: ونظر إليهما الآن

وهما على متن البغل متطابقَين كدبوسيّ ملابس على حبل، الوجهان المتطابقان ذاويان بشكل متشابه، سريعا الغضب وهادئان، إلى أنْ صرخ العجوز من جديد:

" حسن، يا شباب: " وترجلا معاً كأنهما شخص واحد، وفي الوقت نفسه كأنهما فريق مُدرَّب في مسرح الفكاهة ومن جديد اجتازا كشخص واحد بالساق اليُسرى نفسها السياج، متجاهلان تماماً البوابة: التوأم غاوري، متطابقان حتى في الملبس والأحذية ما عدا أنَّ أحدهما يرتدي قميصاً من الخاكي والآخر سترة بلا كُمّين؛ في حوالي سن الثلاثين، أطول من والديهما بمقدار طول رأس ولهما عينا والدهما الفاتحتان والأنف أيضاً ما عدا أنه لا يشبه منقار نسر بل صقر، مقتربان دون أنْ يتفوها بأية كلمة، أو يلقيان نظرة من وجهيهما الكئيبين الهادئين الخاليين من حس الدعابة إلى أنْ أشار العجوز بالمسدس (وجد أنْ الزند كان نحو الأسفل على أية حال) نحو الرفشين وقال بصوته عالي النبرة بدا أقرب إلى المرح:

" خذاهما يا شباب. إنهما من ممتلكات المقاطعة؛ إذا كسرنا أحدهما فذلك شأن المحكمة العليا فقط: " - أصبح التوأم يواجه أحدهما الآخر الآن على الطرفين المتقابلين من الركام ويعملان من جديد بذلك التناسق الإيقاعي شبه المثالي: كانا الاثنين الأصغر سناً من الأخ الميت، فينسون؛ الرابع والخامس في ترتيب الأبناء الستة - فوريست، الأكبر سناً لم يكتفِ بالتخلُّص من طغيان والده العنيف بل وتزوج ومنذ عشرين عاماً حتى الآن وهو مدير مزرعة قطن الدلتا فوق فيكسبرغ؛ ثم كروفورد، الثاني الذي طُلِبَ إلى الخدمة العسكرية في اليوم الثاني من شهر تشرين ثاني من عام ١٩١٨ وفي ليلة اليوم العاشر (جراء سوء حظ في التخمين ما كان ينبغي، كما قال خاله، أنْ يحدث لأي رجل - وجهة نظر بدا فيها في الحقيقة آسروه الفيدراليون أنفسهم

متفقين فيها بما أنَّ فترة سجنه في سجن ليفينوورث كانت فقط عاماً واحداً) فرّ من الخدمة وعاش على مدى ما يُقارب العام ونصف في سلسلة من الكهوف والأنفاق في التلال ضمن نطاق خمسة عشر ميلاً من دار المحكمة الفيدرالية في جيفرسون إلى أنْ أُلقيَ القبض عليه أخيراً بعد ما يشبه كثيراً معركة ضارية (ولحسن حظّه لم يُصَب أحد بأذى خطير) حافظ خلالها على كهفه على مدى ثلاثين ساعة ونيف مُسلّحاً بمسدس آليّ (وأيضاً، كما قال خاله، بقدر من التماسُك واللياقة البدنية هنا: فارّ من خدمة جيش الولايات المتحدة الأميركية يُدافع عن حريته ضد حكومة الولايات المتحدة بقطعة سلاح أخذها من العدو الذي رفض أنْ يُقاتله) كان أحد أبناء مكالم قد أخذه من ضابط ألماني أسير وسرعان ما قايضه لدى عودته إلى الوطن بمشبك لكلاب صيد آل غاوري، وقضى فترة عقوبته وعاد غلى الوطن وبعد ذلك سمع أهل البلدة أنه كان في ممفيس حيث قيل إنه (أولاً) يُهرّب الخمور من نيو أورلينز، (وثانياً) يعمل موظفاً خاصاً في شركة لضمان المُستخدمين في أثناء الإضراب، لكنه عاد فجأة إلى منزل والده حيث لم يكن أحد يراه كثيراً حتى قبل بضعة سنوات مضت عندما بدأت البلدة تسمع أنه قد استقر بصورة أو بأخرى، ويعمل في مجال ضيق في الأخشاب والماشية بل ويعتني بقطعة أرض صغيرة؛ وبراين، الثالث الذي كان يمثل القوة الدافعة، الطاقة، عنصر التلاحم، أو سمّه ما شئت، في مزرعة العائلة أو خلفها التي كانت تُطعمهم جميعاً؛ ثم التوأم، فاردامن وبيلبو الذين كانا يقضيان لياليهما قابعين أمام جذوع الأخشاب المحترقة بينما كلاب الصيد تطارد الثعالب ونهارهما في النوم على ألواح الخشب العارية في السرادق الأمامي وحتى حلول الظلام عندما يحين الوقت من جديد لإطلاق كلاب الصيد؛ والأخير فينسون، الذي حتى وهو صغير أبدى موهبة في التجارة وفي مجال المال بحيث أنه الآن، حتى بعد وفاته وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من العمر، يُقال إنه ليس

فقط يمتلك العديد من المزارع الصغيرة في أرجاء المقاطعة بل كان الأول في آل غاوري الذي يستطيع أنْ يوقّع باسمه على شيك ويجعل أي مصرف يتشرّف به - التوأم، يغوصان أكثر فأكثر، يعملان بسرعة متجهمة ونكدة، كالآلات وفي تناسق مُطلق بحيث أنّ حتى الرفشين بدا يقرعان في اللحظة نفسها على الصندوق الخشبي وحتى عندئذٍ بدا كأنهما يتخاطبان بلا أية وسيلة مادية كما تفعل الطيور أو الحيوانات؛ بلا صوت ولا إيماء: فقط أحدهما يُرسل رفشه في استمرارية بالضربة نفسها التي ترمي بالتراب ومن ثم يقفز هو نفسه بلا جهد إلى خارج الحفرة ويقف بين الباقين بينما أخوه يزيل ما تبقّى من تراب عن أعلى التابوت، ثم يرمي بالرفش إلى الخارج حتى دون أنْ ينظر ثم - كما كان قد فعل في الليلة السابقة - رفس آخر ما تبقّى من تراب عن حافة الغطاء ووقف على ساق واحدة وقبض على الغطاء ورفعه بقوة وفتحه واسعاً حتى يتمكن كل الواقفين على طول حافة القبر أنْ يُلقوا نظرة إلى الأسفل وبعده إلى داخل التابوت.

كان خالياً. لا شيء فيه على الإطلاق إلى أنْ تسرّبَ دفقٌ رفيع من التراب إلى داخله مع ربتٍ هامس.

الفصل الثامن

وسوف يتذكر ذلك: الخمسة واقفون عند حافة الحفرة فوق التابوت الخالي، ثم بحركة أخرى متدفقة ولدنة كحركة توأمه خرج غاوري الثاني من القبر وانحنى ثم بدأ بهيئة الانزعاج المُستغرق وحتى القلق الغاضب قليلاً بنفض وضرب ذرات الطمي عن أسفل ساقي بنطلونه، والتوأم الأول يتحرك بينما الثاني منحن ويقترب منه كمن يعود إلى المنزل بحركة عمياء متمهلة ومباشرة كقطعة أخرى من آلة، الآخر نحيل كمغزل مخرطة، ينتقل على المحور نفسه الذي لا يمكن تغييره نحو مغرزه، وانحنى بدوره وبدأ ينفض ويضرب التراب عن خلفية بنطلون أخيه؛ وهذه المرة انزلق مقدار ملء رفش من التراب عبر أسفل الغطاء المائل نحو الخارج وقعقع داخل التابوت الفارغ، بضجيج مرتفع بقدر كاف أو بكتلة ووزن كافيين لإحداث رجع صدى قصير وأجوف.

قال خاله "الآن أصبح لديه اثنان"

قال الشريف "نعم، أين؟"

قال غاوري العجوز "اللعنة على كليهما. أين ابني، أيها الشريف؟"

قال الشريف " سوف نجده الآن، سيد غاوري. كان تصرفاً ذكياً منك أنْ تجلب كلاب الصيد. أعِد مسدسك إلى غمده ودع ولديك يُمسكان بالكلاب ويحتفظان بهما إلى أنْ نسوي الأمور هنا "

قال العجوز غاوري " دعك من المسدس ومن الكلاب أيضاً.

سوف ينتشرون وسوف يقبضون على أي شيء يركض أو حتى يمشي. أما ابني وذلك المدعو جيم مونتغمري - إنْ كان هو جيك مونغمري أو كائناً مَنْ كان مُلقى في تابوت ابني - لا تمشوا من هنا لكي لا تتركوا أي أثر "

قال الشريف " صمتاً الآن، سيد غاوري " رمى العجوز الشريف بنظرة حانقة. لم يكن يرتجف، ولا تواقاً، ولا مُشوّشاً، ولا مذهولاً، ولا أي شيء. فكّر وهو يراقبه في أحد ألسنة اللهب الباردة الزرقاء الفاتحة على شكل دمعة ومن الواضح أنها بلا حرارة التي تتوازن على أقلّ من أطراف أصابع القدمين فوق انبثاق الغاز.

فقال العجوز " حسن. ساسكتُ. والآن ابدأ. يبدو أنك الشخص الذي يعرف كل شيء عن هذا الأمر، الذي أرسل في طلبي عن مائدة الإفطار عند الساعة السادسة من صباح هذا اليوم لكي أقابلك هنا. والآن ابدأ "

قال الشريف " هذا ما سنفعل. سوف نعرف في الحال من أين نبدأ ". التفت نحو خاله، قائلاً بصوت معتدل عقلاني يكاد يكون حيي: " إنها حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً. لديك بغل أو لعله حصان، على أي حال شيء يستطيع أنْ يمشي ويخبّ بضجيج مُضاعَف، وثمة شخص ميت موضوع عبر السرج. وليس لديك الكثير من الوقت؛ أي، ليس لديك الوقت كله. طبعاً الساعة تقترب من الحادية عشرة، حين يكون معظم الناس نائمين في أسرّتهم، وهي أيضاً ليلة يوم أحد وعلى الناس أنْ يستيقظوا غداً باكراً ليبدؤوا أسبوعاً جديداً في عز موسم زرع القطن، وليس هناك قمر وحتى لو أنَّ الناس لا زالوا يقظين أنت في الجزء الموحش من المقاطعة حيث من غير المُحتمل أنْ تقابل أحداً. ولكن مع ذلك في حوزتك جثة رجل اخترقت رصاصة ظهره وحتى عند الساعة الحادية عشرة سوف يطلع النهار عاجلاً أو آجلاً.

حسن. فما العمل؟"

تبادلوا النظرات، وحدّق كلّ إلى الآخر، أو أنّ خاله هو الذي حدّقَ – الوجه النحيل بارز العِظام التواق، العينان البرّاقتان المُركّزتان السريعتا الحركة، وقبالة وجه الشريف الواسع الناعس، العينان لا تحدّقان، ويبدو أنهما لا تنظران حتى، تطرفان بنعاس، والاثنان يفكران بلا كلام في ذلك كله. قال خاله " طبعاً نعيده إلى الأرض من جديد. وليس بعيداً، بما أنه كما قلت سوف يطلع النهار عاجلاً أو آجلاً حتى وإنْ كانت الساعة لا تزال الحادية عشرة. خاصة عندما لا زال لديه وقت ليعود ويُكرر ما فعل، وحده، دون رفيق، بلا يد غير يده تساعده في حمل الرفش – وفكر في هذا أيضاً: الحاجة، الحاجة المُلحّة، ليس فقط إلى القيام بالأمر كله من جديد بل الاضطرار إلى فعله من جديد للسبب الذي كان لديه؛ كان التفكير في أنه قام بكل ما استطاع أنْ يقوم به، كل ما يمكن لأي شخص أنْ يطلب أو يتوقّع منه أنْ يفعل أو حتى يحلم بأنه عليه أنْ يفعل؛ كان أمراً آمناً بقدر ما كان يأمل أنْ يكون – ومن ثم أنْ يتراجع بعد سماعه صوتاً، ضجيجاً أو ربما أنْ يعثر مُصادفة على الشاحنة المتوقفة أو ربما كان مجرد حظه، حظّه الحسن، كائناً ما كان الإله أو الجن أو العفريت الذي يحرس القتلَة بعض الوقت، ويضمن أمنه وسلامته إلى أنْ يُتاح الوقت لمصائر أخرى لتنسج الحبل وتعقده – أنْ يُضطر إلى الزحف بأية طريقة، أنْ يربط البغل أو الحصان أو كائناً ما كان إلى شجرة ويزحف على بطنه عائداً إلى هنا ليتمدد (مَنْ يدري؟ ربما فقط خلف السياج هناك) ويُراقب تطفُّل امرأة عجوز وصبيين كانا ينبغي انْ يكونا قد أويا إلى السرير قبل ساعتين على بُعد عشرة أميال، يهزّ كامل الصرح المبنى بعناية لجهده الحانق، ويهدم عمل ليس فقط حياته وموته أيضاً... " توقف خاله، والآن شاهد العينين البرّاقتين حتى الضياء تنظران بغضب إليه: " وأنت. لم تكن تعلم أنّ الآنسة هابرشام سترافقك إلى أنْ وصلتَ إلى المنزل. ومن دونها، ما كان ليكون لديك

اي أمل في أنْ يرافقك ألك ساندر وحده على الإطلاق. لذلك إنْ كانت لديك أية فكرة عن القدوم إلى هنا لكي تنبش هذا القبر، فلا تقُل لي - "

قال الشريف " دعك من هذا الآن. حسن. في موقع ما هناك في الأرض. وأي نوع من الأراضي؟ أي نوع من التربة هي الأسهل على الحفر فيها أو الأسرع بالنسبة إلى رجل على عجلة من أمره ووحده حتى وإنْ كان في حوزته رفش؟ أي نوع من التربة تأمل في أنْ تُخفي جثة فيها بسرعة حتى وإنْ لم يكن في حوزتك أكثر من مطواة؟ "

قال خاله على الفور، وبسرعة، بل بشبه لا مبالاة، ودون انتباه، " في الرمال. في قاع رافد نهر. ألم يُخبروك في الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم أنهم شاهدوه يتوجه إلى هناك معها؟ ماذا تنتظر؟ "

قال الشريف " حسن. فلنذهب إذن "، ثم قال له: " أرنا بالضبط أين - "

قال " باستثناء أنَّ ألك ساندر قال إنه ربما كان بغلاً "

قال الشريف " حسن. حصان إذن. أرنا بالضبط أين... "

سوف يتذكر: كان يُراقب الرجل العجوز يُمسك المسدس من جديد وجذعته موجهة إلى الأمام بتحت إبطه ويشدّ عليه هناك بما تبقّى من ذراعه بينما الذراع الوحيدة تحلّ أزرار القميص ثم تتناول المسدس من تحت إبطه وتُقحمه من جديد داخل القميص ثم تُزرّر القميص من جديد ثم يستدير حتى بسرعة أكبر من ولديه اللذين يبلغ مقدار عمريهما نصف عمره، ويتقدم الجميع ويقفز عائداً عبر السياج ويذهب إلى المهر ويُمسك بالعنان ويضربه كل ذلك بيدٍ واحدة، بعد أنْ اعتلاه: ثم تنتقل السيارتان إلى السرعة الثانية من جديد عكس الجاذبية هابطتان المنحدر إلى أنْ قال " هنا " حيث تميل آثار الشاحنة الصغيرة

عن الطريق إلى داخل الدغل ثم تعود إلى الطريق من جديد وتوقف خاله: وراقبَ الرجلَ العجوز الشرسَ ذا الذراع المبتورة وقفز بالمهر ذي الجلد المائل إلى الصفرة عالياً خارج الطريق وتوغل في الغابة على الطرف المقابل وبدأ يهبط نحو رافد النهر، ثم يندفع كلبا الصيد على طول الضفة خلفه ومن ثم البغل الذي يمطيه التوأم المتطابق بوجهيه الخشبيين؛ ثم ترجل هو وخاله من السيارة ومن خلفهما سيارة الشريف تنتقل من ارتطام إلى آخر، وسمعا المهر ينهار نحو الرافد ومن ثم صوت الرجل العجوز عالي النبرة يصرخ في كلبيّ الصيد:

" هاي! هاي! انطلق يا فتى! عليه، يا رينغ! " ومن ثم إلى خاله:

" كلا. سوف نحتاج إلى الرفشين: " وكان قد هبط إلى الضفة أيضاً، مُصغياً بعيداً ونحو الأسفل إلى الانهيار والصراخ، ثم أصبح خاله والشريف والزنجيان مع الرفشين إلى جواره. وعلى الرغم من أنّ رافد النهر يقطع بزوايا صحيحة الطريق العامة مباشرة بعد أنْ يتفرّع، كان على بُعد حوالي الربع ميل من حيث يقفون الآن أو يمشون وعلى الرغم من أنه كان في استطاعتهم جميعاً أنْ يسمعوا العجوز غاوري لا يزال ينعي الكلبين وانهيار المهر والبغل أيضاً في الدغل الكثيف في الأسفل، لم يذهب الشريف في ذلك الاتجاه، بل انطلق على طول التل في موازاة الطريق تقريباً على مدى بضع دقائق وبدأ يحيد عنه عندما توغلا داخل العشب المنشاري والغار والأرض الممتدة بين التل والرافد المكتظة بأشجار الصفصاف؛ وتجاوزا ذلك، والشريف في المقدمة إلى أنْ توقف تماماً ونظر إلى أسفل ومن ثم أدار رأسه ونظر نحو الخلف إليه، يراقبه اقترابهما هو وخاله.

قال الشريف " لقد كان سكرتيرك على صواب في المرة الأولى؛ لقد كان بغلاً "

قال خاله " ليس أسود مع حرق سبّبه الحبل. حتماً ليس هذا. ولا حتى ذلك الشخص الاجتماعي تماماً ومتغطرس قاتل "

قال الشريف " نعم، لهذا هم خطرون، ويجب أنْ ندمرهم أو نسجنهم: " وعندما نظر إلى أسفل شاهدها أيضاً: آثار قوائم بغل الضيقة الدقيقة المُفصّلة تقريباً وتفوق في أبعادها آثار الحيوان الطبيعي، مضغوطة عميقاً، أعمق من آثار أي بغل مهما كان الرجل الذي يحمله ثقيلاً، داخل التربة الرطبة، والآثار ممتلئة بالماء وحتى وهو يراقب اندفع حيوان مائي صغير عبر أحدها مُخلفاً انبثاقاً يُشبه الخيط الرفيع من الطمي المتلاشي؛ كان عندئذٍ يقفُ في الآثار، الآن بعد أنْ عثروا عليها أصبح في استطاعتهم انْ يروا الدرب الحقيقية نفسها من خلال النبات الذي يعلو الكتف مسحوقاً في وضع يُشبه أخدوداً عبر حقل أو أثر قارب مُنطلق متجمّد، عابراً المستنقع بخط مستقيم إلى أنْ اختفى داخل الدغل الذي يحدّ الرافد. تبعوه، سائرين عليه، يطئون خطيّ الآثار ليس جيئة وذهاباً بل كلاهما في الاتجاه، وبين حين وآخر كانت آثار الحافر نفسها تتراكب فوق سابقتها، ولا يزال الشريف في المقدمة يتكلّم من جديد، يتكلّم بصوت مرتفع ولكن من دون أنْ ينظر خلفه وكأنه – هكذا اعتقد أولاً – لا يُخاطب أحداً:

" لا يمكن أنْ يكون قد عاد من هذا الدرب. في المرة الأولى لم يتوفر لديه الوقت. في تلك المرة عاد مرتقياً التل مباشرة، عبرالغابة أو من دونها في الظلام أم من دونه. حينئذٍ سمع شيئاً من ". ثم علِمَ إلى مَنْ كان الشريف يتحدث: "لعل سكرتيرك كان يُصفّر هناك في الأعلى أو ما شابه. بسبب وجوده في مقبرة في مثل ذلك الوقت من الليل "

ثم وقفوا على ضفة الرافد نفسه – أخدود عريض قناة يتدفق خلاله في أثناء الشتاء والربيع فيض من المياه أما الآن فيجري سيل رفيع لا يزيد عمقه عن بوصة واحدة وعرضه عن ياردة من بركة إلى بركة على طول

رمال البيضاء - وحتى بينما خاله يقول " لا شك في أنَّ الأحمق - " قال الشريف الذي يبعد عشرة ياردات أو نحوها على طول الضفة:

" ها هو: " وذهبا إليه ومن ثم رأى المكان حيث وقف البغل مُقيَّداً إلى شجيرة ومن ثم الآثار حيث شق الرجل نفسه طريقه علي طول الضفة، وآثاره أيضاً أعمق من آثار اي رجل مهما كان ثقيلاً وفكر في هذا أيضاً: الألم، اليأس، الاستعجال في الظلام الدامس والخلنج الشجري والفرارالحتمي المُدوِّخ في ثوان، حاملاً رجلاً ثقيلاً لم يكن من المفترَض أنْ يحمله: ثم سمع قصف شيء واندفاع شُجيرة على مسافة أمامنهم على الضفة ومن ثم المهر ومن ثم العجوز غاوري يصرخ ومن ثم تحطم شيء آخر الذي سيكون اقتراب البغل ومن ثم صخب عادي: العجوز يصرخ ويسب وعواء كلبا الصيد والوقع المكتوم لحذاءِ رجلٍ على أضلاع كلب: ولكن لم يعد في استطاعتهم أنْ يُسرعوا أكثر من ذلك، مندفعين ومُقتحمين يشقون طريقهم خلال تمزيق الخلنج المتشابك والعريشة إلى أنْ بات في استطاعتهم أنْ ينظروا إلى أسفل داخل الأخدود والركام المنخفض من التربة الصلصالية الحديثة كان الكلبان يحفران فيها والعجوز غاوري لا يزال يرفسهما ويسب، ومن ثم أصبح الجميع في أسفل الأخدود ما عدا الزنجيين.

قال الشريف " كفى، سيد غاوري. هذا ليس فينسون ". لكنَّ العجوز بدا كأنه لم يسمعه. بل لم يبدُ أنه يعي أحد غيره هناك؛ بل بدا أنه نسيَ سبب رفسه للكلبين: أنه فقط جاء لكي يُخرجهما من الركام، ولا يزال يعرج ويقفز خلفهما على ساق واحدة والأخرى في وضعية الاستعداد للرفس حتى بعد أنْ انسحبا من الركام وكانا فقط يحاولان أنْ يجرا نفسيهما ويتجاوزاه ويخرجا من الأخدود إلى برّ الأمان، وبقيَ يرفسهما ويسب حتى بعد أنْ أمسك الشريف به من ذراعه الواحدة ومنعه.

قال الشريف " انظر إلى التربة. ألا ترى؟ لقد دفنه على عجل. هذا كان الثاني، عندما كان في عجلة من أمره، بعد أنْ طلع النهار وكان عليه أنْ يُخبئه؟ " وأصبح الجميع يفهمون الآن ما جرى - كان الجزء السفلي من التراب الحديث قريباً من الضفة من الأسفل وعلى الضفة فوقه العلامات المُثلّمة الوحشية للرفش وكأنه انقضّ على الضفة بحافة الشفرة كما ينهال بفأس (ومن جديد: فكّر: اليأس الاستعجال القتال المسعور بالأيدي مع خمول التربة نفسها الثقيل الذي لا يُحتمل) إلى أنْ نبشَ ما يكفي منه ليُخفي ما كان عليه أنْ يُخفي.

في هذه المرة لم يكونوا في حاجة حتى إلى رفوش. الجثة بالكاد كانت مغطاة؛ كان الكلبان قد كشفا عنها وأدرك عندئذٍ حجم الاستعجال الحقيقي واليأس: نفاد الوقت اليائس والمسعور الذي لم يتبقَّ لديه منه ما يكفي حتى ليُخفي دليل يأسه وسبب استعجاله؛ كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عندما ردم هو وألك ساندر، حتى كلاهما عملا بسرعة خانقة، القبر من جديد: بحيث أنّه حالما نبش القاتل، ليس فقط وحده بل أزال ستة أقدام من التربة ومن ثم أعادها مرة منذ غروب اليوم السابق، الجثة الثانية وردم القبر للمرة الثانية كان النهار قد طلع، وربما حتى بعد أنْ طلع، الشمس نفسها كانت تراقبه عندما أخذ يهبط أسفل التل ويعبر الرافد: الصباح نفسه كان يراقبه وهو يُدحرج الجثة تحت نتوء الضفة السفلي ومن ثم يعزقَ منه بحنق ما يكفي من التراب ليُخفي الجثة مؤقتاً عن العيون بشيء من ذلك اليأس المسعور للزوجة وهي ترمي رداء النوم على القفاز المنسي للعاشق - كانت (الجثة) ممدّدة على وجهها لا يبدو منها إلا قفا الجمجمة المسحوق إلى أنْ انحنى العجوز وبيده الوحيدة هزّها ليقلبها يابسة على ظهرها.

قال العجوز غاوري بصوت رشيق عالي النبرة وممتد: " نعم. إنه ذاك المدعو مونتغمري، اللعنة إنْ لم يكن هو: " ونهضَ بحركة لدنة

وسريعة كنابض ساعة يطفر يزعق ويصرخ من جديد في وجه الكلبين: " هيا يا شباب! اعثرا على فينسون! " ومن ثم هتف خاله أيضاً لكي يكون مسموعاً:

" انتظر، سيد غاوري. انتظر: " ثم وجّه كلامه إلى الشريف: " لقد كان أحمق عندئذٍ لمجرد أنه لم يتوفر لديه الوقت الكافي، وليس فقط لأنه أحمق. أنا لا أصدق ذلك مرتين - " وهو يتلفّت حوله، وعيناه ترميان النظرات السريعة. ثم ثبّتهما على التوأم. قال بحدّة: " أين الرمل الرخو؟ "

قال أحد التوأم " الماذا؟ "

قال خاله " الرمل الرخو. قاع الرمل اللين في الرافد هنا. أين هو؟ "

قال العجوز غاوري " الرمل الرخو؟ يا له من ابن حرام، أيها المحامي. وضع رجلاً في الرمل اللين؟ ابني في الرمل؟ "

قال الشريف " اسكت، سيد غاوري "، ثم قال للتوأم: " حسن؟ أين؟ "

لكنه أجابَ أولاً. كان ينوي ذلك لبرهة أو اثنتين. والآن فعل: " إنه بجوار الجسر: " ثم قال - ودون أنْ يعرف السبب: لكنَّ ذلك لم يكن أمراً هاماً أيضاً - " هذه المرة لم يكن ألك ساندر. كان هايبوي "

قال التوأم " تحت جسر الطريق العامة، حيث كان طوال الوقت "

قال الشريف " أوه، أيّهما كان هايبوي؟ " وأوشك أنْ يُجيب عن هذا: ثم بدا فجأة أنَّ العجوز نسي أمر مهره أيضاً، فاستدار بسرعة، وباشر على الفور بالركض قبل أنْ يتحرك أي منهم وقبل أنْ يتحرك هو نفسه، ركضَ بضع خطوات واسعة على الرمل الرخو وهم يراقبونه، ثم انعطف وبتلك الحيوية نفسها الخليقة بقط امتطى المهر، متشبثاً بيد

واحدة ليرتقي منحدر الضفة الشديد وكان يندفع إلى الأمام مقتحماً طريقه وغاب عن الأنظار قبل أنْ يصل أحد ما عدا الزنجيين إلى الضفة التي حتى لم يُغادراها.

قال الشريف للتوأم " اقفزا، امسك به " لكنهما لم يفعلا. اندفعا وانطلقا بعده، أحد التوأم في المقدمة ثم بقيّتهم والزنجيان في هرج وبلبلة يرتطمون بالخلنج الشجري وبالدغل، عائدين على طول الرافد ومنه إلى الدغل ومنه إلى منطقة حق المرور الخالية تحت الطريق على الجسر؛ رأى آثار الحوافر المنزلقة حيث كان هايبوي قد مرّ وكاد يهبط حتى ضفة الماء ثم رفض، احتشد السيل المياه على الحاجز الإسمنتي المقابل متدفقاً بحزمة ضيّقة حافتها الأقرب تلاشت بلا حدود داخل امتداد من الرمل الرطب ناعم وبريء وذي سطح أملس أشبه بالحليب؛ أخذ يخطو ويهتز على جذع طويل لشجرة صفصاف ممتدة فوق حافة الضفة ومكسوة على طول ثلاثة أقدام أو أربعة منها بطبقة رقيقة من الرمل الجاف وكأنك أقحمتَ عصا داخل دلو أو راقود من الدهان وحتى عندما هتف الشريف للتوأم في المقدمة " أمسكه، أنت! " رأى الرجل العجوز يقفز بدءاً بقدميه عبر الضفة دون أنْ يُحدِث طرطشة أو اضطراب من أي نوع وتابع ليس خلال السطح الهادئ بل تجاوزه وكأنه قفز ليس إلى اي شيء بل تجاوز حافة جرف أو عتبة نافذة ومن ثم توقف وشبه اختفى فجأة أيضاً بلا صدمة أو ارتجاج: فقط بثبات ودون الإتيان بحركة وكأنَّ ساقيه قُطِعتا بدءاً بمنطقة العانة بضربة واحدة من منجل، تاركاً جزعه معتدلاً باستقامة على الرمل الأملس الضحل الشبيه بالحليب.

صرخ العجوز غاوري برشاقة ومتقدماً، " حسن يا شباب! ها هو. أنا أقفُ عليه "

أحضر أحد التوأم حبل لجام البغل والحبل الجلدي وحزام السرج من

المهر واستخدم الزنجيان الرفشين كأنهما فأسان ليُقطّعا أغصان شجرة الصفصاف بينما الباقون يجرون أغصاناً أخرى وكل ما وصلت إليه أيديهم أو عثرا عليه وهنا غاص التوأم والزنجيان، وأحذيتهم موضوعة على الضفة، في الرمال أيضاً ومن التلال كانت تصل الغمغمة القوية المتواصلة لأشجار الصنوبر ولكن لا أصوات أخرى بعد على الرغم من أنه أصخى سمعه مُصغياً إلى كلا الاتجاهين على طول الطريق، ليس تقصياً لوقار الموت لأنّ ليس للموت وقار بل على الأقلّ من باب اللياقة: على الأقلّ قليل من تلك اللياقة التي ينبغي أنْ تكون حقاً عاجزاً لكل إنسان إلى أنْ يتم إخفاء الجيفة التي يُخلّفها بعيداً عن السخرية والخزي، الآن ظهرت الجثّة بدءاً بالقدمين، وأُخرِجَت من غرقها الغامض بشدّ العدة البسيطة ثم حُرِّرت من الرمل بصوت غطس واهن صافع كصوت الشفتين ربما في أثناء النوم وعلى السطح المستوي لا شيء: تموّج خفيف بدأ يختفي ثم تلاشى كطرف ابتسامة سرية ضعيفة يختفي، ومن ثم أصبحت على الضفة وهم متحلقون فوقها وهو يُصغي باهتمام أشدّ مع شيء من استعجال القاتل المسعور لكلا الجهتين على طول الطريق على الرغم من أنه كان لا يزال لا يسمع شيئاً: فقط يسمع ويُميِّز صوته هو من الواضح قبل أنْ يسمعه أحد غيره بوقت طويل، يراقب العجوز وغطى حتى الخصر بالطبقة الرقيقة نفسها من الرمل التي على الجذع، ينظر نحو الأسفل إلى الجثة، وقسمات وجهه ملتوية وشفته العليا مقلوبة نحو الأعلى جرّاء التحديق الغاضب الجامد الصقيل واللثة الوردية الخالية من الدم لأسنانه الاصطناعية:

" أوه يا إلهي، عمّي غافن، أوه يا إلهي، عمّي غافن، دعنا نُبعده عن الطريق، على الأقلّ لنُعده إلى الغابة – "

قال خاله " اهدأ: لقد مروا جميعاً الآن. أصبحوا جميعاً الآن في البلدة: " ولا يزال يراقب العجوز منحن يحفر بيد واحدة بشكل

أخرق الرمل المتجمّع في العينين والمنخرين والفم، وبدت اليد غريبة الشكل ومتيبسة بوضعيتها لدنة وسريعة حتى العنف: حتى الأزرار على القميص وعقب السيجارة وزند المسدس: ثم رجعت اليد وبدأت تبحث داخل الجيب الجانبي لكنَّ خاله كان قد قدَّمَ منديلاً ولكن بعد فوات الأوان أيضاً لأنَّ العجوز ركع عندئذ وأخذ يهز ذيل القميص ويثنيه لكي يُقرِّبه ويمسح به أو يمسح على وجه الميت ومن ثم مال وحاول أنْ ينفخ الرمل عنه وكأنه نسيَ أنَّ الرمل لا يزال رطباً. ثم نهضَ العجوز واقفاً من جديد وقال بنبرة صوت مجردة وممتدة ولا تزال خالية من أية ردة فعل:

" ما رأيك، أيها الشريف؟ "

قال الشريف " ليس لوكاس بوشان هو الفاعل، سيد غاوري. جيك مونتغمري كان حاضراً جنازة فينسون بالأمس. وبينما كانوا يدفنون فينسون كان لوكاس بوشان في سجني في البلدة "

قال العجوز غاوري " أنا لا أتحدث عن جيك مونتغمري، أيها الشريف "

قال الشريف " ولا أنا، سيد غاوري. لأنه ولا حتى مسدس كولت واحد وأربعون القديم هو الذي قتل فينسون "

قال في نفسه وهو يراقب كلا! كلا! لا تقُل هذا! لا تسأل! واعتقد للوهلة الأولى أنَّ العجوز لن يفعل وهو واقف يواجه الشريف لأنَّ جفنيه المُتغضنين انسدلا ليُخفيا عينيه ولكن فقط كما يحدث عندما ينظر أحدهم نحو الأسفل إلى شيء موجود عند قدميه بحيث لا تستطيع أنْ تعرف ما إذا كان العجوز قد أغمضهما أم أنه فقط ينظر نحو الأسفل إلى ما هو موجود على الأرض بينه وبين الشريف. لكنه كان على خطأ؛ فقد ارتفع الجفنان من جديد ومن جديد أصبحت عينا

العجوز القاسيتان الباهتتا اللون تنظران إلى الشريف؛ من جديد كان سيبدو صوته لتسعمائة شخص من أصل تسعمائة وواحد مرحاً:

" فما الذي قتل فينسون، أيها الشريف؟ "

قال الشريف " مسدس لغر الآلي الألماني، سيد غاوري. يشبه ذاك الذي جلبه شخص يُدعى بَدي مكالم إلى الوطن من فرنسا في عام ١٩١٩ وقايضه في صيف ذلك العام بكلبيّ صيد ثعالب "

وفكّر في نفسه كيف حدث ذلك حيث ربما كان ينبغي للجفنين أنْ ينسدلا من جديد ولكن من جديد كان مُخطئاً: إلى أنْ استدار العجوز، بسرعة ومرونة، وتحرك، وبادر بالكلام، وهو عاجز ببساطة أيضاً عن الفهم:

" حسن، بنيّ. فلنحمّل ابننا على البغل ونأخذه إلى المنزل "

الفصل التاسع

وعند الساعة الثانية من بعد ظهيرة ذلك اليوم في سيارة خاله ومباشرة خلف الشاحنة (كانت شاحنة صغيرة أخرى؛ كانوا - بل كان الشريف - قد صادرها، وفرشها بإطار مُضلّعٍ للماشية كان أحد توأم غاوري يعلم أنها ستكون واقفة في الفناء المُقفِر للمنزل الذي يبعُد ميلين ومُزود بهاتف أيضاً - وتذكّر كيف تساءل عما كانت تفعله الشاحنة هناك، وكيف وصلوا البلدة وهم الذين كانوا قد غادروها - وكان غاوري قد شغّل المُحرّك بشوكة الطعام التي عثر عليها بتوجيه من غاوري في المطبخ غير المُقفل عندما دخل خاله ليتّصل بالمُحقق في أسباب الوفاة وكان غاوري يقودها) يطرف بعينيه بسرعة واستمرار ليس بسبب وهج الضوء بقدر ما كان بسبب وجود شيء حارّ ومُبرغل داخل جفنيه كغبار مسحوق الزجاج (الذي كان حتماً بل ويجب أنْ يكون غباراً بعد أنْ قطعا في صباح يوم واحد عشرين ميلاً ونيّف من الرمال والطرق المرصوفة بالحصى لولا أنَّ لا غبارَ بسيطاً رفض كما فعل هذا أنْ يترطّب على الإطلاق بحركة طرف العينين) بدا له أنه رأى حشداً يتجمّع على الجانب المقابل من الشارع الذي يواجه السجن ليس فقط من المقاطعة، وليس فقط من بيت واحد واثنان وثلاثة وخمسة بملابس الخاكي والجينز باهتة اللون والملابس القطنية المطبوعة ومن دون ربطات عنق بل من البلدة أيضاً - ليس فقط الوجوه التي كان قد شاهدها تخرج من سيارات بيت الرابع المُغبرّة من أمام محل الحلاقة وصالة لعل البوله بعد ظهيرة يوم أحد ومرة أخرى هنا في الشارع في ظهيرة يوم أحد عندما كان لوكاس بوشان

مع الشريف في السيارة، بل الآخرين الذين باستثناء الأطباء والمحامين والقساوسة لم يكونوا من البلدة بل من البلد كله: تجار ومشترو قطن وبائعو سيارات والرجال الأصغر سناً من الكتبة في المتاجر ومكاتب بيع القطن وقاعات البيع وميكانيكيون في مرائب ومحطات الوقود في طريق العودة إلى العمل بعد تناول طعام الغداء - الذين حتى دون أنْ ينتظروا اقتراب سيارة الشريف بالقدر الكافي لكي يتعرّف عليهم كانوا قد استداروا وبدؤوا يتدفقون عائدين إلى الساحة كحركة الجزر بعد المدّ، وعندما وصلت سيارة الشريف إلى السجن كانوا قد بدؤوا يتحركون، يعودون إلى الساحة ويتجمعون في تلك الجهة الواحدة عبرها عندما انعطف الشريف أولاً ثم الشاحنة ثم خاله إلى الزقاق الكائن بعد السجن المؤدي إلى المنحدر الممتلئ عند باب الحانوتي الخلفي حيث كان المُحقق الجنائي في انتظارهم: بحيث أنْ التحرُّك لم يكن فقط موازياً لهم بعيداً عن الزحام المُعيق بل كانوا متقدمين، بل كان سيصل إلى مكان الحانوتي أولاً؛ وفجأة وقبل حتى أنْ يلتفت وهو على كرسيه لينظر خلفه ويعرف أنهم يحتشدون في الزقاق خلفهم وسرعان ما سينقضون عليهم، ويسيطرون ويخطتفونهم على التوالي: من سيارة خاله ثم من الشاحنة ثم من سيارة الشريف كثلاثة من قُنن الدجاج ويجرونهم ويرمون بهم أخيراً على المنحدر عند قدميّ المُحقق الجنائي؛ بدا له مع أنه لم يتحرك بعد أنه يميل من نافذة السيارة أو ربما يتشبث في الواقع بعتبة السيارة المنطلقة يصرخ فيهم بنوع من الحنق غير المُصدّق ولا يُطاق:

" أيها الحمقى، ألا ترون أنكم تأخرتم كثيراً، وسوف يكون عليكم أنْ تبدؤوا من جديد الآن لتعثروا على سبب جديد؟ " ثم التفت وهو على المقعد لينظر خلفه من خلال النافذة الخلفية برهة أو ربما اثنتين ليراه في الواقع - ليس وجوهاً بل وجهاً، ليس حشداً منهم أو تشكيلة متنوعة بل وجهاً كلياً: ليس حتى ضارياً ولا ممتقعاً بل فقط يتحرك،

وحشياً، خالياً من الفِكر أو حتى من الشغف: تعبيراً لا معنى له وبلا ماض كذاك الذي يتجسّد فجأة بعد ثوان أو حتى دقائق من الألم وحتى الهياج يُحدِّق من التجاور البريء للأشجار والغيوم والمشهد الطبيعي في إعلان الصابون على شكل أحجية اللوحة أو على الرأس المقطوع في صورة الأخبار عن الممارسات الوحشية في البلقان أو الصين: بلا كرامة ولا حتى مُثيراً للرعب. فقط بلا رقبة بعضلات مرتخية وناعس، يتدلى وجهاً لوجه معه خلف زجاج النافذة الخلفية ولكن في الوقت نفسه يندفع شنيعاً نحوه حتى أنه بدأ في الحقيقة يتراجع بل وبدأ يفكر بعد لحظة سوف ينال مني وإذا به بوف! يختفي، ليس فقط الوجه الكليّ بل الوجوه، الزقاق نفسه أصبح خالياً خلفه: لا أحد ولا شيء فيه على الإطلاق وفي الشارع خلف الفم الفاغر ليس هناك الآن أكثر من حفنة من الأشخاص يقفون وينظرون على طول الزقاق بعدهم فالتفتوا أيضاً حتى وهو ينظر وبدأوا يتراجعون نحو الساحة.

لم تردّد أكثر من ثانية. قال في نفسه بسرعة وبهدوء تامّ لقد انتقلوا جميعاً إلى المقدمة، دون أنْ يواجه أية صعوبة (لاحظَ أنَّ السيارة قد توقفت الآن) وضع يده على مقبض الباب، ولاحظ أنَّ سيارة الشريف والشاحنة معاً توقفتا أيضاً عند المنحدر المزدحم حيث كان أربعه رجال أو خمسة يرفعون نقّالة إلى الباب الخلفي المفتوح للشاحنة بل وسمع صوت خاله من خلفه:

" الآن سنذهب إلى المنزل وأودعك السرير قبل أنْ تُحضِر أمك طبيباً ويحقننا نحن الاثنين بإبرة: " ثم يعثر على المقبض ويترجل من السيارة، متعثّراً قليلاً ولكن فقط مرة واحدة، ثم يرتطم عقبا قدميه أيضاً بقوة على الإسمنت على الرغم من أنه لم يكن يركض على الإطلاق، وأُصيبت عضلات ساقه بالتصلّب بسبب السيارة أو ربما حتى بتصلّبها من التخبُّط في قاع الرافد ناهيك عن الليلة التي أمضاها

في حفر القبور وردمها من جديد ولكن على الأقلّ كان التذمُّر يُصفّي ذهنه نوعاً ما أو ربما لعلها ريح الحركة وهو يحفر: على أية حال إذا كان سيتلقّى أوهاماً فسوف يكون لديه ذهن صاف لكي ينظر إليها به: على طول الطريق العامة بين محل الحانوتي والمبنى المجاور له على الرغم من أنّ الأوان قد فات طبعاً، يندفع الوجه الكليّ ويندالح للمرة الأخيرة بما أنه كان حينئذٍ قد عبر الساحة والرصيف منذ وقت طويل، في اصطدام واحد أخير ثم يخترق لوح زجاج الواجهة ساحقاً بقدميه رقعة العضوية الصغيرة البرونزية–العاجيّة إلى شظايا في رابطة مُعدّي الجنازات الوطنية وشجرة النخيل الوحيدة الرثّة ذات النمو المُعاق في وعائها الفخاري الأحمر الداكن مُفجّراً إلى أشلاء الستارة الأرجوانية التي جعلت الشمس لونها باهتاً وكانت الحاجز الواهي الأخير الذي يحمي ما تبقّى ممّن كان جيك مونتغمري يمتلكه مما تبقّى من حصّته من الكرامة الإنسانية.

ثم خرجا عن مسار المُشاة وانتقلا إلى الرصيف، ومنه إلى الساحة، ووقف لا يُبدي حِراكاً لِما بدا له أنها المرة الأولى منذ أنْ غادر وخاله مائدة العشاء وخرجا من المنزل قبل أسبوع أو شهر أو عام أو كائناً ما كان الوقت من ليل يوم الأحد السابق. لأنه هذه المرة لم يكن في حاجة حتى إلى الضربة الخفيفة. كانوا هناك طبعاً يضغطون أنوفهم على الزجاج لكنَّ عددهم لم يكن كافياً ليسد الرصيف ناهيك عن تشكيل وجهٍ كليّ؛ والموجودون هنا ليسوا أكثر من حفنة وغالبيتهم من الصِبية الذين كان ينبغي أنْ يكونوا في المدرسة في مثل تلك الساعة – ليس بينهم حتى وجه قرويّ ولا حتى وجه رجل حقيقيّ لأنه حتى الأربعة أو الخمسة الباقون كانوا بحجم رجال لكنهم ليسوا رجالاً ولا صِبية وكانوا دائماً يحضرون هناك عندما يسقط العجوز المُصاب بالصَرَع العم هوغي موزبي من دار البرّ في المجرور والزبد يخرج من فمه أو عندما نجح ويلي إنغرام أخيراً في إطلاق النار على ساق أو عورة ما

اتصلت به امرأة ما وقالت إنه كلب مجنون: ويقفُ عند المدخل المؤدي إلى الممشى بينما جاء خاله يُدمدم بها خلفه، يطرف بجفنيه الجافين المتألمين متألماً وهو يراقب السبب: الساحة ليست خالية بعد لأنَّ هناك العديد منهم لكنها تفرغ منهم، أصحاب ملابس الخاكي والجينز والقماش القطني المطبوع يتدفقون إليها وعبرها باتجاه السيارات والشاحنات المتوقفة، يتكتلون ويحتشدون عند الأبواب بينما زحفوا واحداً إثر آخر واحتلوا المقاعد والأسرّة وسيارات الأجرة؛ وبدأتْ مفاتيح القدح تئن والمحركات تدور وتهدر ولا تتحرك والسرعات تصرّ وتطحن بينما المسافرون لا يزالون يهرعون باتجاهها والآن ليس واحداً بل خمسة منهم أو ستة دفعة واحدة هرولوا مبتعدين عن حافة الطريق وانعطفوا نحوها وقفزوا إلى متنها ومن ثم لم يعُد يستطيع أنْ يعدّها حتى لو حاول، وهو واقف بجوار خاله يراقبها تتكثّف ضمن أربعة صفوف في الشوارع الأربعة الرئيسة المؤدية إلى خارج البلدة من الجهات الأربع، وتُسرِع حتى قبل أنْ تغادر الساحة، والوجوه تنظر للحظة واحدة أخيرة ليس إلى الخلف بل نحو الخارج، ليس إلى أي شيء، بل فقط نحو الخارج فقط مرة واحدة وليس لمدة طويلة ثم لم تعد تفعل، متلاشية بسرعة من صورتها الجانبية وقد بدأتْ تبدو منطلقة بسرعة أكبر من وسيلة النقل التي تحملها، وأضحت الوجوه خارج البلدة قبل أنْ تغيب عن الأنظار بوقت طويل: ومرتان أُخريان حتى من السيارة؛ وأمه واقفة فجأة ولا تلمسه، من الواضح أنها جاءت أيضاً من الممشى من السجن مارة من حيث كانوا ربما لا يزالون ينتزعون مونتغومري من الشاحنة لكنَّ خاله كان قد أخبره أنَّ في استطاعتهم أنْ يتحملوا أي شيء شريطة أنْ يحتفظوا دائماً بحق رفض الاعتراف بأنها كانت مرئية، قائلة لخاله:

" أين السيارة؟ " ثم حتى لم تنتظر جواباً، والتفتت نحو الخلف إلى الممشى الممتد أمامهم، وسارت نحيلة ومنتصبة القامة ومتيبّسة

تنظر إلى الخلف وعقبا قدميها يُقعقعان ويُفرقعان على الإسمنت كما فعلوا في المنزل عندما كان الأربعة كلهم هو وألك ساندر ووالده وخاله يمشون بخطى أكثر رشاقة بعض الوقت، عائدين من أمام الهرج حيث لم تعد توجد هناك غير سيارة الشريف الخالية والشاحنة الخالية وانتقلتْ إلى الزقاق حيث وقفت تمسك بباب السيارة لتُبقيه مفتوحاً عندما وصل هو وخاله إلى هناك ورأوهم من جديد يعبرون فم الزقاق وكأنهم يعبرون خشبة مسرح - السيارات والشاحنات، والوجوه بمظهرها الجانبي الذي لا يُقهَر ليست مذهولة ولا مشدوهة بل تحمل ما يُشبه الإنكار الحازم، تنطلق عبر فوهة الزقاق متدفقة ومتواصلة عديدة كأفراد المرحلة الثانوية المتقدّمين في المدرسة أو ربما كفرقة جوالة مُسافرة لليلة واحدة تؤدي مسرحية معركة سان خوان هيل وأنت ليس فقط لا تسمع بل لا تحتاج إلى ألا تُصغي إلى الأصوات الخافتة المُضطربة المكتومة بقدر حاجتك إلى مشاهدة القوات المتقدمة أو المُحتشدة حالما تصل أجنحة المسرح تندفع في حركة مسعورة بالقيام بتبادُل المعاطف والقلنسوات والضمادات الزائفة وهم ينحنون على أنفسهم خلف ورق لفّ الجبن المُجعّد المرسوم عليه ما يمثّل المعركة والشجاعة والموت ليسقطوا على مؤخرتهم ويعبروا أضواء المسرح من جديد في هيئة انتباه بطوليّ.

قال " سوف نوصِل الآنسة هابرشام إلى المنزل أولاً "

قالت أمّه " اركبي " وبعد الانعطاف يساراً إلى الشارع خلف السجن ظل يسمعهم وبعد الانعطاف إلى اليسار إلى تقاطُع الطرق التالي وإذا بهم يعبرون من جديد خشبة المسرح تلك أيضاً بالنظام نفسه والاستمرارية، تعبير جانب الوجوه جامد من فوق ضجيج الإسمنت والمطاط الصارّ واستغرقَ منه دقيقتين أو ثلاث دقائق هذا الصباح بالشاحنة ليحظى بفرصة فقط ليركبها ويسلك الدرب نفسها التي

كانت تمشي فيها؛ وسوف يستغرق من خاله خمس دقائق أو عشر للعثور على فتحة يتسللان منها ويعودان إلى السجن.

قالت أمه " هيا، اجعلهم يُدخلونك: " وعندما أدرك أنهم لن يمروا بالسجن على الإطلاق؛ قال:

" آنسة هابرشام – "

قال خاله " كيف أفعل ذلك؟ فقط بإغماض عينيّ وسحق قدمي اليُمنى بقوة؟ " ولعله فعل؛ لقد أصبحا في الدفق أيضاً الآن ينعطفان معه باتجاه المنزل ولا بأس بهذا، لم يكن ما يُقلقه هو الخوض فيه بل الخروج منه من جديد قبل ذلك الهرج المسعور ليس من الفرار إنْ كان هناك مَنْ يُفضّل هذه التسمية لذلك سمّه إجلاءً يجرفهما إلى هبوط الليل لكي يلفظهما أخيراً على بُعد ساعات وأميال منبوذَين ومُستنزفَين ومقطوعي الأنفاس في موقع ما على طول الحدود القصوى غير الموجودة على الخريطة للمقاطعة ليعودا إلى الظلام: قال من جديد:

" آنسة هابرشام – "

قال خاله " إنَّ لديها شاحنتها، ألا تذكُر؟ " – ولم يكن يفعل أي شيء على مدى خمس دقائق حتى الآن، مع أنه حاول ثلاث مرات أنْ يقول: إنَّ الآنسة هابرشام في الشاحنة ومنزلها يقع على مسافة لا تزيد على نصف ميل وكل ما يمنعها هو أنها لا تستطيع أنْ تصل إليه، المنزل على أحد الجانبين والشاحنة على الجانب الآخر من ذلك العائق الذي لا يمكن اختراقه من سيل السيارات والشاحنات المتراصّ وهكذا فهو مُحرَّم على عانس عجوز في شاحنة مُستعملة توزع الخضروات وكأنها في مانغوليا أو على سطح القمر: جالسة في الشاحنة والمُحرّك يدور والسرعات مُعشّقة وقدمها على دواسة السرعة مستقلة منعزلة ومنبوذة منتصبة القامة ونحيلة تحت القبعة العتيقة المضبوطة وحتى الهاجعة

تنتظر وتراقب ولا ترغب إلا فقط في الانتهاء من الأمر لكي تتمكن من خلع الملابس اللعينة المُرقّعة وإطعام الدجاج وتناول وجبة العشاء ونيل قسط من الراحة أيضاً بعد التجوال مدة ست وثلاثين ساعة وهذا بالنسبة لعمر السبعين أسوأ من مائة ساعة بالنسبة لصاحب سن السادسة عشرة، تراقب وتنتظر تلك الغشاوة الضباب المُدوِّخة قليلاً بل طويلاً ولكن ليس إلى ما لا نهاية ليس طويلاً جداً لأنها امرأة عملية لم يستغرق منها الكثير من الوقت في الليلة السابقة لتُقرِّر أنَّ الطريقة المُثلى لإخراج الجثّة من القبر هي في الذهاب إلى القبر ونبشه ولم يطُل بها الوقت الآن لتُقرر أنَّ الطريقة المُثلى للتغلُّب على العقبة خاصة والشمس تميل نحو الغرب هي الالتفاف حولها، سيارة الشحن تتحرك الآن منطلقة في خطٍ موازٍ مع العقبة وفي اتجاهها، ولا تزال منبوذة ومعزولة لكنها لا تزال مستقلّة أيضاً لكنها متوترة قليلاً، لعلها فقط تدرك أنها تقود أسرع قليلاً من عادتها وأعجبها ذلك، بل أسرع في الواقع مما فعلتْ في اي وقت مضى وحتى حينئذٍ لم تكن قريبة منها بل فقط تجاورها لأنها كانت عندئذٍ سريعة حقاً: بأزيز واحد لا ينتهي؛ والآن سوف تعلم أنه عندما تصل إلى الفجوة قد لا تتصف بالمهارة اللازمة أو الشجاعة أو السرعة أو الرشاقة أو العين أو ربما حتى الأعصاب الكافية: إنها تنطلق بسرعة تزداد باطراد وتحاول بتصميم ألا تغيب الفجوة عن إحدى عينيها وتراقب جهة انطلاقها بالأخرى بحيث أنها لن تدرك إلا لاحقاً أنها انعطفت ليس جنوباً بل شرقاً الآن وليس فقط منزلها ينهار بسرعة ويندثر خلفها بل وبلدة جيفرسون أيضاً لأنهم أو السيارة لم تكن تتحرك في اتجاه واحد فقط خارج البلدة بل فيهم جميعاً وعلى الطرقات الرئيسة كلها التي تؤدي بعيداً عن السجن ومحل الحانوتي ولوكاس بوشان وما تبقّى من فينسون غاوري ومونتغمري كتبعثُر بقّة الماء المسعور فوق بركة راكدة عندما ترمي حجراً فيها: لذلك سوف تكون اكثر ياساً من اي وقت مضى مع اتساع المسافة بينها وبين المنزل

وثمة ليل آخر قادم، وتقوّي نفسها لمواجهة أية فجوة أو شرخ الآن، وكانت السيارة المتهالكة بالكاد تلمس الأرض بجوار تلم البقعة الضبابية الكتيمة التي تقترب زاحفة أكثر فأكثر بجوارها عندما وقع المحتوم: بسبب فشل أو عيب في العين أو اهتزاز في اليد أو طرفة جفن لا إرادية عند التحديق اليقِظ المُركّز أو لعلها سِمات جغرافية بسيطة: حجر أو كتلة في الطريق بعيد عن الاتّهام كبُعد الله لكنه شديد القُرب ولكن بعد فوات الأوان، لقد قفزت الشاحنة ووقعت على سيل من المطاط حامل الكربات وشحنت الفولاذ المضغوط واندفعت بفوضى ولا تزال تقبض على المقود العاجز وتضغط على دواسة السرعة الضعيفة منعزلة ومنبوذة عبر الزحف الهادئ الطويل في آخر النهار، داخل قبّة الغسق الساكنة بلونها البنفسجي الزاهي، أسرع فأسرع الآن نحو تصاعد أخير فقط هذا الجانب من حدود المقاطعة حيث سينتشرون عبر كل تقاطُع للطُرق والأزقة كأرانب وجرذان تقترب أخيراً من جحورها الخاصة، والشاحنة تُبطئ ومن ثم تتوقف قليلاً عند تقاطع الطرق في الطريق ربما حيث لفَظها الزخم لأنها أصبحت في أمان الآن، في مقاطعة كروسمان وكان في استطاعتها أنْ تنعطف جنوباً من جديد على طول حافة يوكناباتاوفا وأضاءت الأنوار وهي تنطلق الآن بأقصى سرعتها على طول حواف طرقاتها الريفية غير المُعلّمة؛ ثم ساد الظلام الشامل وفي مقاطعة موت بات في وسعها أخيراً الآن أنْ تنعطف غرباً وتراقب فرصتها للتحول شمالاً وتنطلق، الساعة التاسعة وعشر دقائق على طول الطرق غير المُعلّمة التي تحفّ بالخط الوهمي الذي سطعت بعده الأضواء الأمامية المسعورة البعيدة وأخذت تندفع بسرعة غائصة داخل أخاديدها وأوكارها؛ سرعان ما وصلتْ إلى مقاطعة أوكاتوبا وسرعان ما حل منتصف الليل وأصبح في استطاعتها حتماً أنْ تنعطف شمالاً عائدة إلى يوكناباتاوفا، واهنة ومُستنزَفة منعزلة ولا تُقهَر بين الجداجد وضفادع الأشجار وبق البرق والبوم وطيور السّبد واندفعت

كلاب الصيد وهي تنبح من تحت المنازل الهاجعة وحتى أخيراً ظهر رجل بقميص نومه وحذائه المحلول، حاملاً مصباحاً:

إلى أين تحاولين أنْ تذهبي، أيتها السيدة؟

إنني أحاول أنْ أبلغ جيفرسون.

إنَّ جيفرسون تقع خلفك، أيتها السيدة.

أعلم. كان عليّ أنْ أتفادى زنجياً عجوزاً عِدائيّاً لا يُحتَمَل أثار اضطراب المقاطعة كلها بمحاولته التظاهر بأنه قتل رجلاً أبيض: وفجأة اكتشفَ أنه يوشك أنْ يضحك، اكتشف ذلك في الوقت المناسب، ليس بالضبط لمنع الضحك بل ليبدأ في إيقافه بسرعة كبيرة، كان في الواقع مندهشاً أكثر من أي شيء آخر، إلى أنْ قالت أمه بخشونة:

" أطلق النفير. أطلق النفير ليبتعدوا عن الطريق " واكتشفَ أنه ليس ضحكاً على الإطلاق أو على أية حال فقط ليس ضحكاً، أي أنَّ الصوت الذي كانت تُصدره يُشبه الضحك ولكن مع شيء من المبالغة وبدا أعلى، كأنه يخرج بصعوبة أكبر وكلما شعر بخروجه الصعب وسمعه قلَّ تذكُّره أكثر فأكثر لسبب ضحكه وفجأة أصبح وجهه رطباً ليس مع نضح بل بما يُشبه تفجّر وتفصُّد من الماء؛ على أية حال ها هو ذا، كتلة ضخمة ثاني أضخم الثلاثة، بل أضخم من أمّه ومن خاله ومنه، يكاد يبلغ السابعة عشرة ويُصبح رجلاً ومع ذلك وبسبب وجود ثلاثة أشخاص في السيارة يُشكّل زحاماً شديداً لم يسعه إلا أنْ يشعر بكتف امرأة على كتفه ويدها الضيقة على رُكبته وهو جالس هناك كطفل مضروب على مؤخرته قبل حتى أنْ يتلقّى إنذاراً كافياً للبدء بإيقافه.

قال "لقد فروا"

قالت أمه "ابتعدوا، أيها الملاعين. دُر حولهم: " وفعل خاله، على الجانب الخطأ من الشارع وسار بسرعة كبيرة كما فعل في صباح ذلك اليوم في طريقه إلى الكنيسة محاولاً أنْ يُبقي الشريف ضمن مجال رؤيته وليس لأنَّ أمه بيّنت أنه بما أنهم جميعاً موجودون في البلدة يبذلون أقصى جهدهم للخروج من المأزق لن يقترب أحد من الساحة على ذلك الجانب من الشارع لذلك الأمر ببساطة هو أنْ تقلّ شخصاً واحداً معك في السيارة حتى وإنْ لم تكن تقودها، هذا كل ما تحتاج إلى فعله: تتذكرهم مرة من قبل في سيارة وخاله يتولى القيادة وحينئذٍ قال خاله:

"حسن، كيف افعل ذلك، فقط أُغمضُ عينيّ وأضغط على المُسرِّع؟" وقالت أمّه،

" كم حادث اصطدام شهدتَ مع نساء يقلنَ كليهما؟ "

" حسن، أصبت، ربما لأنَّ سيارة أحدهم لا زالت في المحل الذي اصطدم به شخصٌ بالأمس: " ثم لم يعُد يراهم بل فقط يسمع التمزُّق الطويل بلا بداية ولا نهاية دون أنْ يترك أي أثر للأُطُر واحتكاك على الرصيف يشبه صوت الحرير الخام ولِحُسن الحظ كان المنزل يقع أيضاً على الجانب الخطأ نفسه من الشارع وحمل معه الصوت إلى الفناء أيضاً وبات في استطاعته عندئذٍ أنْ يفعل شيئاً بخصوص الضحك فقام خلال دقيقة بوضع يده على كائناً ما كان الذي دفعه إلى الضحك وأخرجه إلى النور حيث يستطيع حتى هو أنْ يرى أنه ليس مُضحكاً؛ كانت عشرة آلاف ميل من كونه مُضحكاً كافية لجعل أمّه تسبّ: قال:

" لقد فرّوا " وعلِمَ في الحال أنه كان مُخطئاً، وكاد يفوت الأوان حتى وهو واقف هناك ينظر إلى نفسه، وقطع الفناء بسرعة إلى أنْ توقف ثابتاً وحرّكَ فقط ذراعه بعيداً وقال " انظري، أنا لستُ مُعاقاً.

أنا فقط مُتعب. سوف أذهب إلى غرفتي وأتمدد قليلاً: " ثم قال لخاله: " سوف أصبح على ما يُرام بعد ذلك. اصعد واستدعني بعد خمس عشرة دقيقة: " ثم توقف والتفت من جديد ومن جديد إلى خاله: " سوف أكون مستعداً بعد خمس عشرة دقيقة: " ومضى هذه المرة حاملاً إياه معه إلى المنزل وحتى في غرفته أيضاً كان في استطاعته أنْ يسمعه حتى من خلال الستائر المُسدلة وقفز الأحمر خلف جفنيه إلى أنْ بدأ يرتقي متكئاً على أحد مِرفقيه تحت يد أمه أيضاً ومن جديد على خاله بعد الدوّاسة مباشرة:

"خمس عشرة دقيقة. لا أظنك ستذهب من دوني؟ أنت وعدتني؟"

قال خاله " طبعاً. لن أذهب من دونك. أنا فقط سوف – "

قالت أمه " هلا خرجتَ بنا من هنا من فضلك، يا غافن؟ " ثم قالت له، " استلقِ " وفعل وكان لا يزال هناك حتى من خلال حتى على اليد، راحة اليد الباردة الهادئة النحيلة الضيقة لكنها مفرطة الجفاف والخشونة وربما حتى مفرطة البرودة، الشعور الجاف الحارّ الخشن لجمجمته أفضل من الشعور باليد فوقها لأنه على الأقلّ كان عندئذٍ قد تعوّد عليها، لقد تقبّلها مدة كافية، حتى أنه أدار رأسه ولكن لكي يحظى بفرصة للهروب من راحة اليد الهشة الضيقة التي لا يمكن التخلص منها كما يُزيح المرء جبينه للتخلُّص من وحمة بل لم يعد عندئذٍ وجهاً لأنَّ ظهورهم كانت متجهة نحوه أما خلفية رأسه، لكنَّ خلفيّة رأس واحد، تكوين خلفيّة واحدة لرأس واحد شامل كتلة واحدة هشّة رخوة ضعيفة كبيضة لكنها رهيبة في تجمّعها المتناسق المندفع ليس نحوه بل بعيداً عنه.

قال " لقد فرّوا؛ وفرّوا على ضمائرهم عشرة سنتات كاملة بعدم اضطرارهم إلى أنْ يشتروا له علبة من التبغ ليبيّنوا أنهم سامحوه "

قالت الأم " نعم، انتهوا من أمره: " وكان ذلك أشبه بالطلب من رجل يتدلّى فوق جُرف أنْ يبقى صامداً: الذي لا يريد في هذه اللحظة غير فرصة للاسترخاء والاستغراق في عدم النوم القليل العدم الذي كان لا يزال في حوزته شيء منه الذي رغب في الليلة السابقة في أنْ يستغرق في النوم وكان يمكنه أنْ يفعل ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي والآن رغب أكثر من أي وقت مضى في النوم وكان لديه كل الوقت المطلوب على امتداد الدقائق الخمس عشرة التالية (أو الأيام الخمسة عشر أو الأعوام الخمسة عشر طالما أنّ أحداً يعلم أنه لم يكن في وسع أحد إلا أنْ يأمل في أنْ يُقرر كرفورد غاوري أنْ يدخل ويبحث عن الشريف لكي يقول له حسنٌ أنا القاتل لأنّ كل ما لديهم هو لوكاس الذي قال إنّ فينسون لم يُقتَل بمسدس كولت واحد وأربعين أو بمسدسه على أي حال، مسدس لوكاس كولت واحد وأربعون وبدي مكالن ليقول أو لا يقول نعم لقد قايضتُ كراوفورد غاوري بمسدس ألمانيّ قبل خمسة وعشرين عاماً؛ ولا حتى أنْ يأتي شخص إلى أحد أفراد شرطة ممفيس لينظر إلى جثة فينسون غاوري ويقول أية رصاصة قتلته لأنّ الشريف ترك العجوز غاوري يُعيده إلى المنزل ويُزيل عنه الرمل الرخو ويدفنه من جديد في الغد: حيث في إمكان هامبتون وخاله أنْ يذهبا إلى هناك في ليلة الغد وينبشانه) لكنه نسي كيف يفعل: أو لعل انتهى الأمر ولم يكن يجرؤ على الاستغراق في القليل مما تبقّى لديه من العدم: أي لا شيء: لم يتبقَّ حزن ليتذكّره ولا شفقة ولا حتى وعيٌ بالخزي، لا تبرئة من طموح رجل عبر رجل إلى رجل خال من الموت من خلال تطهير الشفقة والخزي ولكن فقط رجل عجوز الحزنُ بالنسبة إليه ليس حتى مركَباً خاصاً به بل مجرد ظاهرة موقّتة لابنه المغدور يهزّ جثة شخص غريب ويقلبها على ظهرها ليس استرضاءً لصرختها الوحيدة الخرساء المتّهِمة ليس شفقة ليس انتقاماً بل تحقيقاً للعدالة بل فقط للتيقّن من أنها الجثّة الخطأ، صارخاً بمرح بلا خجل

وبصوت مرتفع: " نعم إنه ذلك الملعون مونتغمري اللعنة إنْ لم يكن هو " ووجهاً شاملاً؛ الذي لم يعُد يتوقع أنْ يُجرّ لوكاس إلى خارج زنزانته مرفوع الهامة على متن مدّ من الكفّارة ويُقيم للحظة انتقامه وانتصاره تمثالاً على قاعدة نُصب التحالف، مثلاً (أو ربما من الأفضل على شرفة مبنى مكتب البريد تحت السارية حيث يُرفرف العلم الوطني) ثم توقّع ذلك لنفسه ولألك ساندر وللآنسة هابرشام: الذي هو (نفسه) ليس فقط لم يرغب في ذلك ولكن ما كان يمكن له أنْ يقبله بما أنه كان سيُلغي ويترك فراغاً مكان كامل الجزء الذي أنجزه وكان ينبغي أنْ يبقى مُغفلاً وإلا لكان بلا قيمة: الذي أراد طبعاً أنْ يترك علامة أيضاً على عصره في الإنسان ولكن فقط هذا، ولا أكثر، علامة ما على دوره على الأرض ولكن بتواضُع، ينتظر يرغب حتى بتواضع، حتى دون أمل، لا شيء (وهو طبعاً كل شيء) غير فرصته الوحيدة المُغفلة أيضاً لإنجاز شيء ينم عن شغف وشجاعة وتقشّف ليس فقط على تاريخ الإنسان الباقي بل داخله الذي يستحق أنْ يحتل موقعاً فيه (مَنْ يدري؟ لعله يُضيف مقداراً مجهولاً ضئيلاً إلى صرامة الشغف الشجاع للتاريخ) امتناناً لما تتضمنه من منحةِ عصره، لا يرغب إلا في هذا وحتى من دون أمل، راغباً في قبول حقيقة أنه فقده لأنه لا يستحقه، لكنه حتماً لم يقبل هذا - ليس حياةً محميّة من الموت ولا حتى موتاً محمياً من الخزي والكرامة ولا حتى تعليق حكمٍ قضائي بل فقط الإلغاء المُتذمّر لموعد؛ ليس مهانة موصومة بإلغائها المُشين، ليس سمواً ومهانة مع مهانة وافتخار يبقيان في الذاكرة ولا افتخار الشجاعة والشغف ولا الشفقة ولا افتخار الصرامة والحزن، بل الصرامة نفسها مُنتقَصَة بما كسبته، وخُدِعَتْ الشجاعة والشغف بما كان لديهما لتتعاملا به بنجاح - وجه شامل، الوجه المُركّب لنوعه الأصلي أرضه الأصلية، شعبه وسلالته الخاصّان اللذان كان يُفرِحه ويفتخر به ويأمل في أنّ يجد أنه جدير بأنْ يُقدمهما واجهة واحدة متحدة لا تنكسر للهوة المُظلمة الليل - وجه هائل ضار

نهم ولا حتى يشبع، لا يُحبَط ولا حتى يُخذَل، لا يبقى ولا ينتظر ولا حتى يحتاج إلى أنْ يصبر بما أنَّ الأمس واليوم والغد موجودون: لا يتجزؤون: واحد (خاله مُكرّس لهذا أيضاً، توقّع هذا أيضاً قبل عامين أو ثلاثة أو أربعة أعوام مضت بما أنَّ خاله كان لديه كل شيء آخر اكتشف مع تقدّمه على أدراج الرجوله أنه صحيح: " إنَّ كل ما ترى هو الحاضر. الأمس لن ينتهي حتى الغد والغد بدأ قبل عشرة آلاف عام. بالنسبة إلى كل فتي جنوبيّ في الرابعة عشرة من عمره، ليس مرة واحدة بل كلما أراد، تأتي لحظة قُبيل حلول الساعة الثانية بعد ظهيرة ذلك اليوم من شهر تموز عام ١٨٦٣، الجنود في موقعهم خلف حاجز السياج، والمدافع جاهزة ومستعدة في الغابة والرايات المنشورة رُفِعَتْ لإطلاق النار وبيكيت نفسه بعقصات شَعره الطويلة المدهونة بالزيت ويحمل قبعته بيد ربما وسيفه باليد الأخرى ينظر إلى قمة التل في انتظار أنْ يُعطي لونغستريت الأمر وكل شيء جاهز، إنه لم يحدث بعد، إنه حتى لم يبدأ بعد، وليس فقط لم يبدأ بعد بل لا يزال هناك وقت لأنْ لا يبدأ ضد ذلك الموقع وتلك الظروف التي صنعت من الرجال أكثر من غارنت وكمبر وآرمستيد وويلكوكس يبدون جدّيين ومع ذلك سيبدأ ، كلنا يعلم ذلك، لقد قطعنا شوطاً بعيداً جداً ولدينا الكثير من العمل وتلك اللحظة لا تحتاج إلى صبي في الرابعة عشرة ليقول في نفسه هذه المرة. ربما هذه المرة مع كل هذه الخسارة وكل ذلك الربح: بنسلفانيا، ميريلاند، العالم، قبّة واشنطن الذهبية لتتوّج بنصر بائس ولا يُصدَّق المقامرة البائسة، الطاقم شُكِّلَ قبل عامين؛ أو بالنسبة إلى أي شخص أبحر حتى على متن مركب شراعي صغير تحت شراع شبيه بلحاف، اللحظة في عام ١٤٩٢ عندما قال أحدهم في نفسه انتهينا: إنها الحافة القصوى التي لا عودة بعدها، العودة الآن وبناء منزل أو الإبحار دون عودة فإما العثور على اليابسة أو الغوص عبر حافة العالم الهادرة. صوت رفيع، شاعرة حسّاسة راسخة من زمن شبابي قالت

الشاي المُبعثر يتلاءم مع الأوراق الخضراء وفي كل يوم يموت غروب: إنَّ مغالاة شاعر غالباً ما تعكس الحقيقة ولكن بالمقلوب وإلى الخلف بما أنَّ المتلاعب غير الواعي بالمرآة الغارق في شروده نسيَ أنَّ الجزء الخلفي منها هو أيضاً من الزجاج: لأنهم إنْ فعلوا، فإنَّ بديله هو أنَّ غروب الأمس وشاي الأمس معاً لا ينفصلان عن الرواسب المبعثرة التي لا تُدمَّر ولا تنفصم تذروها الرياح خلال أروقة الغد التي لا نهاية لها، إلى داخل الحذاء سوف نُضطر إلى الدخول وحتى الملاءات التي سنُضطر (أو نحاول) أنْ تنام متدثرين بها: لأنك لن تُفلتْ من أي شيء، لن تفرّ من أي شيء؛ إنَّ المُطارِد هو الذي يركض وليل الغد ليس إلا صراع طويل متواصل بلا نوم مع إلغاءات الأمس وندماته "): الذي لم يتجاوز حتى حالة موت ولا حتى موت لوكاس بل فقط لوكاس، لوكاس في عشرة آلاف تجسُّد لسامبو ليعدو بلا انتباه ولا حتى وعي خلال ذلك الشق كمرور فئران من شق المقصلة في تلك اللحظة من عدم الانتباه تسقط الشَفرة بلا انتباه ولا وعي ولا اهتمام؛ غداً أو على الأقلّ غداً أو إلى أقصى حد غداً وربما هذه المرة للتدخل حيث لا تخشى الملائكة طفلين أبيض وأسود في السادسة عشرة وعانس بيضاء عجوز تتقدَّم حثيثاً من سن الثمانين؛ هربوا، فرّوا ليس حتى لإنكار لوكاس بل فقط ليتجنبوا اضطرارهم إلى أنْ يُرسلوا إليه عبر مُستخدم الصيدلية علبة من التبغ ليس على الإطلاق على سبيل الاعتذار بل لكي لا يُضطروا إلى أنْ يقولوا بصوت مرتفع إنهم على خطأ: رفس الجرف منطلقاً في قفزة واحدة طويلة عالياً وعالياً ومُبطئاً داخلها وبدأ يسمعه، فقط أوهى تذبذب يسمعه الآن مُصغياً إليه، لا يتحرك ولا حتى يفتح عينيه وهو مُستلقٍ برهة أطول مُصغياً إليه، ثم فتحهما ثم وقف خاله وجانب وجهه منعكس على الضوء خلف الدواسة في ذلك الصمت التام الكامل المُطبِق الآن لا شيء فيه الآن غير تنفُّس الظلام وضفادع الأشجار والبقّ: لا هروب ولا إنكار ولا في هذه اللحظة الزائدة حتى

الحاح في أي موقع من الغرفة أو خارجها سواء فوق أو تحت أو أمام أو خلف الأصوات الحيوانية الكثيرة الصغيرة والصوت الرخيم الشاسع والصوت القصير الممدود لليل الصيف.

قال " لقد انتهى "

قال عمه " نعم، لعلهم جميعاً الآن نائمون في أسرتهم. ذهبوا إلى المنزل ليعدوا الحليب وحتى ليكون لديهم وقت قبل حلول الظلام لتقطيع الخشب من أجل إعداد إفطار الغد أيضاً "

مما جعلها مرة واحدة مع أنه أيضاً لم يتحرك. قال " لقد فرّوا "

قال خاله " كلا. إنَّ الأمر يتعدّى هذا "

قال " لقد فرّوا؛ وصلوا إلى النقطة التي لم يتبقَّ لهم ما يفعلونه فيها غير الاعتراف بأنهم كانوا على خطأ. لذلك فروا إلى بيوتهم "

قال خاله " على الأقلّ كانوا يتحركون ": مما جعلهما مرتين: الذي لم يكن حتى في حاجة إلى التلميح الأول بما أنه ليس فقط الإلحاح الحاجة الضرورة للتحرُّك من جديد أو بالآحرى ليس حقاً الاضطرار إلى التوقف تماماً عن الحركة في تلك اللحظة قبل أربع أو خمس أو ست ساعات أو كائناً ما كانت المدة الماضية عندما صدّقَ حقاً أنه سوف يتمدد مدة خمس عشرة دقيقة (وكان بالمناسبة يعلم أنها خمس عشرة دقيقة سواء تمدّد أو لم يتمدد) لم يرجع، كان موجوداً في كل مكان ولا يمكن أنْ يرجع لأنه كان لا يزال موجوداً هناك، وكان كذلك طوال الوقت، ولم يخرج ولو للحظة حتى من خلف المشهد الغريب المتحرك الذي لا زال رعاعه وغوغاؤه يُحيرونه، الذين هدرَ معهم أو بينهم ما يُقارب خمس عشرة ساعة وليس خمس عشرة دقيقة: كان لا يزال هناك أو على الأقل جزؤه غير المُكتمل فيه الذي لم يكن حتى يشكل جزءاً من الثانية بل جزءاً من الدقيقة من سيارة خاله وسيارة الشريف

في عدم اكتمال قضية لوكاس بوشان وكروفورد غاوري.بما أنه حسب علمهما قبل أنْ يفقد الأثر في صباح هذا اليوم لم يكن أي منهم يعلم ماذا سيفعلون بعد ذلك حتى قبل أنْ يتخلّص هامبتون من الدليل القليل الذي لديهم بإعادته إلى غاوري العجوز ذي الذراع الواحدة التي تحمل المسدس حيث حتى الطفلين والمرأة العجوز لم يتمكنوا من استعادته هذه المرة؛ الحاجة ليس إلى إنهاء أي شيء بل فقط الاستمرار في التحرُّك ليس حتى إلى البقاء حيث كانوا بل فقط يُحافظوا على الحركة كالاضطرار إلى الفرار على متن عربة ليس لأنك تريد أنْ تكون حيث كانت العربة بل ببساطة لكي لا تندفع بفوضى وأنت لا تزال تركض مسعوراً إلى الخلف بعيداً عن خشبة المسرح كلها وبعيداً عن الأنظار، ولا تنتظر بثبات اللحظة التي تعود فيها إليه من جديد وتفجّر فيه روح الحركة لكنه في الأصل في حالة حركة لا تتوقف كحزمة العربة التي لا تنتهي على مسافة تقلّ عن بوصة فوق ذؤابة أنفه وصدره حيث سيضعه له أول نَفَس كامل في مداره المتقطّع، وهو مستلقٍ تحته كمتشرد عالق الخطوط الحديدية تحت قطار مُسرع، وهو آمن طالما أنه لا يتحرك.

وهكذا تحرّك؛ قال " الوقت: " وهو يُدلي ساقيه: " كم الساعة الآن؟ لقد قلتُ خمس عشرة دقيقة. أنت وعدت - "

قال خاله " إنَّ الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف. لا زال هناك الكثير من الوقت لتأخذ دشاً وتتناول فطورك أيضاً. لن يغادروا إلا بعد أنْ نصل إلى هناك "

قال " هم؟ ": وهو ينهض واقفاً على قدميه الحافيتين (لم يكن قد خلع غير حذاءه وجوربه) ومدّ يده لتناول خفّه. "لقد عدتَ إلى البلدة، قبل أنْ نصل إليها؟ ألن نذهب معهم؟ "

قال خاله " كلا. سوف يستلزم الأمر كلينا لمنع الآنسة هابرشام. سوف تقابلنا في المكتب. فهيا أسرع؛ لعلها تنتظرنا الآن "

قال " نعم "، لكنه كان يحلّ أزرار القميص ويفك حزامه وبنطلونه أيضاً باليد الأخرى، وبدأ يخلعهما. وهذه المرة كان ضحكاً. لا بأس بذلك. لم يكن في وسعك حتى أنْ تسمعه. قال " إذن هذا هو السبب. لكي لا تُضطر نساؤهم إلى تقطيع الخشب في الظلام والأطفال شبه النائمين يحملون لهنّ القناديل "

قال العم " كلا. لم يهربوا من لوكاس. كانوا قد نسوا أمره – "

قال " هذا ما أقول بالضبط. إنهم حتى لم ينتظروا حتى يُرسلوا إليه علبة التبغ ويقولون لا بأس، أيها العجوز، الجميع يُخطئون ولن نُلصِق بك هذه التهمة "

قال خاله " أكان هذا ما أردتَ؟ علبة التبغ؟ أكان ذلك سيكون كافياً؟ – طبعاً ليس كافياً. وهذا أحد الأسباب في أنّ لوكاس سوف يحصل حتماً على علبة التبغ؛ سوف يُصرون على هذا، سوف يُضطرون إلى ذلك. سوف يتلقّى أقساطاً على هذا طوال ما تبقّى له من حياة في هذا البلد سواء أقبلها أم لا وليس فقط لوكاس بل لوكاس:سامبو.بما أنّ ما يجعل الرجل يُصارع الأرق في السرير ليلاً ليس لأنه سبَّب جُرحاً لأخيه بقدر ما هو أنه ارتكب خطأً؛ والجرح وحده (إذا لم يتمكن من تبريره بما يُسميه منطقاً) يستطيع أنْ يُزيله بالقضاء على الضحية والشهود لكنّ الخطأ هو خطأه وتلك إحدى قططه التي يُفضّل دائماً أنْ يقتلها خنقاً بالزبد. إذن سوف يحصل لوكاس على تبغه. وطبعاً هو لا يريده وسوف يحاول أنْ يرفضه. لكنه سوف يحصل عليه وهكذا سوف نراقب هنا .في مقاطعة يوكناواباتاوفا العلاقة الشرقية القديمة بين المُخلِّص والحياة التي خلّصها تنقلب رأساً على عقب: لوكاس

بوشان الذي كان ذات يوم عبداً لأي رجل أبيض يقع ضمن نطاق ملاحظته، أصبح الآن مستبداً بالضمير الأبيض في المقاطعة كلها. وهم - بيت واحد واثنان وثلاثة وخمسة - كانوا يعلمون هذا أيضاً فلماذا يستغرقُ إرسال علبة تبغ ثمنها عشر سنتات وقتاً طويلاً في وقت عليهم أنْ يقضوا حياتهم الواعية لفعل ذلك؟ إذن أطلقوا سراحه في الوقت الراهن. إنهم لم يكونوا يفرون منه، بل كانوا يفرّون من كراوفورد غاوري؛ إنهم ببساطة أنكروا ليس حتى برعب بل بإجماع تامّ التصميم والعزم وحولوهما بدون أي سابق إنذار إلى أوامر. لا تقتل كما تعلم - لا اتّهام، ولا حرارة: بل بمجرد وصية أخلاقية بسيطة؛ وقد قبلناها في الغموض النائي لأجداد أجدادنا، احتفظنا بها زمناً طويلاً جداً، ودللناها، وغذيناها، وأبقينا صوتها حياً وعلى الكلمات نفسها كما هي، تعاملنا بها زمناً طويلاً جداً بحيث أضحت الزوايا كلها الآن متهرئة؛ أصبحنا ننام معها نوماً هانئاً في السرير: بل إننا قطّرنا ترياقاتنا من أجلها كما تحافظ ربة المنزل البصيرة على محلول المستردة أو بياض البيض في المتناول على رفٍ واحد مع سُمّ الفئران؛ مألوفة كوجه الجدّ، وغير مألوفة كوجه الجدّ من تحت عمامة أمير هنديّ، ومجرّدة الشكل كانتفاخ بطن الجدّ على مائدة عشاء العائلة؛ حتى عندما تنكسر ويبرز الدم المسفوح ويُحدّق إلى وجوهنا يبقى لدينا المفهوم، سليماً، صحيحاً: لن نقتل ولعلنا في المرة التالية لن نفعل. أما لا تقتل طفل أمّك فتنزل في الحال إلى الشارع في ذلك الوقت وتمشي إلى جوارك في وضح النهار، أليس كذلك؟"

" إذن أنْ يقوم العديد من آل غاوري و ووركيت بحرق لوكاس بوشان حتى الموت بالوقود من أجل أمر حتى لم يرتكبه هو شيء أما أنْ يقتل فرد من آل غاوري أخاه فشيء آخر "

قال خاله " نعم "

قال " لا يمكنك أنْ تقول هذا "

قال خاله " نعم، لا تقتل هي وصية أخلاقية وحتى عندما تفعل، تبقى الوصية نقيّة لا تشوبها شائبة: لا تقتل ومَنْ يدري، ربما في المرة التالية لن تفعل. لكنْ لا ينبغي أنْ يقتل فرد من غاوري أخيه من آل غاوري: لا تردُّد في هذا، لا مرة تالية يمكن أنْ يقتل فيها فرد من غاوري غاورياً آخر لأنه لا ينبغي أنْ تكون هناك مرة أولى. ليس فقط بالنسبة إلى آل غاوري بل بالنسبة إلى الجميع: آل ستيفنس وماليسون وإدموندز ومكاسلن أيضاً؛ إذا لم نتمسك باعتقادنا بأنَّه ليس فقط لن بل ولا ينبغي ولا يمكن الوصول إلى نقطة يسفك عندها شخص من غاوري أو إنغرام أو ستيفنس أو ماليسون الدم، فكيف يمكن للأمل أنْ يبلغ النقطة حيث لا تقتل أبداً التي سوف تصبح حياة لوكاس بوشان عندها آمنة ليس رغماً عن حقيقة أنه لوكاس بوشان بل لأنه موجود؟ "

قال " إذن لقد فرّوا لكي يتفادوا شنق كروفورد غاوري بلا محاكمة "

قال خاله " ما كانوا ليشنقوا كروفورد غاوري بلا محاكمة. لقد كان عددهم كبير جداً. ألا تتذكر، لقد سدّوا الشارع أمام السجن والساحة أيضاً طوال فترة الصباح عندما كانوا لا يزالون يعتقدون أنَّ لوكاس بوشان هو الذي أطلق الرصاص على فينسون غاوري في ظهره دون أنْ يرف له جفن؟ "

" كانوا ينتظرون مجيء أهل بيت فور لينفذوا ذلك "

" وهذا ما أقول بالضبط - إذا سلّمنا حالياً بصحة ذلك. وكون أهل بيت فور يتألفون من آل غاوري ووركيت والأربعة أو الخمسة الآخرين الذين ما كان يمكن أنْ يُعطوا أي فرد من غاوري أو حتى ووركيت مُضغة من التبغ وكانوا سيأتون فقط ليشاهدوا الدم، أمر

ضئيل ولا يمكن أنْ يفرز جمهوراً. ولكن ليس كلهم معاً لأنّ هناك نقطة عددية بسيطة يُلغي عندها الجمهور نفسه ويُدمروها، ربما لأنه أصبح في الختام من فرط الضخامة بحيث لا يستطيع مواجهة الظلام، والكهف الذي توالد فيه لم يعُد يكفي لإخفائه عن نور الشمس وهكذا في نهاية المطاف وسواء أفعل أم لم يفعل يجب أنْ ينظر إلى نفسه، أو ربما لأنّ كمية الدماء في جسد كائن بشري واحد لم تعُد كافية، كما يمكن لحبة فول سوداني أنْ تُدغدغ فيل واحد ولكن ليس اثنين أو عشرة. أو ربما لأنّ رجلاً يخترق جمهرة من الناس ثم يخترق تكتلاً يُلغي الجمهرة بعملية ابتلاع، تمثُّل، ثم عندما يُصبح أضخم مما ينبغي حتى بالنسبة إلى حشد يُصبح رجلاً من جديد يُدرك الشفقة والعدالة والضمير حتى وإنْ كان ذلك عبر تذكُّر طموحه الطويل المؤلم اتجاههم، اتجاه ذلك الشيء على أي حال ذي الضياء الصافي الكوني "

قال " إذن فالرجل دائماً على صواب "

قال خاله " كلا، إنه يحاول أنْ يكون كذلك إذا تركه الذين استغلّوه من أجل سلطتهم وتعظيمهم وشأنه. الشفقة والعدالة والضمير أيضاً – ذلك الإيمان بغير قداسة الإنسان الفرد (الذي نحن في أميركا اختزلناه إلى ديانة وطنية للأحشاء وفيها لا يُدين الإنسان بأي واجب نحو روحه لأنه حُلّ من أي روح يدين نحوها بأي واجب وبدل ذلك هو وريث كامن عند الولادة لشخص منزوع ملكية لا تُسترد لزوجة لسيارة لجهاز راديو لنُزُل للعجائز) بل بقداسة استمراريته كإنسان؛ فكّر كم سيكون سهلاً عليهم أنْ يولوا كروفورد غاوري اهتمامهم: لا وجود لجمهور يتحرك بسرعة في الظلام ينظر باستمرار خلفه بل لرأي عام لا يتجزّأ: حبة فول السوداني تلك تختفي تحت وطء قطيع مُدبَّر كامل مع فيل واحد فقط ليعرف حقاً أنّ حبة الفول كانت هناك في الواقع بما أنّ السبب الرئيس لتشكُّل جمهور هو أنّ الفرد مُضرج باليدين اللتين

قطعتنا في الواقع الخيط قد يختفي إلى الأبد ليُصبح جمعية منيعة واحدة لكل ما هو مجهول: حيث في هذه الحالة لا يبقى للمرء سبب ليُصاب بالأرق ليلاً بعد ذلك أكثر من جلاّد ماجور. إنهم لم يرغبوا في القضاء على كروفورد غاوري. بل أنكروه. ولو أنهم شنقوه بلا محاكمة لسلبوا فقط حياته. إنَّ ما فعلوه حقاً أسوأ من هذا: لقد حرموه بكل طاقتهم من مواطنته كرجل "

لم يكن قد تحرك بعد. ثم قال " أنت مُحام. إنهم لم يكونوا يفرّون من كروفورد غاوري أو من لوكاس بوشان. كانوا يفرّون من أنفسهم. لقد فرّوا إلى منازلهم لكي يُخفوا رؤوسهم تحت أغطية أسرّتهم من إحساسهم بخزيهم "

قال خاله " هذا صحيح بالضبط. ألم أكن أقول هذا طوال الوقت؟ لقد كان عددهم ضخماً جداً. هذه المرة يوجد منهم ما يكفي ليتيح لهم أنْ يفرّوا من الإحساس بالخزي، لكي يجدوا البديل الوحيد الذي كان يمكن أنْ يكون بديل الجماهير: التي (أي الجماهير) بسبب ضآلتها وما كان يُعتقد أنها سرّيتها وتكتّمها وما كانت تعلم أنه افتقارها المُطلق لثقة كل من أفرادها في الآخر، كان يمكن أنْ تختار البديل السريع والبسيط وهو إلغاء الوعي بالخزي بتدمير الشاهد عليه. وهكذا حسب تعبيرك هربت "

قال " ساتركك والسيد هامبتون لتزيلا القيء الذي حتى الكلاب لا تلفظه. ولكن طبعاً السيد هامبتون هو كلب ماجور وأعتقد أنك مثله أيضاً - لأنه لا تنس جيفرسون أيضاً. وهم يغيبون عن الأنظار بسرعة كبيرة أيضاً. وطبعاً بعضهم لم يتمكن من ذلك لأنَّ الوقت كان لا يزال منتصف فترة العصر لذلك لم يكن في استطاعتهم أنْ يُغلقوا المتاجر ويهرعوا إلى منازلهم بعد؛ كان لا يزال هناك فرصة ربما لبيع أحدهم الآخر شيئاً بسيطاً "

قال خاله " أنا قلت ستيفنس وماليسون أيضاً "

قال " ليس ستيفنس ولا هامبتون. لأنه كان على أحد أنْ يُنهي الأمر، شخص ذو معدة قوية تتحمل مسح الأرضية. يحتاج الأمر إلى الشريف لكي يلقي القبض (أو يُحاول أو يأمل في أو كائناً ما كان ما تنوي أنْ تفعل) القاتل وعلى محام أنْ يُدافع عن القتلة بلا مُحاكمة "

قال خاله " لا أحد سيَقتل أحداً من دون مُحاكمة بحيث يحتاج إلى دفاع "

قال " حسن. أعطهم العُذر إذن "

قال خاله " ولا حتى هذا. إنني أدافع عن لوكاس بوشان. أنا أدافع عن سامبو من الشمال والشرق والغرب – عن الأجانب الذين سيُعيدونه عقوداً إلى الوراء ليس فقط إلى الظلم بل إلى الحزن والأسى والعنف أيضاً بفرضهم علينا قوانين قائمة على أساس فكرة أنَّ ظلم الإنسان لأخيه الإنسان يمكن إلغاؤه بين ليلة وضُحاها على أيدي الشرطة. إنَّ سامبو سوف يُعاني من ذلك طبعاً؛ ليس هناك عدد كافٍ من أمثاله حالياً لفعل أي شيء آخر. وسوف يتجمله، يستوعبه وينجو لأنه سامبو ولأنه يتمتع بالمقدرة على ذلك؛ بل إنه سوف يتغلب علينا في هذا المجال لأنه يتمتع بالمقدرة على التحمُّل والنجاة بحياته لكنه سيُعاد عقوداً إلى الوراء وما سينجو بحياته لأجله قد لا يستحق الحصول عليه لأنه بحلول ذلك الوقت سنكون قد أصبحنا منقسمين وربما فقدنا أميركا "

" لكنك لا زلت تجد عذراً لذلك "

قال خاله " كلا. أنا فقط أقول إنَّ الظلم صادرٌ عنا، هو ظلم الجنوب. ويجب أنْ نُكفِّر عن ذلك ونُلغيه بأنفسنا، وحدنا من دون مساعدة ولا حتى (مع الشُكر) نصيحة. إننا نُدين بهذا إلى لوكاس

شاء أم أبى (ولوكاس الذي لدينا لن يشاء على أي حال) ليس بسبب ماضيه بما إنَّ الإنسان أو العرق يستطيع إنْ كان من أصل طيب أنْ ينجو بنفسه من ماضيه من دون حتى الحاجة إلى الفرار منه وليس بسبب لغة الإنسانية المُنمّقة المُغالية في التنميق الراقية غالباً بل من أجل المُبرِّر البسيط والعملي والثابت لمستقبله؛ تلك المقدرة على البقاء والاستيعاب والتحمُّل والبقاء راسخاً "

قال من جديد " حسن. أنت لا زلت محامياً وهم لا زالوا فارّين. لعلهم كانوا يريدون من لوكاس أنْ يقوم بالتنظيف بما أنه من سلالة من ماسحي الأرضيات. لوكاس وهامبتون وأنت بما أنَّ على هامبتون أنْ يفعل شيئاً بين حين وآخر من أجل كسب نقوده بل إنهم انتخبوك من أجل الراتب أيضاً. هل فكّروا في أنْ يُخبروك كيف تفعل ذلك؟ أي طعم تستخدم لكي تستدرج كروفورد غاوري وتقول حسن، يا شباب، أنا أتنحّى. تصرفوا معهم من جديد. أم هل كانوا منهمكين في كونهم – كونهم... "

قال خاله بهدوء " قويمين؟ "

هنا سكت تماماً. ولكن فقط لبرهة. ثم قال " لقد فرّوا " بهدوء وبلهجة ختام نهائية، ولا حتى بامتعاض، فاتحاً قميصه وتاركاً إياه يطير خلفه وفي اللحظة نفسها يُنزِل بنطلونه ويقفُ حافياً من دونه ولا يرتدي غير سرواله الداخلي. " ثم، لا بأس. كنتُ أحلم بذلك كله؛ حلمتُ بهم أيضاً، حلمتُ بهم حتى تلاشوا أيضاً؛ دعهم يبقون في أسرّتهم أو يحلبون أبقارهم قبل حلول الظلام أو يُقطعون الخشب قبل حلول الظلام أو بعده أو على ضوء المصابيح أو بلا مصابيح. لأنهم لم يكونوا الحلم؛ لقد تجاوزتهم لكي أصل إلى الحلم – " وقد أضحى الآن يتكلّم بسرعة كبيرة، أسرع بكثير مما أدرك إلى أنْ يفوت الأوان: " كان شيئاً... شخصاً... شيئاً يدور حول كيف أنَّ هذا ربما أبعد ما يمكن عن

توقّعنا، وفوق فهم مَنْ هم في السادسة عشرة أو يقتربون من الثمانين أو التسعين أو كائناً ما كان عليها أنْ تتحمّل، ومن ثم في الحال بدأتُ أجيب عما أخبرتني به، أتذكر، عن الفتية الإنكليز الذين في مثل سني ويقودون جيوشاً ويقودون طائرات استطلاع في فرنسا علم ١٩١٨؟ وكيف قلت إنه بحلول عام ١٩١٨ بدا أنَّ الضباط الإنكليز كلهم إما ملازمين أولين في السابعة عشرة أو كولونيلات في الثالثة والعشرين بعين واحدة أو ذراع واحدة أو ساق واحدة؟ " - متوقفاً عندئذٍ أو يحاول أنْ يفعل لأنَّ التحذير كان قد وصله أخيراً حاداً جداً ليس كما لو أنه سمع فجاة مُسبقاً الكلمات التي كان ينوي أنْ يقول بل كما لو أنه قد اكتشف فجاة ليس ما كان قد قال تواً بل أين يوجّه، وما الذي كانت الكلمات التي نطقها تواً ستجبره على قوله لكي يوقِفها: لكنَّ الأوان قد فات طبعاً كالضغط فجاة على دواسة المكابح في أثناء هبوط منحدر ثم تكتشف فجاة وأنت مرعوب أنَّ قضيب المكابح قد انكسر: " - ولكن كان هناك شيء آخر أيضاً - كنتُ أحاول... " وأوقفها أخيراً شاعراً بالدم الصعب الحارّ يحترق في طريقه إلى عنقه ومنه إلى وجهه وليس هناك ما ينظر إليه ليس لأنه كان في المقام الأول واقفاً هناك شبه عار بل لأنه لا ملابس ولا تعبير ولا حتى حديث كان يحجب أي شيء عن عيني خاله البرّاقتين.

قال خاله " نعم؟ ". ثم قال خاله " نعم. بعض الأشياء ينبغي دائماً ألا تتحمّلها. بعض الأشياء ينبغي الا تكفّ عن رفض تحمّلها. كالظلم والغضب والخزي والعار. مهما كنتَ يافعاً أو بلغت من العمر. ليس من أجل الشهرة أو المال: كظهور صورتك في الصحف أو رصيد في البنك. فقط ارفِضْ أنْ تتحمّلها. هل انتهيت؟ "

قال " مَنْ، أنا "، وقد بدأ تواً في اجتياز أرض الغرفة، دون حتى أنْ ينتظر الخف. أنا لم أصبح كشافاً مبتدئاً منذ أنْ كنتُ في الثانية عشرة "

قال خاله " طبعاً لا. لكنك تندم على ذلك؛ لا تخجل "

الفصل العاشر

لعل للأكل صِلة بالأمر، و لم يتوقف بينما كان يحاول ليس باهتمام خاص ولا بفضول أنْ يُحصي عدد الأيام التي مرّتْ منذ أنْ جلس ليأكل على طاولة مائدة آخر مرة وتذكّر في الوقت نفسه أنَّ الساعة لم تبلغ الواحدة بعد منذ أنْ تناول إفطاراً دسماً في منزل الشريف في الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم مع أنه أصبح منذ الآن نصف نائم: ومتذكراً كيف قال خاله (وهو جالس على الطرف المقابل من الطاولة يشرب القهوة) إنَّ الرجل لا يأكل طريقه بالضرورة في العالم ولكن بعملية الأكل وربما فقط بها يلج حقاً العالم، يدخله: ليس يجتازه بل يلجه، يحفر داخل تماسكه المتين كما تحفر العثّة في الصوف بعملية مضغ وبلع سُداة الخيط ولُحمته وهكذا يصنع، يُترجم إلى جزء من نفسه وذاكرته كامل تاريخ الإنسان أو ربما حتى يتخلّى بالمضغ، يترك، ناهشاً لكي تقوى، الكتابة المنمنمة الفخور المزهوة التي سمّاها ذاكرته وذاته وأناه العليا ذلك التماسُك المتين المجهول الشاسع للعالم الذي من تحته سوف تبرد الصخرة المؤقتة وتتلاشى إلى غبار ليس حتى بارزة وباقية في الذاكرة بما أنه لم يكن هناك أمسٌ وغدٌ بل لم يكن لهما وجود لذلك لعل فقط رجلاً متقشّفاً في كهف يقتات على جوز البلوط ومياه النبع قادر على التباهي والفخر؛ ربما كان عليك أنْ تعيش في كهف وتقتات على جوز البلوط ومياه النبع في حالة من التأمُّل المنيع المنتشي في تباهيك واستقامتك وافتخارك لكي تبقى على ذلك المستوى العالي الذي لا يُحتمَل من التعبُّد الذي لا يقبل أي حل وسط: الأكل بثباتٍ وهدوء كمية كبيرة أيضاً وحتى بسرعةٍ كان قد أصبح يعلم عندئذٍ أنها

كبيرة جداً بما أنه كان يسمعها على مدى ست عشرة عاماً ووضع فوطته جانباً ونهضَ وصدرَ عن أمه نحيب أخير (وفكّر في كيف أنّ النساء لا يحتملون حقاً أي شيء ما عدا المأساة والفقر والألم الجسدي؛ كيف أنه في صباح ذلك اليوم عندما كان في المكان الذي ما كان ينبغي له أنْ يتواجد فيه وهو في السادسة عشرة ويفعل حتى ما لا ينبغي أنْ يفعل وهو في ضعف سن السادسة عشرة: يعدو في أرجاء المقاطعة مع الشريف ينبش الجثث المغدورة من الحُفر: كانت أقلّ إثارة للضجيج مائة مرة من والده وألف مرة أكثر نفعاً، ولكن الآن عندما كان كل ما ينوي أنْ يفعل هو أنْ يمشي حتى البلدة مع خاله ويجلس مدة ساعة أو نحوها في غرفة المكتب نفسها التي كان قد أمضى فيها ربما الربع المنصرم من حياته، كانت هي قد ألغتْ تماماً أمر لوكاس بوشان وكروفورد غاوري معاً من اهتمامها وعادتْ دون كلل إلى اليوم الذي قبل خمسة عشر عاماً كانت قد انطلقت فيه للمرة الأولى لتلاحقه حتى لم يتمكن من تثبيت أزرار بنطلونه):

" ولكن لِمَ لا تستطيع الآنسة هابرشام أنْ تأتي إلى هنا وتنتظر؟ "

قال خاله " تستطيع. أنا واثق من أنها تستطيع أنْ تعثر على المنزل من جديد "

قالت " أنت تفهم ما أعني. لمَ لا تُجبرها؟ إنّ الجلوس في غرفة مكتب محامي حتى الساعة الثانية عَشرة ليلاً أمرٌ لا يليق بسيدة محترمة "

قال خاله " ولا نبش جثّة جيك مونتغمري ليلة أمس أيضاً. ولكن ربما هذه المرة سوف نمنع لوكاس بوشان من وضع هذا العبء المستمر على كياستها. هيا، يا تشيك: " وأخيراً خرجا من المنزل، لم يخرجا من المنزل ويلجاه لأنه كان قد جلبه معه من المنزل، بما أنه عند نقطة من المسافة بين غرفته والباب الأمامي لم يكتسبه ولا حتى ببساطة ولجه

ولا حتى في الواقع استعاده بل كفّر عن انحرافه عنه، أصبح يستحق من جديد أنْ يُستقبل فيه بما أنَّ الشيء كان يخصّه أو بالأحرى هو كان يخصّ الشيء، هو وخاله يمشيان من جديد في الشارع نفسه بالضبط تقريباً كما سارا فيه قبل أقلّ من اثنتين وعشرين ساعة وكان خالياً حينئذٍ من الحركة ويمتد حتماً خالياً من الحياة من مصباح إلى مصباح كشارع ميت يخترق مدينة منبوذة لكنها ليست حقاً منبوذة ليست حقاً تنسحب بل فقط تفسح الطريق لمن يستطيعون أنْ يقدموا أداءً أفضل، فقط تفسح الطريق لمن يقدمون الأداء الصحيح، ليس لتتدخل أو لتعيق التقدّم أو حتى تقدّم اقتراحاً أو حتى لتقديم (مع الشكر) نصيحة لَمنْ يؤدون أداءً صحيحاً وبطريقتهم الخاصة المألوفة بما أنه كان حزنهم الخاص وخزيهم الخاص وتكفيرهم الخاص، ضحك من جديد الآن ولكن كل شيء كان على ما يُرام، وهو يفكر: لأن لديهم دائماً أنا وإلك ساندر والآنسة هابرشام، ناهيك عن العم غافن والشريف بذيء اللسان الذي يضع الشارة: وفجأة أدرك أنَّ هذا أيضاً كان جزءاً من الأمر - تلك الرغبة الشرسة في أنْ يكونوا مثاليين لأنهم كانوا يخصّونه وهو يخصّهم، عدم التحمُّل المُثير للغضب ذاك لأي شيء أقل من الكمال المُطلق ولو بمقدار ذرة - تلك القفزة والوثبة المُثيرة للحنق بل والغريزية للدفاع عنهم ضد أي شخص في أي مكان فقد يشجبهم بقوة بنفسه بلا رحمة بما أنهم يخصّونه و لم يعُد يريد أنْ يتحمل وقوفه معهم بثبات وقوة: خزيٌ واحد إنْ كان لابد منه، تكفيرٌ واحد إنْ كان لابد حتماً منه ولكن فوق ذلك كله واحد ثابت دائم وقوي: شعب واحد قلب واحد ارض واحدة: وهكذا قال فجأة،

" اسمع - " وتوقف وكالمعتاد لم تبقَ ثمة حاجة:

قال خاله " نعم؟."، ثم عندما لم يُضِف شيئاً: " آه، فهمت. الأمر ليس في أنهم كانوا على صواب بل في أنك أنت كنتَ على خطأ "

قال " بل كنتُ أسوأ. كنتُ قوياً "

قال خاله " لا بأس في أنْ تكون قوياً. لعلك كنتَ على صواب وكانوا على خطأ. فقط لا تتوقف "

قال " لا أتوقف عمَّ؟ "

قال خاله " حتى التباهي والافتخار لاضير فيهما. ولكن لا تتوقف"

قال من جديد " لا أكفّ عمَّ؟ " لكنه بات يعرف الجواب الآن؛ قال: " ألم يحُن الوقت لكي تكفّ عن عمل الكشّافة المبتدئين أيضاً؟ "

قال خاله " هذا ليس عمل مبتدئين؛ هذه هي الدرجة الثالثة. ماذا تسميها؟ – "

قال " الكشّاف النسر "

قال خاله " الكشاف النسر. المبتدئ هو، لا تقبل. الكشّاف النسر، لا تتوقف. أتفهم؟ كلا، هذا خطأ. لا تزعج نفسك بالفهم. بل لا تزعج نفسك بألا تنساه. فقط لا تتوقف "

قال " كلا، لسنا في حاجة إلى القلق بشأن التوقف الآن. يبدو لي أنَّ ما ينبغي أنْ تقلق بشأنه الآن هو إلى أين نحن ذاهبان وكيف "

قال خاله " بل تحتاج إلى القلق ، أنت نفسك أخبرتني قبل نحو خمس عشرة دقيقة، ألا تتذكّر؟ حول ما سيستخدم السيد هامبتون ولوكاس كطُعم من أجل إحضار كروفورد غاوري إلى حيث يمكن للسيد هامبتون أنْ يُلقي القبض عليه؟ سوف يستخدمان لوكاس – "

وسوف يتذكّر: هو وخاله واقفان بجوار سيارة الشريف في الزقاق بالقرب من السجن يراقبان لوكاس والشريف يخرجان من باب السجن الجانبي ويجتازان الفناء المُظلم ويقتربان منهما. في الحقيقة كان

الظلام حالكاً بما أنّ نور الشارع عند المنعطف لم يكن يصل إليهما ولا أي صوت أيضاً؛ كانت بُعيد الساعة العاشرة وفي ليلة يوم اثنين أيضاً لكنّ قبّة السماء المُظلمة تتقوّس كأنما في فراغ كباقة زهر عروس تحت ناقوسها الزجاجي البلدة، الساحة التي كانت أكثر من ميّتة: منبوذة: لأنه ذهب لينظر إليها، دون أنْ يتوقف تاركاً خاله واقفاً عند منعطف الزقاق الذي قال وراءه:

" إلى أين أنت ذاهب؟ " لكنه حتى لم يزعج نفسه بالرد، ومشى مسافة المبنى الخالي الصامت الأخير، متعمداً أنْ يجعل وقع قدميه قوياً وبلا تحفُّظ داخل الصمت الأجوف، بلا استعجال منعزلاً ولكن ليس بسبب الإحساس باليأس، بل مع حس إحساس ليس استحوازياً بل امتلاكيّ، بالنيابة عن الملك، أيضاً مع إحساس بالمهانة، وهو ليس فحلاً لكنه على الأقلّ يمثل وعاء الفحولة كالممثل الذي ينظر من خلال أجنحة خشبة المسرح أو ربما من الشرفات الخالية إلى الخشبة المنتظرة الفارغة ولكنها مزخرفة ولا زالت خالية، ومع ذلك سوف يمشي بعد قليل عليها ويتخذ وِقفة النهاية المنتظرة في الفصل الأخير، هو نفسه في عدم نفسه وربما ليس حتى كبطل للمسرحية ولكن عليه أنْ يُنهيها، يُكملها ويُنحيها جانباً سليمة لم يمسسها أحد، كاملة: وهكذا تقدّمَ داخل الظلام والساحة الخالية متوقفاً حالما استطاع أنْ يتبيَّن الأشياء دون جهد كامل ذلك المستطيل المُظلم الخالي من الحياة الذي لا يحتوي في أي جزء منه إلا على ضوء واحد وهو ذاك المنبعث من المقهى التي تبقى فاتحة أبوابها طوال الليل من أجل الشاحنات التي تقطع مسافات طويلة وغرضها الحقيقي (وغرض المقهى) كما يقول البعض، السبب الحقيقي في منح البلدة الترخيص لها كان إبقاء نظير ويلي إنغرام الليلي يقظاً والذي خصّصت له البلدة غرفة مكتب صغيرة أشبه بالجحر في زقاق مُزوّدة بمدفأة وبجهاز هاتف و لم يكن يمكث فيها بل يلجأ إلى المقهى حيث يجد مَنْ يتحدث معه ويستطيع هناك طبعاً أنْ يتصل

بالهاتف ولكن بعض السيدات العجائز خاصة لم يكنّ يرغبن في استدعاء الشرطة من مقهى صغير يفتح أبوابه طوال الليل لذلك كان جهاز هاتف المكتب موصولاً بجرس إنذار السرقات الكبرى مُثبت على الجدار الخارجي وعالي النبرة بما يكفي ليسمعه نادل البار أو سائق الشاحنة في المقهى ويُخبره بأنه يرنّ، ونافذتا الطابق الثاني المُضاءتان (ورأى أنَّ الآنسة هابرشام قد نجحتْ في إقناع خاله بإعطائها مفتاح غرفة المكتب ومن ثم رأى أنَّ هذا خطأ، إنَّ خاله هو الذي أقنعها بأخذ المفتاح بما أنها ستكون قد جلست في الشاحنة المتوقفة إلى أنْ يصلا — ثم أضاف إذا كانت قد انتظرتْ لأنَّ ذلك خطأ حتماً وأنَّ ما حدث فعلاً هو أنَّ خاله أقفل عليها باب المكتب ليمنح الشريف ولوكاس الوقت ليُغادرا البلدة) ولكن بما أنَّ من الممكن أنْ تحترق الأضواء في غرفة مكتب المحامي في أي وقت لأنَّ المحامي أو الحاجب نسي أنْ يُطفئها لدى مغادرته والمقهى كمعمل الطاقة كان مؤسسة عامة لا يمكن التعويل عليهما وحتى المقهى كانت مُضاءة (لم يتمكن من رؤية داخلها من هنا ولكن كان يمكن أنْ يسمع وفكّر كيف أنَّ إغلاق أبواب المقهى الرخيص مدة اثنتي عشرة ساعة ربما كان أول فعل رسمي قام به شريف نوبة الليل إلى جانب شرب البنش عند كل ساعة من الزمن الذي أشارت إليه الساعة المعلّقة على الجدار على باب المصرف الخلفي منذ أنْ ساد الخوف من كلب كلِبٍ في شهر آب الأخير) وتذكّر ليالي يوم الاثنين العادية الأخرى حين لا تصدر أية صيحات عالية تنم عن فورة الدم والانتقام وعن التضامن العرقي والعائلي من البيت أربعة (أو بيت واحد أو بين اثنين أو ثلاثة أو خمسة بهذا الخصوص وأيضاً من تلك الصادرة عن تخوم الأروقة الجيورجية المعمّدة المدينية نفسها) لكي تقعقع وتتلاطم بين حجارة الآجر القديمة والأشجار العتيقة وتيجان الأعمدة الدوريّة وتتركها ليلة واحدة مضروبة: الساعة العاشرة من ليلة يوم اثنين وعلى الرغم من أنَّ العرض الأول للفيلم في دار العرض

سوف يبدأ بعد أربعين دقيقة أو خمسين من الآن فإنَّ قليلاً من الزبائن الدائمين ممَّن وصلوا متأخِّرين سيكونون لا يزالون يتوجهون نحو المنزل وكل الشبان جالسين منذ ذلك الوقت يشربون الكوكا كولا ويلعبون النكلة في صندوق الموسيقى في الصيدلية، يتسكعون دون حساب للوقت وبلا استعجال.بما أنهم ليسوا ذاهبين إلى جهة مُحدَّدة.بما أنّ ليلة أول نوّار نفسها هي وجهتهم وحملوا ذلك معهم وهم يمشون فيه وحتى (يوم مزاد الماشية) بضع سيارات وشاحنات متأخرة كان شاغلوها قد مكثوا في الداخل لمشاهدة العرض السينمائي أيضاً أو ليقوموا بزيارة أقرباءهم أو أصدقاءهم ويتناولوا العشاء معهم والآن يتفرقون أخيراً نحو الليل نحو النوم نحو الغد في أرجاء أرض مُظلمة محيطها ميل، لا يتذكر أبعد من الليلة السابقة عندما اعتقد أنها خالية أيضاً إلى أنْ أُتيح له الوقت لِيُصغي إليها برهة وأدرك أنها ليست خالية على الإطلاق: إنها ليلة يوم أحد ولكن بأكثر من هدوء ليلة يوم أحد، في الحقيقة هدوء من النوع الذي لا صِلة له بأية ليلة ومن بين الليالي كلها ليلة يوم الأحد هي الأقل صِلة، وكانت ليلة يوم أحد فقط لأنهم هكذا سمّوا الروزنامة عندما جلب الشريف لوكاس إلى السجن: فراغ يمكن تسميته بالفراغ شريطة أنْ تُطلِق صِفة خالية وفارغة على المنطقة التي يرين عليها الصمت وتخلو من الحياة الممتدة أمام جيش متأهِّب للحرب وتطلق صِفة مسالمة على ردهة تؤدي إلى مستودع بارود أو هادئة على قناة تصريف تقع تحت سد - حس ليس بانتظار بل بتزايد، ليس الناس - نساء وعجائز وأطفال - بل رجال ليسوا كئيبين بقدر ما هم جدِّيون وليسوا متوترين بقدر ما هم هادؤون، يجلسون بهدوء دون حتى أنْ يتكلموا كثيراً في الغرف الخلفية وليس فقط حجرات الاستحمام والمراحيض خلف دكان الحلاقة والسقيفة خلف قاعة ألعاب البلياردو المُكدّسة بصناديق المشروبات الغازية وتبعثر فيها زجاجات الويسكي الفارغة بل وأماكن التخزين في المخازن والمرائب

وخلف الستائر المُسدلة في غرف المكاتب نفسها التي يُسلِّم أصحابها أو حتى مالكو المخازن والمرائب بأنها ليست تجارة بل مهنة، ليس انتظاراً لحدث للحظة في الزمن تأتي إليهم بل للحظة في الزمن يختلقون فيها بانسجام لا إرادي تقريباً الحدث، الذي يُشرِف بل ويخدم لحظة تأخّرت ليس حتى ست أو اثنتي عشرة أو خمس عشرة ساعة لكنها كانت ببساطة استمراراً للّحظة التي أصابت فيها الرصاصة فينسون غاوري و لم يتوفر وقت بينهما وهكذا كان لوكاس للأسباب كلها ميتاً أصلاً بما أنه قد مات عندئذٍ في اللحظة نفسها التي خسر فيها حياته وقامت حياتهم فقط بالإشراف على إحراقه، والآن أصبحت هذه الليلة للذكرى لأنَّ الأمر غداً سيكون قد انتهى، غداً طبعاً ستستيقظ الساحة وتضج بالحركة، ويأتي يوم آخر وتتخلص من آثار الهرج، ويوم آخر وتتخلّص حتى من الخزي بحيث أنَّ في يوم السبت سوف تُنكر المقاطعة برمّتها بإجماع واحد تام وكامل أنّهم قد ارتكبوا أي خطأ أصلاً: بحيث أنه لم يحتج إلى أنْ يتذكّر وسط الصمت المُطلَق التام الكامل أنَّ البلدة لم تكن ميتة ولا حتى منبوذة بل فقط انسحبت فاسحة المجال للقيام بما ينبغي القيام به من عمل مألوف بطريقته المألوفة من دون مساعدة أو تدخّل أو حتى (شكراً لك) نصيحة: ثلاثة هواة، عانس بيضاء عجوز وفتى أبيض وآخر أسود من أجل الكشف عن أمر لوكاس القاتل المزعوم، ولوكاس نفسه وشريف المقاطعة من أجل إلقاء القبض عليه وهكذل للمرة الأخيرة: متذكراً: خاله وهو لا يزال واقفاً حافي القدمين على الممشى ويُمسك بيديه بطرفيّ القميص محلول الأزرار قبل ثلاثين دقيقة وعندما كانا يرتقيان آخر منحدر تل نحو الكنيسة قبل إحدى عشرة ساعة وفي ما بدا أنها ألف مرة أخرى منذ أنْ أصبح كبيراً بما يكفي ليُصغي ويفهم ليتذكّر: – للدفاع ليس عن لوكاس ولا حتى عن اتحاد الولايات لمتحدة بل عن الولايات المتحدة من وجهة نظر أهالي الشمال الشرقي والغرب الذين يُحاولون بأقصى

الدوافع والنوايا (فلنقُل هذا) أنْ يُقسّموها في وقتٍ يتجرّأ الناس على الإقدام على مجازفة التقسيم باستخدام القوانين الفيدرالية والشرطة الفيدرالية لمحو وضع لوكاس المُشين، ومع ذلك قد لا يكون هناك من بين رقم عشوائي هو ألف من سكان الجنوب واحد يحزن حقاً أو حتى يهتم حقاً بتلك الحالة ولا هناك دائماً مَنْ يُقدِم بنفسه على شنق لوكاس دون محاكمة مهما كانت المناسبة ومع ذلك لن يتردّد من جديد ولا حتى واحد من أولئك النسعمائة زتسعة وتسعين بالإضافة إلى ذلك الواحد الأول الذين يبلغ عددهم ألفاً كاملاً في أنْ يصدّ بقوة (وسوف يبقى ذلك المُنفّذ لذلك الإعدام دون محاكمة) الغريب الذي قدِمَ إلى هنا ليتدخل عنوة أو يُعاقبه، وتقول (ساخراً) لابد أنك تعرف سامبو جيداً بحيث تعزو لنفسك افتراضاً هادئاً بأنه سلبيّ وأُجيبُ بانني لا أعرفه البتّة وفي اعتقادي لا يعرفه أي شخص أبيض لكنني أعرف الشخص الأبيض الجنوبيّ وليس فقط التسعمائة وتسعة وتسعين بل ذلك الواحد الآخر أيضاً لأنه ينتمي إلينا أيضاً وزيادة على هذا، ذلك الواحد الآخر لا يوجد فقط في الجنوب بل ستراه متحالفاً ليس فقط مع الشمال والشرق والغرب وسامبو ضد حفنة من البيض في الجنوب بل في تحالف مكتوب مع مُنظّرين ومتعصّبين ومُنتقمين خاصّين وشخصيين بالإضافة إلى عدد من الآخرين تحت افتراض عدد كاف من المساحة المادية لتطبيق مبدأ ضد جنوبٍ متوافق وربما حتى متفوّق في العدد اجتذبَ مُجنَّدين جُدُداً رُغماً عنه من مناطقك النائية، ليس فقط أرضك النائية بل من المدن الرائعة لفخرك الثقافي أمثال شيكاغو وديترويت ولوس انجليس وأي مكان آخر يعيش فيه أناس جهلة يخافون لون أية بشرة أو شكل أنف غير بشرتهم وأشكالهم وسوف ينتهزون تلك الفرصة ليصبّوا على سامبو كل ما ينطوون عليه من رعبهم المتوارَث واحتقارهم وخوفهم من الهنود والصينيين والمكسيكيين والكاريبيين واليهود، سوف يفرض علينا ذلك الواحد من أول الفِ عشوائيّ

والتسعمائة وتسعة وتسعين من ثاني ألفٍ ممّن يحزنون على حالة لوكاس المُخزية وسوف يُطورونها وقد فعلوا ويفعلون وسيفعلون ذلك إلى أنْ (ليس غداً ربما) يُزال ذلك الوضع ليس لكي يُنسى ربما بل على الأقلّ يبقى في الذاكرة مع إحساسٍ أقل بالألم والمرارة.بما أننا منحناه العدالة و لم تُنتزَع منا وفُرِضا عليه معاً بالقوة، وانضمّ طوعاً في تحالف مع الذين لا تربطنا بهم أية صِلة قُربى في مواجهة مبدأ حزنّا نحن أنفسنا عليه واشمئززنا منه، إننا في موقف الألمانيّ بعد عام ١٩٣٣ الذي لم يكن أمامه من بديل غير أنْ يكون إمّا نازياً أو يهودياً أو الروسي الحالي (والأوروبي أيضاً في هذه المسألة) الذي لم يكن حتى لديه مثل هذا الخيار بل يجب أنْ يكون إما شيوعياً أو ميتاً، نحن فقط علينا أنْ نختار ووحدنا دون مساعدة أو تدخّل أو حتى (شكراً) نصيحة.بما أننا وحدنا نستطيع إذا كان تحقيق المساواة بالنسبة إلى لوكاس هو أنْ يكون أي شيء أكثر سجينها داخل متراس حصين للورثة المباشرين لنصر الأعوام ١٨٦١–٦٥ الذي قدّم حتى أكثر مما قدّمه جون براون ليُعيق حرية لوكاس التي لا زالت تبدو مُقيّدة وستبقى كذلك لمائة عام قام بعد أنْ استسلمَ لي Lee وعندما تقول إنّه لا ينبغي على لوكاس أنْ ينتظر مجيء ذلك الغد لأنّ ذلك الغد لن يأتي أبداً لأنكَ ليس فقط لا تستطيع بل لا تريد إذن لا يسعنا إلا أنْ نُكرّر القول إذن لن تفعل ونقول لك تعال إلى هنا وانظر إلينا قبل أنْ تقرّر وتجيب كلا شكراً الرائحة كريهة بما يكفي من هنا ونقول طبعاً سوف تنظر على الأقل إلى الكلب الذي خطّطتَ لتروّضه، شعب انقسم في وقتٍ لا زال فيه التاريخ يُبيّن لنا أنَّ غرفة الانتظار المؤدية إلى الهلاك هي الانقسام وتقول على الأقل سوف نهلك باسم الإنسانية ونجيب عندما يُبتلى كل شيء ما عدا صيغة الضمير المرفوع تلك وصيغة ذلك الفعل إذن ما هو ثمن إنسانية لوكاس واستدار وركض مسافة المبنى الخالي الذي يرين عليه الصمت عائداً إلى المنعطف حيث كان خاله ذهب إليها دون أنْ ينتظر ومن ثم سار في

الزقاق أيضاً إلى حيث كانت سيارةُ الشريف متوقفة، والاثنان يرقبان الشريف ولوكاس يجتازان الفناء المُظلم نحوهما الشريف في المقدمة ولوكاس خلفه بمقدار خمسة أقدام يمشي ليس بسرعة بل فقط بتأنٍ، ليس باختلاس ولا خِفية بل بالضبط كرجلَين منهمكين ببساطة ليس بالضبط متأخرين ولكن ليس لديهما وقت يُبدّدانه، وخرجا من البوابة وتقدّما من السيارة وفتح الشريف الباب الخلفي وقال،

" اركب " وولج لوكاس وأغلق الشريف الباب وفتح الباب الأمامي وزحف ينخر إلى الداخل، انخفضتْ السيارة بأكملها على نوابضها وحوافها عندما استرخى جالساً على المقعد وأدار المفتاح وأدار المُحرّك، وخاله واقف عن النافذة ممسكاً بإطارها بكلتيّ يديه وكأنه رأى فجاة أو أمِلَ بعد إعادة التفكير في أنْ يُمسك السيارة ويمنعها من الحركة قبل أنْ تبدأ بالتحرُّك، قائلاً ما كان هو نفسه يتردد في التفكير فيه على مدى ثلاثين أو أربعين دقيقة:

" خُذ معك أحداً "

قال الشريف " هذا ما أفعل. ثم لقد ظننتُ أننا بتتنا في هذا الأمر ثلاث مرات بعد ظهيرة هذا اليوم "

قال خاله " مهما عددتَ لوكاس يبقى شخصاً واحداً "

قال لوكاس " أعطني مسدسي ولا أريد من أحد أنْ يقوم بأية عملية إحصاء. أنا سأنفّذ هذا: " وفكّر في عدد المرات التي ربما طلب فيها الشريف من لوكاس حتى الآن أنْ يصمت ، ولعل هذا هو السبب في أنَّ الشريف لم يطلب منه ذلك الآن: ما عدا أنّه (فجأة) فعل ن مُستديراً ببطء وبحركة ثقيلة وناخراً وهو على كرسيه لكي ينظر نحو الخلف إلى لوكاس، قائلاً بالصوت الكئيب ثقيل التنفّس:

" بعد كل المتاعب التي عانيتها في يوم السبت بوقوفك وذلك

المسدس في جيبك ضمن فضاء العشرة أقدام نفسها التي وقف فيها غاوري، تريد أنْ تحمله بيدك وتتجول بحثاً عن آخر. الآن أريد منك أنْ تصمت وتلزم الصمت. وعندما نبدأ بالاقتراب من جسر وايتليف أريد منك أنْ تتمدد على الأرض ملتصقاً بالمقعد خلفي وتبقى ساكناً. أتسمعني؟ "

قال لوكاس " أسمعك. ولكن لو أنني أحصل على مسدسي - " لكنَّ الشريف كان قد استدار نحو خاله:

" مهما بلغ عدد المرات التي تُحصي فيها كروفورد غاوري أيضاً سوف يبقى واحداً: " ثم تابع بالصوت المعتدل النبرة المتنهّد المتردد الذي كان مع ذلك قد بدأ يستجيب لأفكار خاله حتى قبل أنْ يتمكن خاله من الإفصاح عنها: " مَنْ سيُصيب؟ " وهو أيضاً فكرَ في ذلك متذكّراً ضجيج انسحاق المطاط الطويل على الإسمنت للسيارات والشاحنات المسعورة المبعثرة بفوضى مندفعة في إنكار مذعور لا رادَّ له في الاتجاهات كلها نحو أقصى مكان منعزل لا تحتويه الخارطة من المقاطعة ما عدا تلك الجزيرة الصغيرة في بيت أربعة المعروف باسم كنيسة كاليدونيا، داخل الحرم: المنزل القديم المُستخدم المألوف حيث يمكن للنساء للعوانس العجائز والأطفال أنْ يقوموا بحلب الماشية وتقطيع الخشب من أجل إعداد إفطار اليوم التالي بينما يحمل الصغار المصابيح وبعد أنْ يُطعِم الرجال والأولاد الأكبر سناً البِغال من أجل الحراثة في الغد يجلسون في السرادق الأمامي ينتظرون موعد العشاء في الغسق: طيور السُبد: الليل: النوم: ويمكنه حتى أنْ يرى هذا (شريطة أنَّ حتى افتتان رجل قاتل بمكنه أنْ يجلب كروفورد غاوري من جديد داخل نطاق وشعاع منال تلك الذراع المقطوعة التي - بما أنَّ كروفورد هو من آل غاوري أيضاً - لم يُصدِّق مُتفقاً هنا مع الشريف - وبات يعلم الآن السبب في مغادرة لوكاس لمتجر فريجر حياً بعد ظهيرة يوم

السبت، ناهيك عن خروجه من سيارة الشريف عند السجن: أنّ آل غاوري أنفسهم كانوا يعلمون أنه ليس الفاعل لذلك كانوا فقط يقضون الوقت في انتظار شخص آخر، ربما بلدة جيفرسون لتجرّه إلى الشارع إلى أنْ تذكّر - ومضاً، شيئاً يشبه الخزي - القميص الأزرق جاثماً واليد المتبسة الخرقاء تحاول أنْ تزيل الرمال المبللة عن الوجه الميت وعلِمَ أنه مهما بدأ الرجل العجوز الحانق يفكر في الغد فلن يكون في يده أي دليل ضد لوكاس لأنه لم يكن هناك مكان لأي شيء غير ابنه) - ليل، غرفة الطعام ربما ومن جديد سبعة من آل غاوري في المنزل ذي العشرين عاماً الخالي من النساء لأنّ فوريست جاء من فيكسبرغ لحضور الجنازة غداً ولعله كان لا يزال هناك في صباح هذا اليوم عندما أرسل الشريف رسالة إلى العجوز غاوري طالباً منه أنْ يُقابله في الكنيسة، ثمة مصباح مشتعل في مركز الطاولة بين أوعية السكّر المكسوّة بطبقة مُسكّرة وبرطمانات دبس السكّر صلصة البندورة والملح والفلفل في الأوعية نفسها التي تحمل رقعاً جاءت من رف المتجر والرجل العجوز جالس على رأسها وإحدى ذراعيه موضوعة على الطاولة أمامه والمسدس الكبير تحت يده مُعلناً الحكم بالكوت والإعدام أيضاً على ابن غاوري الذي ألغى انتسابه الخاص إلى آل غاوري بسفك دم أخيه، ثم الطريق المُظلمة والشاحنة (ليست مُصادَرَة هذه المرة لأنَّ فينسون كان يمتلك واحدة جديدة وكبيرة وقوية وذات غطاء متحرك لنقل الأخشاب أو الماشية) وربما التوأم نفسه يقودانها والجثة تضرب بتروس الدوران كزند الخشب نفسه المربوط بسلاسل ثقيلة، منطلقة بسرعة خارج كاليدونيا وخارج بيت أربعة نحو البلدة المظلمة الصامتة المنتظرة ولا زالت سريعة خلال الشارع الهادئ عبر الساحة إلى منزل الشريف وتخبّطت الجثة وارتمت على السرادق الأمامي لمنزل الشريف ولعل الشاحنة لا زالت تنتظر بينما توأم غاوري الآخر يرن جرس الباب. قال الشريف "كفاك قلقاً على كروفورد. ليس لديه أي شيء ضدي. لقد صوّتَ لصالحي.

ومشكلته في الوقت الحالي هو اضطراره إلى قتل المزيد من الأشخاص أمثال جيك مونتغمري في حين أنَّ كل ما أراد هو منع فينسون من اكتشاف أنه كان يسرق الخشب منه ومن العم سدلي ووركيت. حتى لو أنه قفز على دواسة السيارة قبل أنْ يُتاح لي الوقت لمتابعة ما يجري لكان لا يزال عليه أنْ يهدر دقيقة أو اثنتين في محاولة فتح الباب لكي يتمكّن من رؤية مكان لوكاس بالضبط – شريطة أنْ ينفِّذ لوكاس بكل جدٍّ واجتهاد في ذلك الوقت بالضبط بما أمرته أنْ يفعل، وهو ما آمل أنْ يفعل لمصلحته"

قال لوكاس " سوف أفعل. ولكن لو أنني حصلت على – "

قال خاله بصوته الأجشّ " نعم، شريطة أنْ يكون موجوداً "

تنهد الشريف " أنت أرسلت الرسالة "

قال خاله " قدر استطاعتي. كيفما استطعت. رسالة لتحديد لقاء بين قاتل ورجل شرطة، بحيث كائناً مَن يسلمها في نهاية الأمر للقاتل لن يعرف حتى ما الذي تضمره للقاتل، بحيث أنَّ القاتل ليس فقط لن يُصدّق أنه لم يكن من المفرض أنْ يستلمها بل أنَّ ذلك هذا صحيح "

قال الشريف " حسن، إما أنه سيستلمها أو لن يحصل عليها وهو إما سيُصدّقها أو لن يُصدّقها وهو إما أنه ينتظرنا في قاع وايتليف أو أنه ليس كذلك وإذا لم يفعل سوف نذهب أنا ولوكاس إلى الطريق العامة ونعود إلى البلدة " وانطلق بأقصى سرعة المحرك ثم أبطأ من جديد؛ والآن أضاء الأنوار. " ولكن قد يكون هناك. أنا أيضاً أرسلتُ رسالة "

قال خاله " حسن. و لِمَ فعلت، سيد بونز؟ "

" جعلتُ العمدة يأذن لويلي إنغرام لكي يتمكن من الخروج والاتفاق مع فينسون من جديد هذه الليلة وقبل أنْ يُغادر ويلي أخبرته

سراً أنني سوف أنقل لوكاس إلى هوليمانت هذه الليلة عبر طريق وايتليف القديمة المُختصَرة لكي يتمكن لوكاس من الإدلاء بشهادته غداً في أثناء استجواب جيك مونتغمري وذكّرتُ ويلي بأنه لم ينتهوا بعد من ردم زابتليف وعلى السيارات أنْ تعبره ببطء وأخبرته أنْ يحرص على ألا يُخبر أحداً "

قال خاله، قبل أنْ يترك الباب، " أوه، مهما كان مَنْ ادّعى أنَّ جيك مونتغمري حيّ أصبح الآن ينتمي إلى مقاطعة يوكناباتوفا - " ثم قال برشاقة، بعد أنْ ترك الباب، " ولكن، إننا نسعى وراء مجرد قاتل، وليس محام - حسن، لِمَ لا تبدأ؟ "

قال الشريف " نعم، اذهب أنت إلى مكتبك وانتظر وصول الآنسة يونيس. قد يكون ويلي قد تجاوزها في الشارع أيضاً وإذا فعل ذلك فلا زال في وسعها أنْ تسبقنا إلى جسر وايتليف بتلك الشاحنة الصغيرة "

ثم انتقلا إلى الساحة هذه المرة ليجتازا عند المنعطف إلى حيث توقفت سيارة الشحن الصغيرة فارغة ووجهها نحو الرصيف الفارغ مثلها وارتقيا الدَرَجِ الطويل بأنينه ودمدمته المكتومة إلى باب المكتب المفتوح وولجاه وفكرَ بلا دهشة كيف أنها ربما المرأة الوحيدة التي عرفها أخرجت المفتاح المُستعار من القفل حالما فتحت الباب الغريب ليس لتترك المفتاح على أول منبسط مستو مرّت به بل لتعيده إلى حقيبة يدها الصغيرة أو جيبها أو كائناً ما كان ما وضعته فيه عندما أعير لها وما كانت لتجلس على الكرسي الكائن خلف الطاولة ولم تفعل، وجلست بدل ذلك باستقامة كالسهم وهي تعتمر القبعة ولكن بثوب آخر يشبه تماماً ذاك الذي ارتدته في الليلة السابقة وحقيبة اليد نفسها تضعها على حجرها وتقبض على القفاز ذي الثمانية عشر دولاراً فوقها وفردتا الحذاء المُسطّح الكعب ذو الثلاثين دولاراً مزروعان جنباً إلى جنب على الأرض أمام أشد الكراسي قسوة واستقامة في الغرفة،

الكائن بجوار الباب الذي لا يجلس عليه أحد في الواقع مهما كانت غرفة المكتب مزدحمة و لم تنتقل إلى الكرسي المريح خلف الطاولة إلا بعد حوالي دقيقتين أمضاهما خاله في الإصرار على ذلك وأخيراً شرح قائلاً إنْ الأمر قد يستغرق ساعة أو اثنتين لأنها كانت تضع ساعة اليد على شكل دبوس مُرضّع مفتوحة على صدرها عندما دخلا وبدا أنها كانت تفكر في أنَّ على الشريف في ذلك الوقت أنْ يكون ليس فقط قد عاد مع كروفورد غاوري بل ربما أنْ يكون في طريق عودته معه إلى الإصلاحية: ثم جلس هو على الكرسي المعتاد بجوار مُبرِّد الماء وأخيراً حتى خاله قدح عود الثقاب على الغليون الحجري وهو لا زال يتكلَّم ليس فقط من خلال الدخان بل ومن داخله وبه:

" - وما حدث بسبب بعضه نعرفه ناهيك عما أخبرنا به لوكاس أخيراً بقيامه بالمراقبة بنفسه بعين الصقر أو كجاسوس عالميّ لكي لا يُخبرنا أي شيء يُفسّر موقفه ناهيك عن أنْ يُنقذه، لقد كان فينسون وكروفورد شريكين يشتريان الخشب من الرجل العجوز سدلي ووركيت الذي كان أحد أقرباء السيدة غاوري بدرجة ما البعيدين ، أي أنهما اتّفقا مع العجوز سدلي على سعر القدم اللوحي شريطة أنْ يُدفَع له عند بيع الخشب الذي لن يتم إلا بعد قطع آخر شجرة وقد سلّمها كروفورد وفينسون وحصلا على المال ومن ثم دفعا للعجوز سدلي نصيبه، واستأجرا مِصقلة وفريق عمل لتقطيعها ونشرها وتخزينها هناك على مسافة ميل من منزل العجوز سدلي و لم تُنقَل قطعة واحدة إلا بعد تقطيعها كلها. ولكن - من دون هذا الجزء لا نعلم حقاً بعد إلى أنْ يضع هامبتون يده على كروفورد ما عدا أنه يجب أنْ يتم بهذه الطريقة أو ما الذي كنتم جميعاً تفعلون بنبش جثة جيك مونتغمري من قبر فينسون؟ - وكلما فكّرتُ في هذا الجزء مما حدث أتذكر كيف رجعتم أنتم الثلاثة عبر منحدر ذلك التل إلى البقعة ذاتها التي سمعاه اثنان منكم عندها بل أنَّ أحدكم رآه راكباً ومرّ بالرجل

الذي كان يحمل أصلاً جثة رجل مقتول أمامه على البغل ووجد أنَّ تغيراً مُفاجئاً قد طرأ على الخطة بحيث أنَّه عندما وصلنا أنا وهامبتون إلى هناك متأخرين حوالي ست ساعات وجدنا القبر خالياً تماماً - "

قالت الآنسة هابرشام " لكنه لم يفعل "

قال خاله " - ماذا؟... أين كنتُ؟ أوه نعم - كل ما في الأمر أنَّ لوكاس بوشان كان يتمشّى ذات ليلة وسمع شيئاً فاقترب ونظر أو لعله كان فقط ماراً ورأى أو ربما كان أصلاً يتساءل لماذا يتمشّى أو يتمشّى في تلك الليلة ورأى شاحنة سواء أتعرّف عليها أم لا تُحمّل تحت جنح الظلام تلك الأخشاب التي كان الحي كله يعلم أنها لن تُنقَلَ إلا بعد أنْ تغلق المنشرة نفسها أبوابها أي سيمرّ بعض الوقت قبل ذلك وراقب لوكاس وأصاخ سمعه بل لعله توغّل داخل مقاطعة كروسمان إلى غلاسكو وهليماونت إلى أنْ تيقّن ليس فقط من الشخص الذي ينقل بعضاً من تلك الأخشاب في كل ليلة تقريباً، ليس الكثير منها في كل مرة، ليس مقداراً كافياً لأي شخص لم يكن موجوداً هناك كل يوم كي يلاحظ فقدانها (والشخص الوحيد الذي كان يتواجد هناك في كل يوم أو حتى يُبدي اهتماماً حتى إلى تلك الدرجة كان كروفورد الذي يمثّل نفسه وأخيه وخاله الذي كان يملك الأشجار والأخشاب الناتجة عنها وهكذا يستطيع أنْ يفعل بها ما يشاء، الذي كان يتجول في أرجاء المقاطعة طوال النهار ليشرف على حل مشاكله الكبرى والآخر رجل عجوز مُصاب بالروماتيزم قبل أي شيء وفوق ذلك كله شبه أعمى ولا يمكن أنْ يكون قد رأى أي شيء حتى وإنْ كان قد اقترب إلى تلك المسافة من المنزل - وأفراد طاقم المنشرة الذين استُؤجروا باليومية ولا يمكن أنْ يأبهوا إنْ علِمَوا بما كان يجري في تلك الليلة ما داموا يتلقون أجرهم في كل يوم سبت) بل ما كان يفعله بها، ربما علِمَ حتى أنه جيك مونتغمري على الرغم من أنَّ معرفة لوكاس بأنّه جيك مونتغمري لم

تشكّل أي فرق ما عدا أنه بتعريض جبك نفسه للقتل ووجوده داخل قبر فينسون أنقذ حياة لوكاس. ولكن حتى عندما أخبرني هوب كيف أنه في نهاية المطاف حصل على ذلك القدر من لوكاس في مطبخه في صباح ذلك اليوم عندما أحضره ويل ليغيت من السجن وكنا ننقلك بالسيارة إلى المنزل لم يُفسّر ذلك إلا جزءاً من الأمر لأنني كنتُ لا أزال أقول ما كنتُ أقول منذ أنْ أيقظتموني كلكم في صباحِ هذا اليومِ وأخبرني تشيك بما أخبره به لوكاس عن المسدس: ولكن لِمَ فينسون؟ لِمَ اضطُرَّ كروفورد إلى قتل فينسون لكي يقضي على الشاهدَ على سرقتهِ؟ هذا لا يعني طبعاً أنه ما كان ينبغي لهذا أنْ ينجح بما أنّه كان على لوكاس في الواقع أنْ يموت حالما يظهر له أول رجل أبيض ويقف فوق جثة فينسون ممسكاً بذلك المسدس ويُسدده إلى ظهر معطفه، ولكن لم نفّذ الأمر بتلك الطريقة، بطريقة قتل الأخ الغريبة الملتوية؟ لذلك اَلآن بعد أنْ توفّر بين أيدينا شيء ثقيل بالقدر الكافي لنتحدث فيه مع لوكاس ذهبتُ مباشرة إلى منزل هامبتون بعد ظهيرة هذا اليوم وولجتُ المطبخ فوجدتُ طبّاخة هامبتون جالسة على أحد جانبي طاولة المائدة ولوكاس على الجانب المقابل يأكل خضاراً وخبز الذرة ليس من طبقٍ بل من القدر نفسه الذي يتسع مقدار غالونين وقلت،

" " وتركته يقبض عليك - وأنا لا أقصد بهذا كروفورد - " وقال،

" " كلا. أعني فينسون أيضاً. ولكن كان الأوان قد فات حينئذٍ، كانت الشاحنة قد حُمّلَتْ وتخرج بسرعة وهي مُطفأة الأنوار وقال لِمَنْ هذه الشاحنة؟ و لم أقُل شيئاً"

قلت " " حسن. ثم ماذا؟ "

قال لوكاس " " هذا كل شيء. لا شيء "

" " ألم يكن في حوزته مسدس؟ "

قال لوكاس " " لا أعلم. كان يحمل عصا: " وقلت،

" " حسن. تابع: " فقال،

" " لا شيء. ظل واقفاً هناك دقيقة شاهراً العصا وقال أخبرني مَنْ صاحب تلك الشاحنة و لم أقُل شيئاً فأنزل العصا واستدار و لم أره بعد ذلك "

قلت " " إذن أخذتَ مسدسك "، فقال " وذهبت - " وقال

" " ما كان ينبغي أنْ أفعل. لقد جاء إليّ، أعني كروفورد هذه المرة، في بيتي في الليلة التالية وكان ينوي أنْ يدفع لي نقوداً مقابل أنْ أُخبره عن صاحب الشاحنة، مبلغاً كبير من المال، خمسين دولاراً، أراني إياها فقلت إنني لم أُقرر بعد لِمَن الشاحنة فقال إنه سيترك لي النقود في كل الأحوال ريثما أُقرر فقلت إنني قررت ماذا يجب أنْ أفعل، انني سأنتظر حتى اليوم التالي - أي ليل يوم الجمعة - لأحصل على دليل ما على أنَّ السيد ووركت وفينسون حصلا على نصيبهما من مال ذلك الخشب المفقود "

قلت " " نعم؟ ثم ماذا؟ "

" " ثم انني سأذهب بعد ذلك وأُخبر السيد ووركت انه يُستحسن انْ - "

قلت " " كررْ ما قلت، ببطء "

" " أُخبر السيد ووركت انه يُستحسن انْ يُحصي ألوح خشبه "

" " وانت، أيها الزنجي، كنتَ ستذهب إلى رجل أبيض لتُخبره بأنَّ ولديّ أخته يسرقانه - وفوق ذلك كله رجل أبيض من بيت أربعة. أتعلم ماذا كان يمكن أنْ يحدث لك؟ "

قال " " لم تكن هناك فرصة. لأنه في اليوم التالي - السبت - استلمت الرسالة - " وكان ينبغي أنْ أعلم حينئذٍ بأمر المسدس لأنَّ من الواضح أنَّ غاوري كان يعلم بأمره؛ ما كان يمكن أنْ تكون رسالته لقد أرجعت نقوداً مسروقة، أريد موافقتك الشخصية، أحضِر مسدسك وكن ودوداً - شيئاً كهذا فقلت،

" " ولكن ما الداعي إلى المسدس؟ " وقال،

" " كان يوم سبت " فقلت،

" " نعم، التاسع من الشهر. ولكن ما الداعي إلى المسدس؟ " ومن ثم فهمت؛ قلت: " فهمت. أنت تحمل المسدس عندما تتأنّق في الملبس يوم السبت كما كان العجوز كاروثرز يفعل قبل أنْ يُعطيه لك: " وقال،

" " باعه لي " وقلت،

" " حسن، تابع " فقال،

" " - استلمتُ الرسالة التي يطلب مني فيها أنْ أقابله في المتجر لولا - " هنا قدحَ خاله عود الثقاب من جديد وأخذ ينفث دخان الغليون ولا يزال يتكلّم، يتكلّم بالدخان من خلال أنبوب الغليون وكأنك تراقبُ الكلمات نفسها: " لولا أنه لم يذهب إلى المتجر أبداً، لقد قابله كروفورد في الغابة جالساً على جدعة جذع بجوار الدرب ينتظره قُبيل أنْ يُغادر لوكاس المنزل في الحال وكروفورد هو الذي كان بجوار المسدس، وانطلقَ قبل أنْ يتمكن من إلقاء التحية أو أنْ يفرح فينسون والسيد ووركيت بالحصول على النقود أو أي شيء، قائلاً " حتى وإنْ كان بالقرب منك ربما ما كنت استطعت أنْ تُطلق النار منه على أحد " وهكذا كان في استطاعتك أنْ تُنهي الأمر بنفسك؛ قال لوكاس كيف راهن كروفورد أخيراً بنصف دولار على أنَّ ليس

في استطاعة لوكاس أنْ يُصيب جدعة شجرة من مسافة خمسة عشر قدماً وأصابها لوكاس وأعطاه كروفورد النصف دولار وعاد سيراً على قدميه قاطعاً مسافة ميلَين حتى المتجر إلى أنْ طلب كروفورد من لوكاس أنْ ينتظر هناك، وكان السيد ووركيت يُرسل وصل استلام موقّعاً بحصته من الخشب المفقود إلى المتجر لكي يذهب كروفورد ويستعيده لكي يراه لوكاس بعينيه وقلت،

" " وأنت لم تشتبه بأي شيء حتى حينئذٍ؟ " فقال،

" " كلا. كان الأمر طبيعياً " على الأقلّ يمكنك أنْ تُنهي هذا، ولستَ في حاجة إلى أنْ تُثبت وقوع أية مشادة بين فينسون وكروفورد ولا إلى أنْ تشحذ ذهنك بعمق لتتخيَّل ما قال كروفورد وفعل ليجعل فينسون ينتظر في المتجر ومن ثم يجعله يسير على الطريق في المقدمة بما أنَّ لا شيء غير ذلك سينفع: " حسن. لقد نلتُ منه. إذا ظلّ يرفض أنْ يقول مَنْ هو صاحب الشاحنة سوف نضربه حتى يبوح به " لأنَّ هذا أيضاً ليس هاماً حقاً بالقدر الكافي بحيث أنَّ الشيء التالي الذي رآه لوكاس كان فينسون قادماً على الدرب من المتجر بسرعة كبيرة كما قال لوكاس ولكن لعلّ ما قصده هو أنه كان نافد الصبر، محتاراً ومنزعجاً معاً ولكن في الغالب أنه كان منزعجاً، لعله كان يفعل بالضبط ما كان يفعله لوكاس: ينتظر من الآخر أنْ يتكلّم ويشرح إلى أنْ ملّ فينسون الانتظار أولاً حسب قول لوكاس، ولا يزال يمشي ويقول ويصل حتى " إذن غيّرتَ رأيك - " وعندما قال لوكاس هذا تعثّر بشيء وانبطح على وجهه وفي الحال تذكّرَ لوكاس أنه كان قد سمع الطلق الناري وأدرك أنَّ ما تعثّر به فينسون هو أخوه كروفورد، ثم كانوا كلهم هناك كما قال لوكاس حتى قبل أنْ يُتاح له الوقت ليسمعهم يركضون خلال الغابة وقلتُ،

" " أعتقد أنه بدا لك حينئذٍ أنك أوشكت أنْ تتعثّر بقوة بفينسون،

وبالعجوز سليبوورث وبآدم فريجر " ولكن على الأقلّ أنا لم أقُلْ ولكن لِمَ لم تشرح عندئذٍ بحيث على الأقلّ لا يُضطر لوكاس إلى القول أشرحُ مَاذا لِمَنْ: وهكذا كان على ما يُرام - أنا لا أقصد لوكاس طبعاً، بل أعني كروفورد، إنه ليس مجرد طفل من سوء حظه أنه - " وها قد بدأ الأمر من جديد وهذه المرة كان يعلم ما هو، لقد فعلتْ الآنسة هابرشام شيئاً لم يعرف ما هو، لم يصدر أي صوت و لم تكن قد تحرّكتْ ولكن أيضاً لم تزدد سكوناً لكنّ أمراً وقع، ليس شيئاً حدث لها من الخارج نحو الداخل بل شيء انتقل من الداخل نحو الخارج وكأنها ليس فقط لم تُصبْ بالدهشة بسببه بل أصدرت قراراً بشأنه أقرّته لكنها لم تحرّك ساكناً ليس حتى لكي تتنفّس أكثر وخاله لم يكن حتى قد لاحظ الكثير " - بالأحرى اختيرَ انتُقيَ ليكون فريداً نادراً مِن بين البشر من قِبَل الآلهة نفسها ليُثبتوا ليس لأنفسهم لأنهم لم يشكوا أبداً في ذلك بل للإنسان بمستواه العام المنخفض أنّ لديه روحاً، اقتيد أخيراً إلى اغتيال أخيه - "

قالت الآنسة هابرشام " لقد وضعه في الرمال اللينة "

قال خاله " نعم، أمر فظيع أليس كذلك - من سوء طالع بسيط لرجل زنجي عجوز يسير في نومه ومن ثم نجا من ذلك بخطة مُخطط شديد البساطة والإحكام من الناحية النفسية الجغرافية الإحيائيّة بحيث أصبح ما يُسميه صاحبنا تشيك هنا طبيعيّ، ثم يشعر بالإحباط لأنه قبل أربع سنوات وقع صبيّ لم يكن حتى يعلم بوجوده في الجدول في حضور ذلك الزنجي الذي لا يعرف النوم نفسه لأننا لا نعرف حقاً هذا الجزء أيضاً ومع حالة جيك مونتغمري الراهنة قد لا نعرفه أبداً على الرغم من أنّ هذا ليس بالأمر الهام حقاً أيضاً بما أنّ الحقيقة تبقى كما هي، وإلا فما سبب وجوده في قبر فينسون إلا لأنه بشرائه الخشب من كروفورد (لقد اكتشفنا هذا من مكالمة هاتفية إلى المستلِم النهائي

للخشب في ممفيس بعد ظهيرة هذا اليوم) علِمَ جيك مونتغمري من اين اتى أيضاً بما أنَّ بمعرفته بذلك كان من صُلب طبيعة وشخصية جيك أيضاً وهذا بحق عنصر لصالح سمساره وهكذا عندما تعثّر فينسون شريك كروفورد فجأة بالموت في الغابة خلف متجر فريجر لم يكن جيك في حاجة إلى عرّاف ليكشف له عن هذا أيضاً وهكذا إذا كان هذا حدساً فاستغلّه أفضل استغلال أو أعط السيد هامبتون واعطني أفضل منه وسوف نتبادله، وعرف جيك بأمر وسام نصر بدي مكاسلوم القديم في الحرب ايضاً وأحبّ أنْ أفكر لصالح كروفورد - " وبدأ الأمر من جديد و لم تظهر أية إشارة خارجية ولكن هذه المرة رأى خاله أو شعر او أحسّ (أو كائناً ما كان) بذلك أيضاً وتوقف وحتى بدا للحظة أنه سيتكلّم ثم في اللحظة التالي بدا أنه نسي الأمر، وعاد إلى الكلام من جديد: " - ولكن لعلّ جيك ذكر ثمن صمته وحتى تلقّاه أو دفعة منه وربما كان ينوي طوال الوقت أنْ يتّهم كروفورد بجريمة القتل، ربما مُستعيناً بمعارفه ذوي المراكز من الحصول على المزيد من المال أو ربما لم يكن يحب كروفورد وأراد أنْ ينتقم منه أو لعله كان صفائياً وطمس جريمة القتل وقام ببساطة بنبش جثة فينسون وحمّله على البغل وأخذه إلى الشريف ولكن على أية حال في الليلة التي تلت الجنازة قام شخص لديه سبب مفهوم لنبشه، علِمَ أنه قد نُبِشَ - قلتَ إنَّ الساعة كانت العشرة عندما ركنت أنت وألك ساندر الشاحنة وكانت الدنيا ظلاماً بحيث يتعذّر نبش القبور عند حوالي السابعة من تلك الليلة وهذا يُتيح لهم ثلاث ساعات - وهذا ما أعني بشأن كروفورد " قال خاله بل لاحظ هذه المرة أنَّ خاله توقف، متوقعاً ذلك وقد حصل ولكن بلا صوت ولا حركة، القبعة ثابتة والوضعية مضبوطة والدقّة أنيقة كالقفاز المُحكَم وحقيبة اليد على حجرها وفردتا الحذاء راسختان ولا تندّ عنهما حركة جنباً إلى جنب وكأنها وضعتهما ضمن رسم بيانيّ بالطباشير على الأرض: " - يراقبُ هناك في الأعشاب البرية خلف

Twitter: @ketab_n

السياج يرى نفسه ليس فقط يفضح ابتزازه بل كل الأسى والترقُّب اللذين سيعانيهما من جديد ناهيك عن الجهد الجسدي هو الذي ما كان يمكن أنْ يعرف بما أنَّ لا أحد كان يعلم أنَّ الجسم لا يتحمّل تفحُّصِ رجال الشرطة المُدرَّبين، كم عدد الآخرين الذين يعرفون بأمره أو يشكّون لذلك كان ينبغي الآن إخراج الجثّة من القبر على الرغم من أنه كان هنا قد تلقّى على الأقل مساعدة سواء علِمَ مَنْ قدّم له المساعدة ذلك أم لا لهذا لعله انتظر إلى أنْ أخرج جيك الجثّة وبات على استعداد لتحميلها على متن البغل (واكتشفنا أمر هذا أيضاً، إنه بغل حراثة آل غاوري، البغل نفسه الذي كان التوأم يمتطيان في صباح ذلك اليوم؛ لقد استعاره جيك نفسه في وقتٍ متأخر من بعد ظهيرة يوم الأحد ذاك وعندما تخمِّن من أي فرد من آل غاوري استعاره سوف تكون على صواب: لقد كان كروفورد) وعلى أي حال لم يكن حينئذٍ ليُخاطر بابراز المسدس أكثر مما كان فعل لو استطاع، الذي كان سيدفع لجيك مرة أخرى مقدار مبلغ الابتزاز مقابل استخدام كائناً ما كان الذي سحق به جمجمة جيك ووضعه داخل التابوت وردم القبر من جديد - وها أنَّ الأمر يتكرر من جديد، الاستعجال الرهيب اليائس، الشعور بالوحدة والنبذ اللذان ليس فقط ينطوي عليهما شعور الناس جميعاً بالرعب والإنكار اتجاهه بل اضطراره إلى مكافحة بمجرد خمول التربة والمرور السريع الرهيب والطائش للزمن بل حتى هزيمة كلِ ذلك الائتلاف في آخر الأمر، القبر لائق من جديد حتى الأزهار التي أُزيلتْ والدليل على جريمته الأصلية تم التخلُّص منها أخيراً وضمانها - " وسوف يتكرر الأمر من جديد ولكن هذه المرة لم يتوقف خاله " - ثم استقام أخيراً وللمرة الأولى وأخذ نفساً عميقاً منذ اللحظة التي اقترب منه جيك فيها وهو يدعك إبهامه على أطراف أصابع اليد نفسها - ثم سمع كائناً ما جعله يعود مرتقياً التل ومن ثم يزحف ويدبّ ليتمدد مرة أخرى وهو يلهث ولكن هذه المرة ليس فقط حانقاً ومرعوباً بل بعدم

تصديق هائل لأنّ رجلاً واحداً يمكن انْ يصبح هدفاً لكل ذلك الكمّ من الحظ العاثر، وهو يراقبكم أنتم الثلاثة ليس فقط وأنتم تُخرّبون عمله للمرة الثانية بل وتُكررونه الآن بما أنكم ليس فقط فضحتم أمر جيك مومنتغمري بل وردمتم القبر من جديد وأعدتم الأزهار إلى مكانها: و لم يتحمّل أنْ يتم العثور على أخيه فينسون في ذلك القبر لكنه لم يجرؤ على السماح بالعثور على جيك مونتغمري داخله عندما (كما لابد أنه علِم) وصل هوب هامبتون إلى هناك في اليوم التالي: " وهذه المرة توقّفَ لينتظرها لتقول وقد قالت:

" لقد وضع أخاه في الرمال اللينة "

قال خاله "آه، إنّ تلك اللحظة قد يمرّ بها أي شخص حين لا يبقى ببساطة ما يمكن تفعلينه بأخيك أو زوجك أو عمّك أو قريبك أو حماتك غير أنْ تقضي عليهم. ولكنك لن تضعينهم في الرمال اللينة. هل هذا ما تقصدين؟ "

قالت بلهجة ختامية هادئة وعنيدة، دون أنْ تتحرك أو تُحرّك غير شفتيها لتتكلّم حتى ذلك الحين ثم رفعت يدها وفتحت الساعة المُثبّتة على صدرها ونظرتْ فيها.

قال خاله " لم يصلوا إلى قاع وايتليف ولكن لا تقلقي، سوف يصل، لعله استلم رسالتي ولكن لا أحد في هذه المقاطعة يمكنه أنْ يفلت من سماع أي شيء قبل لويلي إنغرام تحت قَسَم السريّة، لأنه ليس لديه أي عمل آخر يقوم به لأنّ القتلة مقامرون وكالمقامِر الهاوي القاتل الهاوي يؤمن أولاً ليس بحظّه بل بالطلقات الطويلة، بأنّ الطلقة الطويلة سوف تربح ببساطة لأنها طلقات طويلة ولكن إلى جانب هذا يقول إنه كان يعلم مُسْبقاً أنه خاسر وليس لدى لوكاس ما يشهد به بشأن جيك مونتغمري او أي شخص آخر يؤذيه أكثر من ذلك بحيث

أنَّ فرصته الوحيدة والأخيرة والضعيفة هي أنْ يغادر البلاد، أو يقول إنه كان يعرف حتى أنه تافه، ويتيقّن من أنَّ وفاضه ينفد من آخر ما يمكن أنْ يسمّيه حرّية، على فرض أنه حتى يعرف متيقّناً أنَّ شمس الغد لن تُشرق عليه - ما سترغب في أنْ تفعل أولاً، عمل واحد أخير وتصريح عن مبائدك الخالدة قبل أنْ تغادر أرض وطنك إلى الأبد بل وربما العالم إلى الأبد إذا كان اسمك غاوري وكان دمك وتفكيرك وتصرّفك غاوري طوال حياتك وتعرف أو ربما فقط تؤمن أو حتى فقط تأمل في أنه في لحظة ما في سيارة تمشي ببطء على قاع جدول موحش في منتصف الليل سيكون السبب وعلّة ألمك كله وإحباطك وغضبك وحزنك وإحساسك بالخزي وبالخسارة التي لا تُعوّض وأنه ليس حتى رجل أبيض بل زنجي وأنت لا تزال تحتفظ بالمسدس الذي يحتوي على الأقلّ طلقة من الطلقات العشر الألمانية القديمة - قال بسرعة " ولكن لا تقلق. لا تقلق بشأن السيد هامبتون. لعله حتى لن يُشهر مسدسه، إنني في الحقيقة لست متيقناً من انه يحتفظ بواحد لأنَّ من عادته انْ يحمل معه في كل الأحوال ربما ليس السلم، ربما ليس تخفيف الانفعالات الأساسية بل على الأقلّ وضعاً مُحرِجاً موقّتاً في السلوك الفظ والعنيف بمجرد القيام بحركة بطيئة والتنفُّس بعمق، وقد حدث هذا مرتين أو ثلاث في حقبة العشرينيات، سيدة من النادي الاجتماعي تشاجرت مع سيدة أخرى دون استخدام ألفاظ تدل على ضغينة حول شيء بدأ (كما علِمنا) أنه يتعلّق بكعكة مسابقة في سوق عشاء الكنيسة، وكان زوجها - السيدة الثانية - يمتلك معملاً لتقطير الخمور يزود النادي الاجتماعي بالويسكي منذ سنين دون أنْ يُزعج أحداً إلى أنْ قدّمتْ طلباً رسمياً إلى السيد هامبتون للذهاب إلى هناك وتدمير معمل التقطير وإلقاء القبض على مديره ومن ثم بعد مرور أسبوع أو عشرة أيام جاءت بنفسها إلى البلدة وأخبرته بأنه إذا لم يفعل فسوف تقدّم فيه تقريراً إلى حاكم الولاية وإلى رئيس الجمهورية في واشنطن فنفّذ هوب الأمر في

هذه المرة، وهي لم تكتف بإعطائه توجيهات واضحة بل قال إنَّ هناك ممراً إليه يبلغ في بعض المواقع عمق الماء مستوى الركبة كان يُطرَق على مدى سنين طويلة تحت ثقل برطمانات مملوءة حتى الزُبى لذلك كان في الإمكان السير عليه حتى من دون الاستعانة بمصباح البطارية الذي كان في حوزته وطبعاً كان معمل التقطير يقوم في بقعة جميلة جداً، أليفة ومحميّة ولكن أيضاً سهل بلوغها تغلي المراجل فيه ويقوم رجل زنجي بمراقبتها وهو طبعاً لا يعرف مَنْ مالكه أو مديره أو أي شيء عنه حتى قبل أنْ يرى حجم هامبتون أو أنْ يرى أخيراً شارته: والذي كما قال هوب قدّم له مشروباً أولاً ومن ثم هيّأ له مجلساً مُريحاً تحت شجرة، بل وأزكى النار من أجل يُجفف قدميه المُبللتين في أثناء انتظاره عودة المالك، وهو مرتاح تماماً كما قال هوب، والرجلان الموجودان هناك بجوار الموقد في الظلام كانا يتحدثان في أمور شتى والزنجي يسأله بين حين وآخر إنْ كان يرغب في مقدار قرعة من الماء إلى أنْ قال هامبتون إنَّ ذلك الطائر الثرثاء يُثير الكثير من الضجيج اللعين حتى أنه في نهاية المطاف فتح عينيه وطرف بهما قليلاً في أشعة الشمس إلى أنْ تَنَبّهما قليلاً ورأى الطائر الثرثار واقفاً على فرع على مسافة لا تزيد عن ثلاثة أقدام فوقه وقبل أنْ يُحمّلوا مصنع التقطير لينقلوه ذهب أحدهم إلى أقرب منزل وأحضر لحافاً ليُغطّيه به ووسادة ليسند بها رأسه وقال هوب إنه لاحظ أنَّ الوسادة معبّأة بكيس جديد عندما أخذها مع اللحاف إلى متجر فارنر لإعادتهما مع الشُكر إلى كائناً مَنْ كان يملكهما ثم عاد إلى البلدة. وفي مناسبة أخرى – "

قالت الآنسة هابرشام " أنا لستُ قلقة "

قال خاله " طبعاً لا، لأنني أعرف هوب هامبتون – "

قالت الآنسة هابرشام " نعم، أنا أعرف لوكاس بوشان "

قال خاله " أوه ". ثم قال " نعم "، ثم قال " طبعاً ". ثم قال " فلنطلب من تشيك أنْ يضع الإبريق على النار لنشرب شيئاً من القهوة بينما ننتظر، ما رأيك؟ "

قالت الآنسة هابرشام " سيكون ذلك شيئاً لطيفاً "

الفصل الحادي عشر

ختاماً نهضَ وذهب إلى إحدى النوافذ الأمامية وأطلّ منها إلى الساحة لأنه إنْ كان يوم اثنين هو يوم مزاد الماشية والتبادل التجاري فيوم السبت هو حتماً يوم المذياع والسيارة؛ في يوم الاثنين يتواجد في الغالب رجال ويدخلون بسياراتهم ويركنون السيارات والشاحنات في أنحاء الساحة ويتوجهون مباشرة إلى حظائر البيع ويبقون هناك إلى أنْ يحين وقت العودة إلى الساحة وتناول وجبة العشاء ومن ثم يرجعون إلى حظائر البيع ويمكثون هناك إلى أنْ يأتي وقت ركوب سياراتهم وشاحناتهم والعودة إلى منازلهم قبل هبوط الظلام. ولكن ليس في يوم السبت؛ لأنهم يكونون حينئذٍ رجالاً ونساءً وأطفالاً أيضاً وعجائز وأطفالاً رُضّعاً وأزواجاً من الشبان ليشتروا تصاريح للزواج في كنائس البلاد في اليوم التالي، يأتون ليقوموا بالتبضُّع الأسبوعي من السلع الرئيسة والأطايب كالموز وسردين الخمسة وعشرين سنتاً والكعك والفطائر المصنوعة بالآلات والملابس والجوارب والعلف والأسمدة ومعدات الحراثة: وهذا لم يكن يستغرق وقتاً طويلاً من أي منهم ولا يستغرق أي وقت من بعضهم بحيث أنّ بعض السيارات لم تكن تبقى طويلاً في أماكنها وفي غضون ساعة أو نحوها كان الآخرون ينضمون إليهم في التحرّك بانتظام في موكب وغالباً على السرعة الثانية بسبب احتشادها الكثيف وهي تدور حول الساحة ومن ثم تخرج إلى آخر الشوارع السكنية كثيفة الأشجار لكي يستديروا عائدين ضمن دائرة يدورون ويدورون جول الساحة من جديد وكأنهم قطعوا الطريق كله عائدين من المجمعات السكنية النائية المُطوّقة ومتاجر تقاطُع الطرق

والمزارع المنعزلة من أجل ذلك الهدف الوحيد وهو الاستمتاع بالرواح والمجيء المزدحم والحركة وتعرّفه أحدهم على الآخر ونعومة الشوارع والأزقة نفسها المعبّدة كالنسيم العليل بالإضافة إلى التفرُّج على المنازل الصغيرة الجديدة المدهونة والأنيقة وسط أفنيتها الأنيقة والصغيرة ومساكب زهورها وزخرفات حدائقها التي خلال السنوات القليلة الأخيرة أصبحت مزدحمة كالسردين أو الموز؛ ونتيجة لذلك اضطرت أجهزة الراديو مرتفعة الأصوات بمكبرات الصوت القوية المُلحقة بها لكي يعلو ضجيجها على غمغمة عوادم السيارات وحفيف إطاراتها وهدير السرعات ونفير الأبواق المتواصل، بحيث أنك قبل أنْ تصل إلى الساحة ليس فقط لا يعود في وسعك أنْ تعرف أين يبدأ أحدها وينتهي آخر ولكنك لست لا تُضطر إلى محاولة التمييز بين أيّها يعبث أو أيّها يحاول أنْ يبيع شيئاً.

ولكن هذا اليوم بدا يوم سبت كأي يوم من أيام السبت بحيث أنَّ خاله نهضَ في الحال من خلف الطاولة وانتقل إلى النافذة أيضاً، ولهذا تصادف أنْ شاهدوا لوكاس قبل أنْ يصل المكتب على الرغم من أنه لم يكن قد وصل بعد؛ كان لا يزال واقفاً (هكذا اعتقد) وحيداً عند النافذة يطل منها على الساحة التي تعجّ وتضجّ كما لم يتذكّر أنها كانت كذلك من قبل - الهواء المُفعم بأشعة الشمس البرّاقة ويكاد يكون حاراً كان مُثقلاً برائحة زهور شجر الخرنوب الاتية من ناحية فناء دار المحكمة، الأرصفة مزدحمة ومُكدّسة وبطيئة الحركة بأناس سود وبيض قادمين إلى البلدة في هذا اليوم وكأنما معاً لكي يتجمعوا في مكان واحد وبذلك يُعفون ليس فقط من التوازن بل من تذكُّر أيضاً يوم السبت الآخر ذاك الذي لم يمر عليه أكثر من سبعة أيام وحرمهم منه رجل زنجي ورّطَ نفسه في وضع اضطروا أنْ يُصدّقوا فيه أنه قتل رجلاً أبيض - أيام ذلك السبت والأحد والاثنين قبل أسبوع واحد فقط كان يمكن ألا توجد بما أنّه لم يتبقّ منها شيء: فينسون وأخوه كروفورد (في

قبر انتحاره وسوف يتساءل أشخاص غرباء على مدى أسابيع قادمة أي نوع من السجن والشريف في مقاطعة يوكناباتاوفا يُسجن فيها رجل بتهمة القتل ولا يزال يحتفظ بمسدس من نوع لغز حتى وإنْ لم يكن يحتوي إلا رصاصة واحدة وطوال كل تلك الأسابيع لم يتمكن أحد في مقاطعة يوكناباتاوفا من إعطاء إجابة) جنباً إلى جنب بالقرب من شاهد قبر أمّهما في فناء كنيسة كاليدونيا وجيك مونتغمري في مقاطعة كروسومن حيث ربما طالب أحدهم به أيضاً للسبب نفسه الذي طالب به أحدهم بكروفورد والآنسة هابرشام جالسة الآن في ردهة منزلها ترفو الجوارب إلى أنْ يحين وقت إطعام الدجاج وألك ساندر في الساحة يرتدي قميصَ يوم السبت المُبهرج وبنطلوناً ضيّق ويحمل حفنة من الفول السوداني أو الموز أيضاً وهو واقف عند النافذة يراقب الحشد الغفير غير المُستعجل ولا يمكن حثّه على الاستعجال والومض والبريق الشديدين والحاضرين دائماً تقريباً المُسلّطين على قلنسوة ويلي إنغرام التي تحمل الشارة ولكن غالباً وفوق ذلك كله الحركة والضجيج، أجهزة الراديو والسيارات - علب الموسيقى والصيدلية وصالة البلياردو والمقهى ومكبّرات الصوت الزاعقة على الجدران الخارجية ليس فقط لمتجر التسجيل والموسيقى الصحائفية بل ومتجر معدات الجيش وسلاح البحرية ومتجريّ الأطعمة وأيضاً (فقد يترنحون) شخص يقفُ على المقعد الطويل في فناء دار القضاء يُلقي خطاباً على شخص آخر له خطم يشبه مدفع حصار مُثبّتاً إلى قمة سيارة، ناهيك عن أولئك الذين ركضون في الشقق والمنازل حيث ربّات المنازل والخادمات يرتّبن الأسرّة ويكنسن ويطبخن وجبة العشاء بحيث لا يتعرّض في أي مكان داخل أقصى حافة من أقصى مكان في البلدة أي رجل أو امرأة أو طفل من المواطنين أو الضيوف أو الغرباء للتهديد مع لحظة صمت واحدة؛ ثم السيارات لأنه بكل صراحة لا يستطيع أنْ يرى أي شيء من الساحة: فقط الكتلة الكثيفة المتراصّة

من قمم الرؤوس والقلنسوات تتحرك ضمن صفّين ببطء شديد حول الساحة ضمن هالة حادة خفيّة من أول أوكسيد الكربون والأبواق الزاعقة والأضواء المتقطّعة وتصادم مصدات السيارات، يزحفون ببطء واحداً إثر آخر داخل الشوارع المؤدية بعيداً عن الساحة بينما الصف المقابل يزحف بالبطء نفسه وواحداً إثر آخر نحوها؛ شديد الكثافة والبطء ومتراص في نسيج واحد متداخل شديد بطء الحركة بحيث يكاد لا يستحق هذا الوصف حتى ليمكنك أنْ تجتاز الساحة سيراً عليهم - أو حتى تخرج إلى أطراف البلدة لهذا السبب أو حتى على متن حصان لهذا السبب، على متن هايبوي على سبيل المثال الذي بالنسبة إليه لن تكون القفزة التي مقدارها خمسة أقدام أو ست من قمة عبر الرؤوس المقلنسة المتداخلة إلى الأخرى شيئاً يُذكَر والقُمم الثابتة كثيراً أو قليلاً ممتدة بسطح واحد متواصل ومُمَهَّد أشبه بجسر وليس هايبوي بل حصان بخطى مُدرَّبة أو حصان بخطوة واحدة: خبب صعب القيادة بعلو سبعة أقدام في الهواء كطائر وينطلق مُسرعاً كصقر أو نسر: مع إحساس في قعر معدته وكأنَّ زجاجة كاملة من المشروب الغازي الحارّ انفجرت داخلها كان يفكّر في الصهيل الفروسي الرائع الفخم حقاً الذي سيُصدره حصان وهو يخبّ في أي اتجاه على جسر من ألواح الخشب المخلخلة طوله ميلَين عندما قال خاله فجأة عند النافذة الأخرى،

" إنَّ الأميركيَّ لا يحب أي شيء حقاً إلا السيارة: ليس زوجته ولا طفله ولا بلده ولا حتى حسابه في المصرف في المقام الأول (في الحقيقة إنه لا يحب حقاً ذلك الحساب المصرفي بقدر ما يحب الأجانب أنْ يعتقدوا لأنه سوف يُنفق تقريباً أي قسم منه أو كله على أي شيء تقريباً ما دام أنه قيّم بالقدر الكافي) بل سيارته. ولأنَّ السيارة اضحتْ رمزنا الجنسي الوطني. ولا يمكننا أن نستمتع حقاً بأي شيء إلا إذا سلكنا طريقاً صعبة إليه. ومع ذلك فتاريخنا كله ونشأتنا

وتدريبنا يُحرِّمُ السرّي والمكتوم. لذلك علينا أنْ نُطلِّق زوجاتنا اليوم لكي نُزيل عن عشيقاتنا خزي العشيقات لكي نُطلِّق زوجاتنا غداً لكي نُزيل عن عشيقاتنا وإلى آخره. ونتيجة لذلك أصبحتْ المرأة الأميركية متبلِّدة المشاعر وباردة جنسياً؛ وجّهتْ شهوتها الجنسية نحو السيارة ليس فقط بسبب تلألؤها وأدواتها العجيبة وأسلوب تحرُّكها التي تلبّي نزواتها التافهة وعدم قدرتها (بسبب الثوب الذي فرضَته عليها الرابطة الوطنية لبائعي التجزئة) على المشي بل لأنَّ السيارة لن تُعاملها بخشونة وتبعثر شعرها، وتجعلها تتصبب عرقاً وتشوِّش مظهرها. لذلك ولكي تأسر وتهيمن على أي شيء مهما كان مما تبقّى لها مما لدى الرجل الأميركي ليجعل تلك السيارة مُلكه. وهذا هو السبب في أنها جعلته يعيش في جُحر على الرغم من أنه ينبغي وسوف يمتلك واحدة بل وأنْ يُجدِّدها في كل عام ويُبقيها بتولاً نقيّة، لا يُعيرها لأحد، ولا يدع أي يدٍ أخرى تعرف آخر أسرارها تبقى دائماً طاهرة دائماً لعوباً وحميمة بدواستيها وعتلاتها، وليس له مكان يذهب إليه بها وإذا فعل فلن يذهب إلى حيث يتسبب لها بخدوش أو تشوه، ويقضي صباح يوم الأحد كله في غسلها وتلميعها وتشحيمها لأنه بفعله هذا إنما يداعبُ جسد المرأة التي منذ زمن طويل لفظته من سريرها "

قال " هذا ليس صحيحاً "

قال خاله " لقد تجاوزتُ الخمسين من العمر، وأمضيتُ السنوات الخمس عشرة في منتصفه في العبث تحت الأثواب. واتضح لي من التجربة أنَّ معظمهن لا يهتممن بالحب أو حتى بالجنس. لقد يردن أنْ يتزوجن "

قال " لا زلت لا أصدق "

قال خاله " هذا صحيح. لا تصدّق. حتى عندما تبلغ الخمسين

ونيف، ابقَ على رفضك التصديق " عندئذٍ شاهدا لوكاس يجتاز الساحة، ربما شاهدا في الوقت نفسه - القبعة البارزة والومض الرفيع الشرس والمائل لخلال الأسنان الذهبي وقال،

" أين في اعتقادك كان طوال الوقت؟ أنا لم أره أبداً. لقد كان معه حتماً طوال فترة بعد الظهر، إنه يوم سبت الذي ليس فقط يرتدي فيه البزّة السوداء ولكنه يحمل أيضاً المسدس؟ لا شك في أنه لا يغادر المنزل من دون خِلال الأسنان أيضاً "

قال خاله " ألم أخبرك؟ ذلك كان أول شيء قام به عندما ولج السيد هامبتون منزل سكيبوورث حيث أوثق سكيبوورث لوكاس بالأصفاد بالسرير إلى أنْ يتم استدعاؤه "

قال " أوه، إنه قادم إلى هنا "

قال خاله " نعم. لكي يُمتّع ناظريه. أوه "، قال بسرعة، " إنه سيد محترم؛ إنه لن يُذكّرني في وجهي بأنني كنتُ على خطأ: سوف يكتفي بسؤالي عن المبلغ الذي يُدين به لي بوصفي مُحاميه "

ثم وهو على الكرسي المجاور لمبرّد الماء وخاله من جديد خلف الطاولة سمعا الهدير والصرير الطويل الوهمي للدرَج ثم وقع قدميّ لوكاس الثابت ولكن المتمهّل ثم وصل لوكاس بلا ربطة عنق وحتى بلا ياقة هذه المرة بل فقط الزر ولكن مع صدرة بيضاء قديمة ليست قذرة بقدر ما كانت مبقّعة من تحت المعطف الأسود وسلسلة الساعة الذهبية البالية - الوجه نفسه الذي كان قد رآه للمرة الأولى عندما خرج من مياه الجدول المُثلجة في صباح ذلك اليوم قبل أربع سنوات، لم يتغيّر، لم يحدث له أي شيء.بما أنه لم يشُخ حتى - قال بنبرة عامة وهو يقوم بحركة وضع خلال الأسنان في إحدى جيوب الصدرة العليا في أثناء دخوله من الباب:

" مرحباً أيها السيدان "، ثم قال له: " أيها الشاب - " بدمائة وعناد، وليس برقّة: بمرح صريح تقريباً، وهو يُخلع القبعة المائلة بتباه: " آمل الا تكون قد وقعت في المزيد من الجداول مؤخراً، هل وقعت؟ "

قال " هذا صحيح. إنني أحتفظ بهذا إلى أنْ يهطل المزيد من الثلج على قبعتك "

قال لوكاس " أهلاً بك من دون انتظار الصقيع "

قال خاله " اجلس، يا لوكاس " لكنّه كان قد باشر بالجلوس، منتقياً الكرسي القاسي نفسه القائم بجوار الباب والذي بالإضافة إليه لم يختر الجلوس عليه غير الآنسة هابرشام، واضعاً يده قليلاً على خاصرته كأنه يتّخذ وِقفة أمام آلة تصوير، والقبعة تتراجع عن جبينه نحو قمة رأسه، ولا زال ينظر إلى كليهما ويقول من جديد،

" مرحباً أيها السيدان "

قال خاله " لا أظنك أتيتَ إليّ لكي أُخبركَ بما ينبغي أنْ تفعل ولذلك سوف أخبرك في كل الأحوال "

طرفَ لوكاس بعينيه بسرعة مرة واحدة. ونظر إلى خاله. " لا أستطيع أنْ أقول أنني فعلت "، ثم قال بمرح " لكنني دائماً مستعد لأستمع إلى نصيحتك النصوح "

قال خاله " اذهب وقابل الآنسة هابرشام "

نظر لوكاس إلى خاله. وطرف بعينيه مرّتين هذه المرة، قال " إنني رجل لا يحب القيام بالزيارات "

قال خاله " ولستَ أيضاً تحب أنْ تُشنَق. ولكن لا داعي إلى أنْ أخبرك كم اقتربتَ من ذلك "

قال لوكاس " كلا، لا داعي إلى هذا. ماذا تريد مني أنْ أقول لها؟ "

قال خاله " أنت لا تستطيع. أنت لا تُحسِن تقديم الشُكر. وقد وجدتُ حلاً لهذا أيضاً. خذ لها باقة زهر "

قال لوكاس " زهر؟ إنني لم أبتع زهوراً منذ أنْ ماتت مولي "

قال خاله " ووجدتُ حلاً لهذا أيضاً. سوف أتصل هاتفياً بالمنزل. إنَّ لدى أختي باقة جاهزة. سوف يوصلك تشيك بسيارتي لتُحضرها ومن ثم يأخذك إلى باب بيت الآنسة هابرشام "

قال لوكاس " لا داعي إلى هذا. حالما أحصل على الأزهار أستطيع أنْ أمشي "

قال خاله " وتستطيع أيضاً أنْ ترمي الأزهار. لكنني أعلم أنّك لن تفعل الأولى ولن تفعل الثانية وأنت في السيارة مع تشيك "

قال لوكاس " حسن، إنْ كان هذا يرضيك - " (وعندما عاد إلى البلدة وعثر أخيراً على مكان يقع بُعد ثلاثة أبنية ليوقِف فيه السيارة وارتقى الدَرَج من جديد كان خاله يقدح عود الثقاب، ويُقرّبه من الغليون ويتكلّم من خلال ومع وداخل الدخان: " أنت وبوكر تي واشنطن، كلا هذا خطأ، وأنت والآنسة هابرشام وألك ساندر والشريف هامبتون، وبوكر تي واشنطن لأنه لم يفعل إلا ما كان الجميع يتوقعونه منه ولذلك لم يكن هناك أي سبب معقول لأنْ يفعل في حين أنكم جميعاً فعلتم ليس فقط ما لم يتوقعه منكم أحد ولكن كل سكان مدينة جيفرسون ومقاطعة يوكناباتاوفا نهضوا في فعل منسجم مرة واحدة من أجل منعك إذا علِموا في الوقت المناسب ولو بعد عام من الآن وبعضهم (هذا عندما وإذا فعلوا هذا كله) سوف يتذكرون باستنكار وامتعاض ليس أنكم كنتم غيلان وليس أنكم تحدّيتم لون بشرتكم لأنهم كانوا سيتجاوزون الأمرين وإنما أنكم تعدّيتم على قبر

شخص أبيض من أجل إنقاذ زنجي لذلك لديكم كل الأسباب الممكنة. فقط لا تتوقفوا: " وقال:

" أنت لا تعتقد أنه فقط لأننا في بعد ظهيرة يوم سبت من جديد فإنَّ أحدهم يختبئ خلف شُجيرة ياسمين الآنسة هابرشام مع مسدس مُسدَّد إليها في انتظار أنْ يصل لوكاس إلى الدرج الأمامي. ثم إنَّ لوكاس لا يحمل مسدسه اليوم وإلى جانب هذا فإنَّ كروفورد غاوري - " ثم قال خاله:

" ولِمَ لا، إنَّ ما كان يوجد هناك في الأرض في كنيسة كاليدونيا هو كروفورد غاوري للحظة أو اثنتين في يوم السبت الفائت وسوف يخلِّف لوكاس بوشان خضابه في عشرة آلاف موقف جدير برجل أكثر حكمة أنْ يتفاداها ورجل أخفّ حركة أنْ يهرب عشرة آلاف مرة بعد ما كان لوكاس للحظة أو نحوها يوم السبت الأخير هو أيضاً في أرض كنيسة كاليدونيا، لأنَّ أهل مقاطعة يوكناباتاوفا الذين كان يمكن أنْ يمنعوك أنت وألك ساندر والآنسة هابرشام ليلة يوم الأحد الفائت هم على صواب في الواقع، حياة لوكاس والتنفُّس والأكل والنوم لا أهمية لها تماماً كما أنَّ حياتك وحياتي ليستا كذلك لكنَّ حقّه الذي لا جدال فيه في أنْ يعيشها بسلام وأمان وفي الحقيقة هذا التراب سوف يكون مُريحاً أكثر مع عدد أقلّ من أمثال بوشان وستيفنس وماليسون من الألوان كافة فقط لو أنَّ هناك وسيلة غير مؤلمة لمحوّ ليس الجثث الضخمة التي تلتهم المكان وهذا أمر ممكن بل الذاكرة التي لا تستطيع - الذاكرة الخالدة التي تُستَرَد وعيُ كون المرء كان حقاً ذات يوم الذي يوجد إلى الأبد حتى بعد عشرة آلاف عام في عشرة آلاف ذكرى للظلم والمعاناة، عددٌ لا يُحصى منا ليس بسبب الغرفة التي نشغلها بل لأننا نرغب في بيع الحرية بَخسة بأي سِعرٍ تافه إكراماً لِما نسمّيه مُلكنا وهذا رُخصة قانونية دستورية لكي يسعى كلٌّ إلى تحقيق الشيء الضروري

والخاص من السعادة والرضا بغضّ النظر عن الحزن والثمن حتى وإنْ كان صلبُ شخص لأننا لا نحبّ أنفه أو دمه وحتى هذه الأشياء يمكن تحمُّلها شريطة أنّ حفنة من الآخرين الذين يؤمنون بأنّ حياةً إنسانية قيّمة ببساطة لأنّ لها الحقّ في أنْ تبقى تتنفّس مهما كان الدم الذي تضخّه رئتاه أو الأنف الذي يستنشق الهواء ترغبُ في الدفاع عن ذلك الحق بأي ثمن، لم يحتج الأمر إلى عدد غفير كان ثلاثة يكفي في ليلة الأحد الفائت وحتى واحد يمكن أنْ يكفي وبوجود عدد كافٍ يرغبون في أنْ يكونون أكثر من حزاني ويشعرون بالخزي لن يُجازف لوكاس بالحاجة إلى أنْ يُنقَذ دون إنذار: " وقال:

" ربما لم يكونوا ثلاثة في تلك الليلة. الأغلب كانوا واحداً ونصفين: " وقال خاله:

" أنا قلت أنه لا بأس في أنْ يكون المرءُ فخوراً. لا بأس حتى في التباهي. فقط لا تتوقف ") - واقترب من الطاولة ووضع عليها القبعة وتناول من جيب المعطف الداخلي كيس نقود ذا قفل يبدو عليه القِدَم يشبه حقيبة يد الآنسة هابرشام الفضية القديمة وبحجمها وقال،

" أعتقد أنّ لك عليّ قيمة فاتورة صغيرة "

قال خاله " مقابل ماذا؟ "

قال لوكاس " لأنك قبلتَ تولّي قضيتي. حدِّدْ الرقم الذي تريد في حدود المعقول. أريد أنْ أدفعه "

قال خاله " لا اقبل. أنا لم أفعل أي شيء "

قال لوكاس " أنا الذي طلبتك. أنا وكّلتك. بكم أدينُ لك؟ "

قال خاله " لا شيء. لأنني لا أصدقك. إنّ ذلك الفتى هناك هو السبب في أنّك تتجول بحرية اليوم "

هنا نظر لوكاس إليه، ممسكاً كيس النقود بيد واليد الأخرى في وضعية فك قفله - الوجه نفسه الذي ليس لم يحدث له شيء بل الذي رفض ببساطة أنْ يقبل حدوثه؛ والآن فتح كيس النقود. " حسن. سأدفع له "

قال خاله " وسوف أضطر إلى إلقاء القبض عليكما معاً. أنت بسبب إفسادك ولد قاصر وهو لأنه مارس مهنة القانون من دون ترخيص "

تبادل لوكاس النظرات مع خاله؛ وراقبهما يتبادلان النظر. ثم من جديد طرف لوكاس بعينيه مرتين. قال " حسن. سأدفع قيمة الأتعاب. حدِّد قيمة أتعابك برقم معقول وسوف أُسوّي الأمر "

قال خاله " أتعاب؟ نعم، لدي أتعاب بجلوسي هنا يوم الثلاثاء الفائت أحاول أنْ أدوِّن الأشياء المختلفة التي أخبرتني بها أخيراً بحيث يتحلى السيد هامبتون بما يكفي من الحس السليم ليُطلِق سراحك من السجن وهكذا كلما بذلتُ المزيد من الجهد زاد الوضع سوءاً وكلما زاد الوضع سوءاً ازداد وضعي أنا سوءاً وعندما استأنفتُ عملي من جديد وجدتُ رأس قلمي الحبر مُلتصقاً على الأرض هنا كسهم. طبعاً الأوراق تخصّ المقاطعة أما قلم الحبر فهو ملكي وكلّفني وضعُ رأس جديد له دولارين. أنت تدين لي بدولارين "

قال لوكاس " دولارين؟ " وطرف بعينيه من جديد. ثم طرف مرّتين. " دولارين فقط؟ " وهنا طرف مرة واحدة، ثم فعل شيئاً بأنفاسه: ليست تنهيداً، بل ببساطة التخلّص منه، واضعاً إصبعيه الأوّلين داخل كيس النقود: " لا يبدو لي هذا المبلغ كبيراً ولكن أنا رجل مزارع وأنت رجل قانون وليس من شأني أنْ أعرف إنْ كنتَ تُحسِن القيام بعملك -كما يقول صندوق الموسيقى ليحاول أنْ يُعلّمك شيئاً مختلفاً: " وأخرج من الكيس ورقة نقدية متهرئة ومجعّدة على

شكل كرة لا يزيد حجمها عن حبة زيتون متغضّنة وفتحها بما يكفي ليقرأ مقدارها ثم فرشها ووضعها على طاولة المكتب ومن ثم تابع العدّ وإخراج ما في الكيس على الطاولة قطعة قطعة أربعة دايمات ونكلتين ومن ثم عدّها من جديد بسبابته، وهو يُحركها واحدة إثر أخرى بمقدر نصف بوصة، وشفته تتحرك من تحت الشارب، والكيس لا يزال مفتوحاً في اليد الأخرى، ثم انتقى قطعتيّ دايم ونكلة ووضعها في اليد التي تحمل الكيس المفتوح وأخذ من الكيس رُبعاً ووضعه على الطاولة ونظر نحو الأسفل إلى القطع النقدية برهة سريعة ومن ثم أعاد قطعتيّ الدايم والنكلة إلى الطاولة ورفع ربع الدولار وأعاده إلى الكيس.

قال خاله " هذه ليست إلا ست قطع صغيرة "

" لا عليك من هذا " قال لوكاس ورفع الربع وأسقطه من جديد في الكيس وأغلقه وأدرك وهو يراقبُ لوكاس أنّ الكيس يحتوي على الأقلّ قسمين مختلفين وربما أكثر، قسم ثان بعمق مِرفق تقريباً فُتحَ تحت أصابع لوكاس ووقفَ لوكاس ينظر برهى نحو الأسفل داخله تماماً كما قد تنظر إلى انعكاس صورتك داخل بئر ثم تناول من ذلك القسم كيس تبغ من القماش القذر المعقود بأنشوطة المنتفخ يبدو صلباً ارتطمَ بأعلى الطاولة بمق صوت ثقيل مكتوم.

قال " هذا يُكمِل المبلغ. أربع بنسات. كنتُ أنوي أنْ أودعها المصرف ولكن تستطيع أنْ توفّر عليّ المشوار. أتريد أنْ تعدّها؟ "

قال خاله " نعم. ولكن أنتَ مَنْ سيدفع النقود. أنت يجب أنْ تعدّها "

قال لوكاس " عددها خمسون "

قال خاله " هذا عمل ". لذالك حلَّ لوكاس كيس التبغ وأسقط ما فيه من بنسات على الطاولة وأخذ يُحصيها واحداً بعد آخر مُحرّكاً كل

قطعة بسبّابته نحو الركام الأول الصغير من قطع الدايم والنكلة، مُحصياً بصوت مرتفع، ثم أقفل كيس النقود وأعاده إلى داخل جيب المعطف وباليد الأخرى كنسَ كامل ركام قطع النقد والورقة النقدية المتغضّنة عبر الطاولة إلى أنْ اعترضتْ نشافة طاولة المكتب طريقها ومسح يديه وأعاده إلى مكانه ووقفَ من جديد وِقفة عنيدة وهادئة دون أنْ ينظر إلى أي منهما بينما الهدير الثابت لأجهزة الراديو والزحف المُرافق لنفير السيارات الزاعق وكل ما تبقّى من ضجيج كامل يوم سبت المُقاطعة يتصاعدَ فوق فترة ما بعد الظهيرة البراقة.

قال خاله "والآن ماذا بعد؟ ماذا تنتظر الآن؟"

قال لوكاس "وصل الاستلام"

فهرس

ولد ويليام فوكنر في ٢٥ أيلول ١٨٩٧ وهو روائي وشاعر أمريكي، وأحد أكثر الكتّاب تأثيراً في القرن العشرين.

حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٩، كما نال جائزة بوليتزر في عام ١٩٥٥ عن (حكاية خرافية)، وفي عام ١٩٦٣ عن (الريفرز).

استلهم "فوكنر" معظم أعماله من مسقط رأسه، ولاية ميسيسبي، حيث يعد أحد أهم كتّاب الأدب الجنوبي بالولايات المتحدة الأمريكية، وينضم إليه في نفس القائمة مارك توين، وروبرت بين وارين، وفلانري أوكونور، وترومان كابوت، وتوماس وولف، وهارير لي، وتينيسي ويليامز.

توفي في ٦ يوليو ١٩٦٢.

مكتبة نوبل

١٩٤٩